



المؤرخ العربي



مركز بحوث الدراسات العربية

مجلة تصدرها
الأكاديمية العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة وزارة الاعلام - دولة قطر

العدد التاسع

مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة وزارة الاعلام - دولة قطر

رئيس التحرير - الدكتور حسين أمين

هيئة التحرير :

- ١ - الدكتور مختار العبادي (رئيس قسم التاريخ) جامعة الاسكندرية
- ٢ - الدكتور يوسف فضل (عميد كلية الآداب) جامعة الخرطوم
- ٣ - الدكتور عبد الأمير محمد أمين (استاذ التاريخ) جامعة بغداد
- ٤ - الدكتور محمد زنيبر (رئيس قسم التاريخ) جامعة الرباط
- ٥ - الدكتور صالح المحارنة (رئيس قسم التاريخ) الجامعة الاردنية
- ٦ - الدكتور عبد القادر زبادية (رئيس قسم التاريخ) جامعة الجزائر
- ٧ - الاستاذ ابراهيم البغلي (مدير الآثار والمتاحف) الكويت
- ٨ - الاستاذ سلطان ناجي (استاذ التاريخ) جامعة عدن
- ٩ - السيد صباح غزال رحيم (مدير الادارة في الامانة) سكرتير التحرير العامي
- ١٠ - السيد اسماعيل عبد العزيز (مدير العلاقات العامة) سكرتير التحرير الاداري

محتويات العدد

مقدمة

- ١ (الفلاسفة المسلمون الأوائل وأثرهم في التراث الفكري
الدكتور حسين أمين - كلية الآداب - جامعة بغداد - العراق
- ٢ (تاريخ الآلهة اليمنية والتوحيد الإلهي
ثريا منقوش / باحثة ثقافية في مركز الأبحاث اليمني
- ٣ (مصادر تاريخ العراق والخليج العربي في دار السجلات الحكومية الهندية في بومبي
الدكتور عبد الأمير محمد أمين - كلية التربية جامعة بغداد - العراق
- ٤ (توينبي
الدكتور جواد علي - العراق
- ٥ (التراث الطبقي العربي بين الأصالة والتجديد
الدكتور مرسى محمد عرب / الاسكندرية
- ٦ (هجرة القبائل العربية الى الكوفة في القرن الأول الهجري وأثرها في التنظيمات القبلية
الدكتور محمد حسين الزبيدي - كلية الآداب - جامعة بغداد - العراق
- ٧ (أوراق البردي العربي مصدر أصيل للتاريخ الإسلامي
الدكتور أحمد الشامي - كلية التربية للمعلمين - قطر
- ٨ (سرية نخلة من سرايا الرسول المهمة
السيد عبد الجبار منسي العبيدي - كلية التربية - جامعة بغداد - العراق
- ٩ (أبو الريحان البيروني
الدكتور جلال شوقي - استاذ بجامعة القاهرة
- ١٠ (الحركة الباطنية في شمال فارس وأثرها السياسي المذهبي
الدكتورة فضيلة عبد الأمير الشامي - كلية الآداب - جامعة بغداد - العراق
- ١١ (Myths on the Conception of life between Mesopotamia and Homeric Greece .
الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية
- ١٢ (Important Ancient Mesopotamian Palaces
الدكتور سامي سعيد الأحمد - كلية الآداب - جامعة بغداد - العراق



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

مقدمة

ان النجاح اندي احرزته مجلة المؤرخ العربي في مجال البحث التاريخي ، مما شجعنا على المضي قدما في تطوير هذه المجلة التي اتسمت بالروح الموضوعية وجعلها ابدا اثبت المجالات التاريخية وارصنها في تقديم المواضيع التاريخية ومعالجتها بالتحري والدقة وبحيث تكون هذه المجلة من الوثائق المعتمدة وتعتبر من مصادر الدراسة والبحث في الميدان التاريخي .

ان هذا العدد التاسع من مجلة المؤرخ العربي والذي يسهم في اعداده وتحريره نخبة من المؤرخين والباحثين العرب يعطي الدليل الواضح على نجاح اتحاد المؤرخين العرب في توثيق أفضل الصلات بين المؤرخين في الوطن العربي ، وتفاعله معهم تفاعلا ثقافيا يحقق الاهداف التي أقيم من أجله اتحادهم العتيد .

ان مجلة المؤرخ العربي صورة حية للفكر التاريخي العربي ورمزا لوحدة المؤرخين العرب ، وبكل اعتزاز وفخر اقدم للقارئ الكريم هذا العدد الجديد طافحا بالافكار السامية والآراء البناءة التي قدمتها هذه البحوث الرصينة .

والله أسأل ان يحقق أهدافنا كاملة من أجل الحفاظ على تراثنا وكتابة تاريخ امتنا بالقلم النزيه وبالروح النبيلة وبالصفة العلمية وبذلك تبرز الجوانب المشرقة من تاريخنا القومي ، تاريخ الامة العربية المجيدة ، والله ولي التوفيق .

الدكتور حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الفلاسفة المسلمون الأوائل وأثرهم في التراث الفكري

الدكتور حسين أمين
جامعة بغداد

امتاز الفلاسفة المسلمون بتفكيرهم الخالص النابع من ذاتهم ،
وبابتكاراتهم الصادرة من عقليتهم التي اعتمدت على التفكير المنسق ، وأثنا
اذ نحاول توضيح جوانب الفلسفة الاسلامية واصولها نعتقد ان الفلسفة
الاسلامية برمتها طابعا مميزا وواضحا للحضارة الاسلامية ، ففي مناهج
البحث الفلسفي الاسلامي والآراء القيمة التي قدمها الفلاسفة المسلمون
تعبيرات صادقة للتقدم العلمي الذي وصله المسلمون في القرون الوسطى .
ولكي تبين الجانب الأصيل في الفلسفة الاسلامية لا بد من أن نعرض
لموقف الاسلام من مختلف الثقافات الفلسفية التي تكون دائرة معارفهم
في تلك الناحية ، وتلك الثقافات يمكن حصرها :

أ - الفلسفة الارسطوطاليسية المزوجة بالافلاطونية المحدثه ، وقد
تناول هذه الفلسفة بعض الأوائل من المسلمين بمنهج تنسيقي ، وحاولوا
في ضوءه التوفيق بين مختلف المذاهب اليونانية ، واصطنعوا في هذا
كل وسيلة ممكنة .

ب - التصوف الاسلامي - وهو يشمل مجموعة مختلفة من التفكير
اليوناني وخاصة الافلاطونية المحدثه ، والتفكير الشرقي وامشاج من
المسيحية والاسلامية ويسمى أصحاب تلك المحاولة صوفية الاسلام .

ج - علم التوحيد - او علم الكلام او علم اصول الدين . ويسمى اصحابه بالمتكلمين او متكلمي الاسلام .

د - علم اصول الفقه - وهو ادراك القواعد التي تتوصل بها الى استنباط الاحكام الشرعية الفرعية عن ادلتها التفصيلية ، او هو نفس القواعد الموصلة بذاتها الى استنباط الاحكام وبمعنى أدق هو منهج الفقه او منطقته مقابلا في ذلك لمنهج الفيلسوف ويسمى أصحابه بالاصوليين ، أو علماء اصول الفقه .

ولا شك فان الفلاسفة المسلمين اعتمدوا اعتمادا كبيرا على الفلسفة اليونانية ولكنهم وفقوا الى بعض الابتكارات والتجديدات في ابحاثهم الفلسفية .

والنزاع بين الاسلام والفلسفة اليونانية بدأ منذ اللحظات الاولى التي دخلت فيها تلك الفلسفة في العالم الاسلامي ولكن النزاع بين الاثنين استمر امدا طويلا لم تخمد جذوته حتى بلغ أوجه حين اعلن الغزالي تكفير فلاسفة الاسلام أنفسهم باسم الاسلام .

ويبدو انه كان لا بد من اختلاف الطبيعتين - فالاسلام وضع من أوضاع الحياة العلية ، بينما الفلسفة ، بحث مطلق في الوجود من حيث هو وجود ، كانت الفكرة الشائعة ان حركة اتصال المسلمين بالفلسفة اليونانية انما بدأت في عصر العباسيين ، ولكن يبدو ان اتصالا حقيقيا نشأ في العالم الاسلامي اتصل فيه المسلمون بالفلسفة اليونانية في العقود الاسلامية الاولى ، فقد ذكر ابن كثير ان علوم الاوائل انتشرت في العالم الاسلامي في القرن الاول الهجري ، والمقصود بعلوم الاوائل الفلسفة اليونانية وعلوم النجوم وغيرها من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الاسلامي ، ويذكر الفيلسوف الشيرازي في كتاب الاسفار الاربعة - عن المطارحات للسهروردي (ان المتكلمين الاوائل في عهد بني امية عرفوا الفلسفة اليونانية ، ولكن ليست من ذلك النوع المشائي الذي عرفه

المسلمون بعد) ويقول ان هؤلاء المتكلمين أخذوا تلك القواعد اليونانية التي عرفوها وجعلوها اساسا لفلسفتهم ، ومن المحتمل ان يكون قد وصل الى المتكلمين في العصر الاول عن طريق مناقشات شفهية مع آباء الكنيسة ، أو عن طريق كتب نقلت بعض قواعد الفلسفة الرواقية . . والرواقية ، فرقة من الفلاسفة القدماء منسوبة الى الرواق الذي تحته كان يعلم زينون الذي انشأها أواخر القرن ٤ ق.م . وتنقسم الفلسفة في نظرهم الى المنطق والطبيعة وعلم الاخلاق وهو الاهم . الحكم يخضع لناموس الكون ولا يفصلون العناية الالهية عن القضاء ، ولا يميزون بين المادي والروحي .

وكانت لحركة الترجمة الآثار البعيدة في تعرف المسلمين على كتب الفلسفة اليونانية وأفكار اليونانيين الفلسفية ، وقد عرف المسلمون المعلومات الكافية عن طاليس وانكسمندريس وانكسمانس وفيثاغوراس وانكساغوراس وديموقريطس ، كذلك كانت لهم معرفة واسعة بأفكار سقراط وافلاطون وارسطو أشهر فلاسفة اليونان عند المسلمين .

١ - الكندي - ولد حوالي سنة ١٨٥ هـ ٨٠١ م ، وهو ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي ، نسبة الى كندة القبيلة العربية العريقة التي كان أصلها في أرض اليمن ، وقد نزع منها بطون الى بعض الأقطار فكان لها فروع في العراق والاندلس وبلاد الشام ، ومن اجداد الكندي ، قيس ابن معدي كرب والاشعث بن قيس الذي ينتهي اليه نسب الكندي في الاسلام . ونسبة في الاسلام هو يعقوب بن اسحق بن الصباح بن عمران ابن اسماعيل محمد بن الاشعث بن قيس ، وكان ابوه اسحق بن الصباح شاعرا واميرا على الكوفة في عهد المهدي والرشيد ، واختلفت الروايات عن نشأة الكندي وحياته فقد ذكر بعضهم انه ولد في البصرة ، وقال غيرهم انه ولد في الكوفة عند ما كان ابوه واليا عليها وسواء أكان مولده في البصرة أو الكوفة فهو عراقي المولد والنشأة عربي الثقافة مسلما وتعلم في صغره القراءة والكتابة ودرس القرآن الكريم وعلوم الدين والفصاحة ، وقصد بغداد عاصمة الدولة العباسية التي كانت في أيامه مشعلا للعلوم

ومأوى العلماء وملاذ الادباء والكتاب والشعراء وموطن المصنفين
والمترجمين ، واقل يعقوب الكندي على خزائن الكتب في مدارس
ومساجد وقصور بغداد وفي بيوت علمائها واعيانها اقبالا عظيما ينتهل
من الكتب الوفيرة التي عجت بها بغداد ما كان منها مترجما عن اليونانية
والأرامية والفارسية فضلا عن المصنفات العربية الكثيرة في شتى العلوم
والمصارف . وأصبح الكندي صاحب اعظم شهرة وأرفع ذكر وأبقى أثر
من جسيع بني كندة في حياته وبعد وفاته فهو بالاضافة الى المناصب المهمة
التي اشغلها في دولة بني العباس خصوصا ايام المأمون والمعتصم كترجم
ومنقح فقد كان منصرفا الى التأليف وترك مئات المؤلفات في شتى العلوم
والفنون ، قال عنه ابن النديم « فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم
القديمة بأسرها » وقال صاعد الاندلسي : « انه لم يكن في الاسلام
من اشتهر عند الناس بعلوم الفلسفة حتى سموه فيلسوفا غير يعقوب » .
وقال ابن ابي اصيبعة ، حذاق الترجمة في الاسلام اربعة حنين بن اسحق
ويعقوب بن اسحق الكندي وثابت بن قرة وعمر بن الفرحان الطبري .

لقد خاض عالمنا الكبير حقولا شتى من المعرفة وتناول بالتأليف
مواضيع مختلفة في علوم الطب والكيمياء والحساب والمنطق والادب
والهندسة والعلوم النفسية والسياسية والجدلية وعلمي الفلك والنجوم
 ووضع الالحان الموسيقية وغير ذلك من البحوث التي تناولت تقلبات
الجو والبرد والثلج والضباب والرعد والبرق والصواعق واختلاف
الأزمنة والابعاد المتعلقة بالاجرام ومسافات الاقاليم ورؤوس الجبال
وبعد مركز القمر عن الأرض والاحجار الكريمة والسيوف والزجاج
والالوان والمد والجزر وغيرها كثير .

وكان عالمنا على جانب كبير من الثقافة والفلسفة اليونانيين وكان
متمكنا من اللغة اليونانية ، وقد أحصى ابن النديم مؤلفات ومترجمات
الكندي بـ ٢٤١ مؤلفا . وقد نشر الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي
ابو ريذة مجلدين تضمنا خسا وعشرين رسالة من مصنفاته وسمها

بـ (رسائل الكندي الفلسفية) ، وقد ترجم بعض المستشرقين بعض مؤلفات الكندي الى اللغة اللاتينية والالمانية وغيرها من اللغات الاجنبية .

ويذكر القفطي في كتابه اخبار الحكماء ان للكندي ٢٤ مؤلفا في الطب منها كتاب الطب الروحاني ، كتاب الطب البقراطي ، كتاب في الغذاء والدواء . كتاب الابخرة المصلحة للجو من الاوباء ، كتاب كيفية الدماغ ، كتاب في علة نفث الدم كتاب في وجع المعدة والنقرس ، كتاب علاج الطحال ، وغيرها من الكتب التي كان لها الاثر الكبير في تقدم الطب وانتشار علومه في القرون الوسطى .

والكندي يعتبر رائد الحقيقة ، فقد كان يقدس الحق والعلم والعناية بهما ويعتبرها من المميزات الأساسية للاسلام وللروح الاسلامية ، ويعبر الكندي في رسائله عن شكره لكل من جاء بشيء من الحق مهما كان يسيرا ، لأن معرفة الحقيقة ثرة تضامن الاجيال الانسانية في عصور متطاولة ويذكر الاستاذ دى بور في كتابه تاريخ الفلسفة في الاسلام (كان الكندي واسع الاطلاع في جميع العلوم وقد تمثل كل ما كان في عصره من علم ، وآراؤه في المسائل الكلامية فيها نزعة المعتزلة) . ومن الجائز ان اعتبار الكندي من مؤيدي المعتزلة او من الباحثين في بعض اصولهم فمن المواضيع التي كتب فيها الكندي العدل والتوحيد ، وان هذين الموضوعين هما من اصول المعتزلة ، كما انه رد على الملحدين وغيرهم من الذين كان المعتزلة يعارضونهم ويشددون الكلام عليهم ، كما انه كان متصلا ببعض الخلفاء العباسيين من الذين كانوا يؤيدون المعتزلة .

والكندي ينظر الى الفلسفة نظرة غيرية ونظرة ذاتية :

النظرة الغيرية وفيها يحاول ان يتبع كبار الفلاسفة ليستفيد من كتاباتهم وما يعنون بكلمة فلسفة . اما النظرة الذاتية ، وفيها يحاول ان يقدم لنا تحديدا شخصيا يستقيه من تعاليم افلاطون وارسطو ، وهو بهذا يقول عن الفلسفة انها (علم الاشياء والحقائق بقدر طاقة الانسان) وقد

اضاف الكندي ان في علم الاشياء بحقائقها علم الربوبية وعلم الوجدانية وعلم الفضيلة ومن ثم يكون غرض الفيلسوف نظريا وعلميا . فاما الغرض النظري فاصابة الحق ، واما الغرض العملي . فالعمل به ، وطريق الفلسفة هي (محبة ونظام ونور وتمجيد لقوى العقل والقلب واذا وصل الفيلسوف الى هذه الدرجة أصبح معدا لقبول المعارك التي تهيئه للقيام بوظيفته) أي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى - وقد طبق الكندي الرياضيات في ابحاثه الطبية في نظريته المتعلقة بالادوية المركبة والواقع انه بنى فعل هذه الادوية كما بنى فعل الموسيقى على نسبة المتواليات الهندسية المتضاعفة ، والامر في الادوية أمر تناسب في الكيفيات المحسوسة وهي الحار والبارد والرطب واليابس ، ويظهر ان الكندي عول على الحواس ولا سيما حاسة الذوق في الحكم على هذا الامر وقد اعتبر كاردان وهو أحد فلاسفة عصر النهضة لقوله بهذه النظرية واحدا من اثني عشر مفكرا هم أنفذ المفكرين عقولا .

ويتفق رأي الكندي مع آراء الفلاسفة الاغريق في نظرية المعرفة والتي تقوم على ركنين أساسيين المحسوس والمعقول ، ويقول الكندي ان معارفنا اما ان تكون حسية واما ان تكون عقلية ، اما ما بين قوتي النفس الحسية والعقلية وهي القوة المتخيلة أو المتصورة ، فتسمى عنده قوة متوسطة ، فالحواس تدرك الجزئي او الصورة المادية على حين ان العقل يدرك الكلي ويدرك الأنواع والأجناس ، أي الصورة العقلية وكما ان المحسوس في النفس هو الحس فكذلك المعقول هو والعقل شيء واحد ونظرية العقل من النظريات التي تتميز بها الفلسفة الاسلامية .

وقد حاول الكندي التوفيق بين الفلسفة والدين ، وقال ان الفلسفة علم الحق والدين ، وفي رأيه ان الذي يتنكر للفلسفة انما يتنكر للحقيقة وهو من ثم كافر . ورأيه في حدوث العالم يختلف عن رأي ارسطو وفي ذلك يتبع تعاليم الدين الاسلامي ويجاري آراء المتكلمين في عصره وبرهان الكندي قائم على تحديد معنى الزمان والحركة فهو يثبت ان كل ما في العالم متحرك والحركة هي تبدل الأحوال .

وكان الكندي قد أثر تأثيرا كبيرا في الحياة العقلية الاسلامية فقد كان هذا العالم معلما ومؤلفا بلغ من الشهرة حدا بعيدا ، وكان تأثيره الكبير عن طريق مؤلفاته القيسة في علوم الرياضيات واحكام النجوم والجغرافية والطب وكان من أنبغ طلابه احمد بن محمد الطيب السرخسي المتوفي ٢٨٦ هـ سنة ٨٩٩ م وقد نبغ السرخسي في الكيمياء واجتهد في تعرف حكمة الخالق وقدرته في عجائب مخلوقاته واشتغل بدراسة التاريخ والجغرافية .

ومن طلابه أيضا ابو معشر جعفر بن محمد البلخي المتوفي سنة ٢٧٢ هـ . ٨٨٥ م وقد نبغ في علم احكام النجوم . ومن الجدير بالذكر ان الكندي الذي يعتبر فيلسوف العرب الاول ، كان يشارك الفقهاء في بعض المبادئ الكلامية المحافظة وانه ذهب مذهب المعتزلة في بعض آرائهم الاجتهادية او تخطاهم جميعا الى النظر في قضايا تجاوزت مسائل الكلام هي اقرب الى المباحث الفلسفية الصرفة ، فشق بذلك الطريق الى البحث الفلسفي المجرد وعمل الكندي هنا يتجلى في توجيه الفكر العربي بسحاولات كبرى ثلاث هي : ١ - توسيع نطاق البحث النظري . ٢ - استحداث التعابير ووضع التعاريف الفلسفية . ٣ - التقريب بين اصول الشريعة ومبادئ الفلسفة . والخلاصة ، فالكندي عقل من العقليات الاسلامية الفذة والتي عملت على تحفيز المسلمين للاخذ بعلوم الاوائل والتعرف على أفكارهم وآرائهم وانه قام بتقديم آرائه وأفكاره الفلسفية التي بناها على أساس علمي ومنطقي وانه خلف تراثا حيا تفخر به المكتبة العربية كما تظهر بوضوح نضوج العقلية العربية والاسلامية .

تأريخ الآلهة اليمنية والتوحيد الآلهي

بقلم شرياً منقوش
بمكتب ثقافته في مركز
الاجمعة البنية/عمر

(ان التعاليم التي اشتملت عليها النقوش يشكل مجرد جزء صغير منها قوام الديانة اليهودية .. والاسلام) .

لقد جاءكم أهل اليمن وهم قوم أرق قلوبا وألين أفئدة . الايمان يمان والحكمة يمانية . (محمد (صلعم) .

ان الانطلاق في معرفة الدين انما يأتي عن طريق معرفة نشاط الناس الواقعي ووفق صيرورة حياتهم الواقعية .. وان العقائد ليست سوى اصداء للحياة الواقعية وحتى التخيلات الوهمية والسحر والأساطير ما هي الا تصعيدات ناجمة عن صيرورتهم الحياتية المادية) . « ماركس » .

بذلت في هذه الدراسة التي أقدمها جهدا ، لا من حيث تجميع المعلومات أو ربطها ، ولكن من حيث تحليل تلك المعلومات والوقائع التي حصلت عليها من كتب التاريخ لأتمكن من التقاط الاوضاع الاجتماعية الاقتصادية لتلك المجتمعات . كما حاولت فيها ان اعيد اصل الامور الى اصحابها الحقيقيين ، دون ان أمس اقواما او معتقدات . ولكم أتمنى ان تجد اهتمام العلماء والمؤرخين المجتمعين هنا ... لقد حاولت في هذه الدراسة ان أدلل ببراين علمية ، على ان فكرة التوحيد باله انما هي ذات أصول يمانية تحولت الى شمال الجزيرة العربية لا لكي تنتهي في جنوبها ، وانما لتصبح أداة لتوحيد أقوام تلك الممالك « الكلدانيين والكنعانيين والآشوريين ثم المصريين » بعد ان نجحت الى حد بعيد في

بناء الدولة المركزية في تلك الممالك في جنوب الجزيرة العربية •

لقد اغفلت كتب التاريخ دور اليمانيين في خلق هذه الفكرة كفكرة افترضت نشوءها الظروف والاضاع الطبيعية والاجتماعية ، فنسبتها الكتب الدينية الى ابراهيم الخليل (ابرام خل ايل) كما ورد في كتاب الدكتور أحمد سوسة (العرب واليهود في التاريخ) وتطرت التوراة ، بأن نسبت ابراهيم الى اليهود ناسية او متناسية التسلسل الزمني الاحداث والوقائع . وعمل بعض المؤرخين على تثبيت هذه الفكرة وذهب آخرون الى نسبتها الى ابراهيم الخليل • وهم المؤرخون العرب والمسلمون مدعين وجهة نظرهم هذه بسوقف الاسلام من ابراهيم الحنيف الذي سار معتمد « صلعم » على خطاه واقتدى به ، وجعله مثلاً أعلى له في توحيد ودعوته الاسلامية لكل شعوب الارض وبقي الشعب اليمني مهضوما من حقه التاريخي . ولم يكلف احد نفسه مشقة البحث في اصول الفكرة فكرة التوحيد باستثناء انجلز وماركس اللذين تمكنا من التقاطها من كتب التاريخ بفكرهما الجلي الوضاح والمنصف للاحداث والوقائع حين حكمها في اطارها العام • ومن خلال الظروف الطبيعية والاجتماعية • فلم يجردها من علاقاتها بالاحداث الاخرى حتى تصبح مجرد فكره في نوعي المطاق بل جعلها في اطار اكثر شمولية • الا ان ابراهيم كما يبدو قد اكتسب اهميته التاريخية واستطاع ان يغطي على أصحاب الفكرة الحقيقيين من كونه زعيما روحيا لأقوام عدة (الكلدانيين والكنعانيين والآراميين والآشوريين) فقد ادعت هذه الأقوام نسبته الى نفسها كل على حدة • واعتقدت كل جماعة منهم ان ابراهيم زعيمها الروحي •

ولقد دفع سقوط الحضارة اليمنية وخرابها الكلي أولوية اليمنيين التاريخية لهذه الظاهرة التي شككت منعطفا جديدا في حياة اقوام الجزيرة العربية • ذلك ان السقوط المريع هو الذي أدى الى تحول (فكرة التوحيد) وهي الاساس والعماد الحقيقي لبناء الدولة المركزية آنذاك الى شمال الجزيرة العربية •

ان التركيز على ابراهيم كداعية أول لفكرة التوحيد انما جاء من محاولة ابراهيم وقتها ان يصبح زعيما وطنيا للمنطقة العربية كلها • ولم ينتبه أحد الى أن مرونة الديانة اليسنية وقدرتها على التكيف مع الظروف هو الذي مكن القيم الوجدانية التي حملها ابراهيم من ان تسيطر وتستحوذ على شعور الناس تجاه القوة التي تسيطر عليهم والتي أبقتهم لفترة طويلة تكاد تقارب الاربعة آلاف عاما تحت سيطرتها كقوى لا تقاوم • تجسدت في اله غيبي يعيش في أفئدتهم وعقولهم •

ان انصاف الامم يتطلب منا ان نعيد حقها اليها من خلال تاريخها الطويل الذي هو بحاجة الى اعادة النظر فيه بروح علمية حيادية بعيدة عن التعصب والتزمت لجهة دون الاخرى • وحتى يشعر الجميع اننا عندما نكتب وتحدث عن التاريخ انما هو من اجل العلم والانسان •

تعريف الدين

الدين حسب تعريف بعض العلماء هو ايمان بكائنات روحية لها قوة فوق الطبيعة والبشر تؤثر في حياة الكون فهي تدير الطبيعة كما تدير حياة الانسان •

ويعرفه آخرون بأنه شعور عند الفرد أو الجماعة تجاه قوة غيبية كما هو عند المسلمين والمسيحيين واليهود •

ولم يستطع العلماء الجزم في حدود الدين فالدين في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف عن مفهومه عند الشعوب والأقوام المتقدمة • ويختلف باختلاف وجهات النظر لكل من هذه الشعوب تجاه الحياة وقد تدخل امور كثيرة في حدود الدين عند أقوام بينما هي قضايا اخلاقية انسانية عند الآخرين •

والدين عند مختلف الأقوام شعائر يتسك بها الاهلون تميزهم عن

غيرهم من اتباع الديانات الاخرى • ويرى بعض العلماء ان لفظة دين هي فارسية الأصل ويذهب آخرون الى انها آرامية (دينو) •

والدين في اللغة البابلية هو القضاء • وديان في الآرامية هي القاضي أو الحاكم ويبدو ان هذا المعنى هو المعنى الصحيح من خلال تصرفات المتدينين بالاديان فهم حين يتعبدون ويؤدون واجبات الطاعة ، انما يردون جزءا من دين عليهم وهو وجودهم في الحياة واستمراريتهم الوجودية بكل متطلباتها التي يعتقدون ان الله يوفرها لهم • فيردوا له جزءا من هذا الدين العظيم بالطاعة والتعبد •

ولكلمة دين في نصوص العربية الجنوبية مفهوم العادة والشأن وقد وردت في نص ثمودي بهذا المعنى (بدين ود أمت) أي (على دين ود أموت) •

والأديان كما يصنفها العلماء صنفين : اديان بدائية ، وأديان عليا • الا أنهم وقعوا في تناقض مع أنفسهم حين قسوها على اساس احكام الدين وعقائده وعمق الافكار التي جاء بها ، وليس على أساس زمني اجتماعي • وتقوم الاديان البدائية على السحر والاساطير والتقديس المبالغ به • أما الأديان العليا وهي المساوية بالذات فتقوم على احكام وتشريعات وقوانين وفلسفات اجتماعية •

وتختلف ديانات أهل الجبال عن ديانات أهل السهول والوديان كما ان تطور اشكال المجتمعات قد لعب دورا كبيرا في تطور الدين • فالمجتمع الرعوي يختلف تفكيره ونظرته الدينية عن مجتمع الزراعة والمجتمع الصناعي اختلفت نظرته الى الدين اختلافا كبيرا •

اما الدين عند الماديين بسا فيهم ماركس وفويرباخ • فله تعريف آخر يختلف عن تعريفات علماء الاديان المثاليين • حيث يراه فويرباخ (انه علاقة عاطفية ، علاقة قلوب البشر فيما بينها والتي ما تزال تبحث حتى

اليوم عن حقيقتها في انعكاس للمواقع بواسطة اله واحد أو آلهة متعددة) •

« أما الدين كما يراه ماركس » يعيش على الأرض وليس فوق السماء ذلك لأنه ليس ثرة وحي فوق طبيعي ولا حصيلة خديعة دبرها الكهنة وعلماء اللاهوت ، لذا لا ينبغي الهبوط من السماء الى الأرض بل ينبغي فهم السماء انطلاقاً من الأرض » وتنطلق في تفسيرنا هذا للديانة اليمينية من تطورها وتحولها من تفسير وتحليل للمواقع التاريخي الذي عاشه الشعب اليميني •

« ان الدين هو الانعكاس الواهم في دماغ البشر للقوى الخارجية التي تسيطر على وجودهم اليومي • ومن مثل هذا الانعكاس تتخذ القوى الارضية شكل قوى فوق أرضيه » •

وترى الماركسية « ان الانسان هو صانع الدين وليس الدين هو الذي يصنع الانسان وتؤكد على ان الدين هو وعي للذات والشعور بالذات عند الفرد الذي لم يجد ذاته بعد ، او الذي فقدتها نتيجة سبب من الاسباب الشخصية » •

ان الذين يفسرون التاريخ على اساس ديني مجف ، انما يريدون ان يجعلوا منه شمساً يدور حولها الانسان فيستنزف طاقته والمطلوب ان نقلب الامور لنضع على قدميها فنجعل الانسان شمساً يدور حول نفسه ليكتشف طاقاته وقدراته في ذاته •

ويقسم البعض الاديان الى ثلاثة اقسام اديان قبلية واديان قومية واديان مطلقة عامة •

ويدرس علماء الأديان في دراستهم لتاريخ الأديان وتطورها والادوار التي مرت بها امورا كثيرة ، بعضها اجتماعي وآخر اقتصادي وثالث

تاريخي .. الخ .. وتؤثر تلك العوامل في نمو الافكار الدينية وتطورها،
لما لها من تأثير كبير على المجتمعات كما للعوامل الطبوغرافية والمحيط
تأثير في تكييف الدين وفي تصور الناس للآلهة التي عبدوها كما أن
للسياسة دور كبير في تطور الاديان .

وفد لعبت الاديان دورا كبيرا في توجيه الناس افرادا وقبائل
وشعوبا وليس ذلك بغريب فالانسان في احيان كثيرة يعبد ما
تصنعه يداه .

ولقد حفظت النصوص العربية اسماء كثير من الآلهة التي كانت
تعبد في جنوب الجزيرة العربية قبل اليهودية والنصرانية والاسلام . الا
انها أي النصوص العربية الموجودة لم تشرح قضايا اليمينيين الدينية ولا
عقائدهم او حتى ادعيتهم وصلواتهم واكتفت بذكر اسماء الآلهة . ومن
المحتمل وجود نقوش كثيرة تنام تحت ركام الرمال ، ذلك لأن المنطقة
ما زالت بحاجة الى مسح جيولوجي كبير .

ولذلك فان البحث في قضية الدين والامور الدينية في مجتمع
جنوب الجزيرة يبدو من الصعوبة بمكان لعدم توفر النقوش المطلوبة في
هذا المنحى . وما لم يعتمد على تحليل الواقع وهو الطريق السليم والوحيد
لمعرفة الكثير من الامور الغامضة علينا . ومن هنا فقد حاولت قدر الامكان
الاستفادة مما وجد من آثار وما كتب من حقائق تاريخية في كتب التاريخ
واستعنت بهما في عملية التحليل بمنهج المادية التاريخية حتى أتمكن من
وضع الامور في محلها الصحيح ولم يكن امامي غير هذا المنهج لتدليل
كثير من الصعوبات التاريخية ولتسديد ما قد يوجد من فراغ في السرد
للأحداث التاريخية بسبب ضياع بعض النقوش او عدم العثور عليها بعد .

ان الدين الحقيقي لاقوام الممالك اليمنية القديمة كان تقديسا للامة
اليمنية والدولة المركزية العظيمة . فلقد كانت جميع الاعمال الكبيرة
والجبارة التي تأمر بتنفيذها الدولة من اجل مصلحة الامة اليمنية بأسرها

تنفذ برغبة وحماس يحدوه الامل في رضى الآلهة التي يعد الملك مثالا لها في الارض . ذلك ان سلطة الملك كانت دينية دنيوية (فالمكرب) أي المقرب الى الآلهة هو الذي يعلن الحرب ويصدر التشريعات والقوانين يأمر بجمع الجباية للمعابد . ولقد حكم معين وحضرموت عدد من هؤلاء المكربين قبل ان تتحول حضرموت الى مملكة ، ومنهم المكرب (يرعش بن اب يشع) . ويبدو ان آخر مكرب من المكاربة الحضارم كان قد زهد في الحكم المزدوج فتنحي عن السلطة الدينية . وانفرد بالحكم الديني وتلقب بلقب ملك بدل المكرب . هذا الملك حسب قائمة فيلبي (صدق ايل) الذي تولى العرش عام (١٠٢٠ ق . م) كما حدد فيلبي . وهو مل .

ولقد كان البناء من اجل ازدهار اليمن وحضارته الذي ولا شك سيؤدي الى انتعاش حياة الانسان اليمني بكل جوانبها هو الدافع الحقيقي الى العمل المتواصل وليس العكس كما يحاول البعض ان يصور الاعمال العظيمة تلك التي قام بها انسان الحضارة اليمنية هي من أجل التقرب الى الاله . اما لماذا يتقرب الى (الاله عندما) يتقدم على تلك الاعمال فليس الا من قبيل الاحترام ورفع المعنويات وحتى تمنحه كما يعتقد هو القوة لانجاز مهامه التاريخية العظيمة . ان الاديان كما يرى ماركس يؤسسها اناس يكابدون هم بانذات حاجة دينية ، ويتحسسون الحاجة الدينية عند الجماهير التي تفرضها عليهم طبيعة ظروفهم الاجتماعية والطبيعية .

لقد استخدم الدين من قبل الدولة في الممالك اليمنية في فترات متقطعة للخلق والابداع . وبناء تلك الحضارة العظيمة فلم يكن بالامكان مخاطبة الناس مباشرة الا باستخدام الدين كسلاح لشحذ الهمة وبناء اليمن الحضاري . واستطاع بالفعل ان يقوم بالدور الموكل اليه .

نبذة عن الآلهة التي عبدت عند اليمنيين في تلك الفترة

لقد ادت الآلهة واجباتها نحو الانسان بصورة متعددة فلم تقتصر حسب اعتقاده من القيام بما كان مطلوباً منها تأديته آنذاك ، خاصة وان

انسان تلك الحضارة لم يكن مقصرا نحوها فقد عبدها وقدم لها القرابين
والنذور توددا وتقربا منها •

لقد سخرها الملوك لتحقيق سطوتهم وسيطرتهم على المجتمع آنذاك •
وقاموا بتأدية الطاعة لها وارضائها بكل الوسائل فقد ورد في الكتابة
رقم (١١٥٠) كما جاء في موسوعة جواد علي « المفصل في تاريخ العرب
قبل الاسلام » ان الملك (اب يدع يشع) قام مع اشراف مدينة قرقنا
باصلاح خنادق المدينة وترميم اسوارها تقربا الى آلهة معين (عثرو
قبضم) (عثرو ذو قبض) ومعبده في رصاف القبيلة هوازن • كما عبدوا
(ود) و (نكرح) • فقد بنى ملك حضرموت (شهر علف بن صدق آل)
حصنا كبيرا ونذره للاله (عثرو ذو قبضم) و (عثرو شرقن) و (ود)
و (نكرح) •

وفي شكر للاله على نجاة قافلة من الوقوع في أيدي الغزاة
اضافة الى الالهة السابقة فقد وردت اسماء اخرى (ذات نشق) (عثرو ذي
يهرق) و (يثل) • وقد استخدم الملوك ألقاب الآلهة مثل (يشع) المنقذ
(صدوق) الصادق او العادل (دريا) العالي (نبط) المضىء رقه الحبيب
أو الاقر (ويشر) المستقيم •

وعثرو وهو اله يوجد بموضع يقال له حجر او حجر • وقد اطلق
شعب كمنهو على عثرو لقب الدال أي (الدليل) وكانت من عادات اليمينين
عند انتصار شعب آخر ، ان يقدم المطلوب ولاءه للشعب المنتصر على
شكل عبادة آلهته كما فعل شهب كمنهو عندما قدم الطاعة والولاء
لملك سبأ وآلهتها • وهذا يعني اعتراف الشعب بسيادة شعب آخر
وآلهته عليه •

اهتم المعينيون بالمعابد اهتماما خاصا ففرضوا لها جبايات خاصة
وأراضي زراعية واسعة وقفا عليها • وجمعت لها من النذور موارد ضخمة
تقدم باسم الاله عند شفاء شخص او عودته من سفر او سقي ارضه أو

نجاة تجارته • وعبر عن هذه النذور والهبات بلفظتي (أكرب) أي اقرب • وهي ما يتقرب به الى الآله وتعد على الناذر دين للآلهة • فيقال (دين عثتر) •

وقد اتبعت عادة لجسج الجباية المعبد يفوض الملك او المعبد رئيس القبيلة أو زعيمها لجسج الجباية او انشاء مشروع باسم الآلهة ومن المعروف في عاداتهم انه اثناء اتفاق طرفين على القيام بعمل ما او انشاء مشروع بينهما يعقد الاتفاق باسم الآلهة التي تكون قد رضيت بالاتفاق ويخصص لها جزءا من المشروع • كما تعهد المعابد للرؤساء والمشايخ للقيام بالاعمال المطلوبة لها •

ولقد كان على هذه المعابد بالمقابل اداء بعض الخدمات العامة للشعب مثل انشاء مباني عامة • وتحصين المدن • • ومساعدة الحكومة في تخفيف الضرائب عنها وكانت واردات تلك المعابد السنوية متساوية مع واردات الحكومة •

ذكر الدكتور جواد علي أن المعابد كانت منتشرة في كل المدن • وفي بعض الأحيان كان في كل مدينة معبد وأحيانا عدة معابد تخصص لآله واحد وتسمى هذه المعابد باسمه وتندرج له النذور ويقوم رجال الدين بإدارتها وإدارة أوقافها وإقامة الشعائر الدينية •

ويعتقد ان (نكرح) آلهة معين انما هي الشمس التي يقابلها عند السبعين ذات حميم (ذات حمم) •

ويمثل (الآله ود) عند المعينين رجلا شجاعا مقاتلا • وقد نعت هذا الآله بنعوت كثيرة مثل : الهن (أي الآله) و (الكهلان) أي القدير • وقد وردت في نصوص جنوبية جملة (دم شهرن) أي (ود الشهر) أي (الاب القمر) •

ويبدو ان للمعينين الجنوبيين اله لم يكن نفس اله المعينين الشماليين •
وقد عثر على كتابات حضرية تدل على ان اهالي حضرموت عبدوا نفس
اله معين كتوثيق للروابط بينهما فقد ورد اسم (شهر علي بن صدق آل)
ملك حضرموت • واسم (اب يدع يشع) ملك معين تقربا الى الاله (عتتر
ذي قبض) • كما ورد ذكر الاله (عتتر الشارق) و (ود) و (نكرح)
لثمتين الروابط بين عرشيهما • ومن المعروف ان أي عمل يقوم به الملك
أو القبيلة كان يعتمد بذكر اسم اله ليعطي الطبيعة الشرعية والقانونية
امام الناس •

آلهة حضرموت

اكتشفت بعثة بريطانية في الحريضة آثار معبد الاله (سين) ويرتد
الى القمر • ويعرف هذا الموضع في الكتابات الحضرمية التي يرجع
تاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد كما تقول بعض كتب التاريخ •
باسم (مذهم) أي (مذاب) • وعرف باسم (معبد سين ذو مذاب) •
تقرب اليه الناس بالنذور لينحهم طول العمر والخير والبركة •

وقد اعتمد عليه ملوك حضرموت اعتمادا كبيرا في انتزاع الشريعة
لأعمالهم الكبيرة • فها هو الملك (يدع اب) يبني حصنا عظيما ويسور
شبهه بسورها الضخم ويرصد لذلك العمل الاموال الطائلة • باسم
الالهتين (ذات حميم) و (ذات حشول) •

ومن عادات الملوك الحضارم انهم عندما كانوا يعمرن المدن
ويشيدونها يعطون الاولوية لبناء المعابد كما فعل (بدع ايل بين) فبي
الكتابة الموسومة بسمه Glaser 1623 لبناء معبد (علم) للاله (سين) •

كما كان تنويع الملوك لا يتم الا بعد تقديم القرابين للاله كما فعل
(يدع ايل) عند تنويعه ملكا على حضرموت في حمن (أنود) كما
قدم شكر لها على نصرها اياه في حربه ضد ملوك (سبا وذو ريدان) •

لقد تعلق ملوك حضرموت أكثر من غيرهم بالآلهة نتيجة اوضاعهم الطبيعية والاجتماعية المتميزة الى حد ما . فالكتابة المرقومة ب (٤٣٣٦) والمنشورة في كتاب (RFP EPIG) تشير الى ملك من ملوك حضرموت وهو يقدم الى الاله (سين) تسائين من الذهب في معبده في (نعلم) . لأنه منّ عليه بالشفاء من جروحه التي اصيب بها في حربه مع ملك (سبأ وامراء خولان) . في مدينة (ثبير) في (ارض يحر) . ومن عادات القبائل اليمنية ان قبيلة عندما تنزح الى مكان آخر في ارض مملكة أخرى تقدم قرايين الى اله القبيلة المالكة للارض ، كما حصل بالنسبة لقبيلة (مقنصم) في تقديسها وفقا الى الآلهة (عثر وهوبس والمقه) و (ذات حميم) ، وذلك انها نزلت من سبأ الى حضرموت فخضعت لها .

وفي عهد (يدع ايل بين بن رب شمس) كما ورد في النص الموسوم بـ (Philby 84) بني معبد شبوه . فذبح الملك عشرات من الابل والماشية تقربا لها ورغبة في استرضائها بعد ذاك الدمار الذي حل بها نتيجة الحروب التي نشبت بينهم وبين ملك (سبأ وذو ريدان) كما قام بكساء جداره بطبقة من القار حتى تصبح ملساء ويتعذر تسلقها وتحطيمها من قبل الاعداء مرة أخرى . كما قدم حسبما ورد في لوح من النحاس محفوظ في المتحف البريطاني الملك (صدق ذخبران) ووالده (الشرح) نذورا الى الآلهة (سين) و (علم) و (عثر) .

اذن فأمر تقديم القرايين الى الآلهة كما تشير النصوص يبدأ عند الكاربه والملوك بالدرجة الاولى ثم القبائل والعشائر كما حصل عندما قدمت القبيلة السبئية قرايين الى آلهة حضرموت ثم تأتي بعد ذلك قرايين الافراد ويبدو من ذلك ان ثمة علاقة عميقة قد تولدت بين الملوك والآلهة حتى أصبحوا مرتبطين بها ارتباطا كليا ، فلا يقدموا على عمل الا بعد ان يستشيروها ويقدمون لها القرايين ولا ينتزعون نصرا من خصم عنيد الا

وبادروا في تقديم القرابين لها • ولا يصدرون أمرا إلا بعد موافقتها
بتقديم القرابين والندور حتى ترضى فتأذن •

كما أمر الملوك رعاياهم (ويسدو كتكفير عن ذنوب او مشاكل
اجتماعية ارتكبوها) بتقديم ولاء الطاعة والتوبة الى الاله في شكل ذبائح
أو هدايا كما حصل عندما أمر الملك (العزيط) (عذ زين اب انس)
وشخصا آخر يدعى (رب آل بن عذم لت) (رب ايل بن عذم لات) وهما
من عشيرة (مريهان) بتقديم هدايا للاله (سين ذي علم) في معبده (علم)
سبعة تماثيل من الذهب •

وتفانوا في التقرب من الآلهة وتقديم الولاء لها فقد قاموا بذبح
حيوانات وحشية كالفهود كما حصل عند تنويع ملك من ملوك حضرموت
في حصن (أنود) • ولم يأل الانسان اليمني جهدا في تقديم ما كان
يمكن تقديمه الى الآلهة ليثبت لها تودده اليها وتقديسه لها وتنفيذه لرغباتها
وأوامرها المطلقة •

تقاليد القتبانيين تجاه آلهتهم

من المعروف ان (عم) هو اله القتبانيين • وقد خضع له فيما بعد
الحميريون فسموا (اولاد عم) أي (شعب عم) اله قتبان وأحد النصوص
يتحدث عن قبيلة (هوران) وهم يقومون ببناء و (انبي) و (ذات صنتم)
و (ذات ظهران) •

وللدلالة على التحالف والاتحاد تقوم القبائل الاخرى باداء يمين
الطاعة لاله القبيلة الكبيرة كما فعل الاوسانيون والكحد ودهس وتبنى •
وكما يبدو من بعض النصوص ان الأراضي القتبانية كانت تتعرض بين
الحين والآخر للجفاف • ولذا فقد حاول القتبانيون ارضاء آلهتهم بالقرابين
لتقيهم شر المجاعة • وهذه من الاسباب التي جعلتهم يتوجهون فيما بعد
الى رب السماء ••

ومن آلهتهم (عشر) و (حوكم) و (سحرن) و (رحبن) وقد أدوا لها جميعا قرايين الولاء والطاعة . وقامت عدة قبائل من مناطق الجنوب والشمال للدلالة على تمسكهم بها وتعظيمهم لها ، حسب أحد النصوص .
بفتح طريق جبلي وعرب باسم الآلهة (عم ذو شقرم) و (انبي) و (حوكم) و (ذات صنتم) و (ذات ظهران) و (ذات رحبان) ، ويبدو انها ترمز للشمس . وقد كانت تشريعاتهم وقوانينهم والتي يوقع عليها الملك وممثلوا القبائل تعتمد بختم الآلهة . كما حصل في القانون الذي أصدره الملك (يدع اب ديبان) وعند اتمام أي مشروع بناء توضع كتابه عند الانتهاء من العمل كدليل لافتتاح المشروع باسم آلهة قتيان كما يشير أحد النصوص .

ويشهد الاله على أي عقد أو اتفاق بين طرفين كما حصل بين الملك (يدع اب ديبان يهرجب بن شهر) وكل أولاد (عم) و (اوسان) و (كجد) و (وهسم) و (تبنو) ، بنو (يسران) . كما حصل اتفاق مع قبيلة (كجد) لجباية الضرائب . وقد سببت الضريبة الخاصة بالمعابد (بعصم) . وتعد كالزكاة أو الصدقة . هذا وقد أصدر الملك (شهر هلل) أمرا ملكيا لجباية الضرائب تنفيذا لمشئمة معبد (حطب) ومعبد (رصاف) ومعبد (ابني) .

من المعروف ان العرب الجنوبيين كانوا يؤلفون طوائف تنتمي الى اله من الاله تسمى باسمه وتقيم حول معبده . كما ورد في أحد النصوص (اربي عم دلنج) أي (من طائفة معبد اله عم في ارض لنج) . وتعني ان الطائفة القائمة حوله قامت بجمع الجباية للاله (عم) .

وقد قدم حتى كهنة المعابد القرايين للالهة كما فعلت الكاهنة (بره) عندما قدمت تماثيل من ذهب للاله (عم ذربحو) . اما من أجل الزراعة والامطار فقد قدم القتيانيون القرايين الشمينه والغالية والكبيرة . وكل ما قدموه من أجل حل المشاكل الاجتماعية والطبيعية .

والمكرب عند اليمانيين هو المقرب الى الاله والشفيع اليها والواسطة

بينها وبين الانسان • وهو ان أي المكرب كناية عن الكاهن الحاكم الذي يحكم باسم الالهة ويتحدث باسمها ، وعندما توسعت سلطات المكرب نتيجة توسع اطراف مملكته وتجاوزها حدود المعبد في القضايا الدنيوية نشعت المهام ومتطلبات الحياة المدنية وانصرف الحكم الى خارج المعبد وصار حكما زمنيا وليس روحانيا فقط • لقب المكرييون أنفسهم بالملوك لتثبيت سعة السلطات والصلاحيات العليا في يد الملك •

وقد وسمت جميع الاعمال الكبيرة باسم الاله : كما حصل عندما شقت اتفاق مرور باسم (عم ذو شقرم) و (حوكم) وغيرهم من الآلهة • والمتبع للحياة الدينية في تلك الممالك من خلال القرايين التي قدمت للالهة وهي شكل من اشكال التعبد والتقرب حفظتها النقوش لنا • وقد وردت في النقوش اسماء كثيرة لآلهة اليمنيين آنذاك (عم شقرم) و (عم ذو ريمت) و (انبي) و (حوكم) و (ذات صتتم) و (ذات ظهران) و (ذات رحبان) • كما ورد في النص (Glaser 1600) اسم موضع سسي (مختن ملكن بقلبي) أي مختن الملك بموضع (مكبي) • بالرغم من اختلاف العلماء حول مفهوم كلمة (مختن) وهل تعني المكان الذي تذبج عليه الضحايا وهي بمعنى (منطقة) ام تعني موضع ختان الذكور •

كما وجدت نقوش عليها تشريعات وأحكام دينية كان يصدرها الملك بتعديد من الآلهة • هذه نبذة مختصرة عن الحياة الدينية والآلهة التي عبدت في تلك الممالك والتي نلاحظ كثرتها حتى قال (أوليري) انه كان في تمنا وحدها حوالي ٦٥ معبدا •

آلهة سبأ وتقاليدها

اما ملوك سبأ الوارد ذكرهم في كل الكتب المقدسة فقد كانت لهم طرقهم الخاصة في عبادة الآلهة ، نتيجة لعراقتهم وقدم حضارتهم حيث

وردت كلمة (Sabu) في نص سومي يعود كما يراه هومل الى حوالي (٢٥٠٠ ق م) . فقد قدموا القرابين الى الاله والى زوج الاله الرئيسي (المقه) . كما ورد في الكتابة الموسومة (Glaser) . ان (يدل ال ذرح) سوريت المقه وهو معبد للاله في مدينة (صرواح) وقدم بهذه المناسبة قرابين اليه والى زوجه الآلهة (حريتم) (حرق) (حريمت) وان المكرب (يدع آل ذرح) قد بنى للآلهة الثلاثة عشر والمقه وذات حميم معابد . ومن خلال قرائتنا للنصوص الجنوبية يتبين لنا ان السبئيين قد قاموا طوال فترات حكمهم بتجديد بناء المعابد . وقد دون النص المرسوم (Jamme 555) وصاحبه (بن ابكرب) وهو من (شوذيم) أي (بني شوذيم) وكان قينال (يشع امر) ودمر (بكرب ملك) و (سمه على) و (يدع ايل) و (يكرب ملك) عند اتمامه بناء جدار معبد (المقه) تقربا الى الاله ليبارك في اولاده واسرته واقربائه وليبارك في بيوته وأملاكه . كما دون بعد ان قدم القرابين تعبيرا عن حمده وشكره لأنه منّ عليه ومنحه كل ما اراده منه ، ولا تتصاره مع (سمه على ثشف) في حربه التي قام بها ضد قتيان .

وفي النص (Jamme 557) قام (ابكرب بن نبط كرب) بترميم وبناء معبد (المقه) تقربا الى رب المعبد (بعل ادام) الاله (المقه) حتى يكون شفيعه عند الاله وليبارك في ذريته واملاكه .

وفي (صرواح) وهي عاصمة السبئيين في ايام المكربين يوجد معبد (المقه) اله سبأ وقد بنيت عدة معابد له منها معبد (يفعان) .

وكما عثر على كتابة في (صرواح) تعد من أهم الوثائق . وافتتحت بجملة (هذا ما امر بتسطينه كرب ايل وتر بن بعز على مكرب سبأ عندما صار ملكا وذلك لآلهة المقه وشعبه وشعب سبأ تعبيرا عن شكره له ولبقية الآلهة على كل نعمها وتوفيقها له بأن هيأته ليصبح ملكا . ولانعامها على شعبه بالعطايا والبركات) . فنحر الذبائح للاله (عشر) امتنانا له وتقربا اليه

كما قدم للالهين (عثر) و (هوبس) الكساء الثمين تقربا اليهما وشكرا
لهما على نعمهما عليه . وقام بتمجيد آلهته التي رصت صفوف شعبه .
وقدم لها الشكر والثناء لانها وهبت ارض سبأ مطرا عظيما سال في
الأودية . كما قدم رؤساء (المزود) رقيقا للاله (سمهت) كقرايين له .

وقدم سكان المناطق والمدن التي هزمت كارض (نسـم ورشـأي)
وجميع المدن والنواحي التابعة (كجد) و (سيبـن) والمدن (اتخ)
و (ميفع) و (رتمـم) ومنطقتي (دات) و (نبرم) وجميع المدن من
(تفصـن) الى اتجاه (دهس) والسواحل وغيرها من المدن التي جعلها
ملكا لسبأ والآلهة سبأ .

كما قدم للاله (عثر ذي قصد) في مذبح (لقط) الصيد الذي
اصطاده وتمثالا من الذهب .

وفي النص (Jamme 550) ذكر شخص اسمه (تبع كرب) . وكان
كاھنا (رشو) للآلهة (ذات غضران) وهي كناية عن الشمس . وقد بنى
جزء من جدار معبد (المقه) . كما أمر ببناء كل الابراج ، وذلك عن اولاده
وأطفاله وأمواله وعن كل ما يقتنيه وعن نخيله . وقد قام بعمله هذا لأن
المقه أوعز الى قلبه انه سيهبه غلاما . ولأن (يكرب ملك وتر) اختاره
ليشرف على ادارة الاعمال المتعلقة بالحرب مع قبان وقبائلها . ولأن الآله
(المقه) حرس ووقى كل السبئيين والقبائل المتعاطفة معهم .

من هذا يمكن ان نستخلص الاغراض التي من أجلها بنيت المعابد
وقدمت القرابين وهي تختلف عن الاغراض التي قدمت فيها القرابين عند
كل من الحضارمة والقتبانين والمعينين وقد كانت جميعها شكرا للآلهة أما
من أجل انتصار او اخضاع القبائل بتقديم رؤسائهم كعبيد لاله سبأ .
والملاحظ ان السبئيين اهتموا بعبادة الشمس وبناء المعابد لها ، وتقديم
القرابين لها مثلها مثل الآله (المقه) القمر . هذا الاهتمام بالشمس لم
يحصل في الممالك اليمنية الاخرى . وقد عوملت الشمس كاله ثانوي

في بقية المناطق • ويبدو ذلك نتيجة للاختلاط مع شمال الجزيرة •
وللتأثير المتبادل مع تلك الممالك • كما ان طبيعة المناخ في تلك المنطقة
التي قامت عليها الدولة السبئية كان يتطلب التودد الى الشمس لتهب
الحياة للمناطق الجبلية الباردة • وكما أورد الاخباريون ها هي بلقيس
وهي ملكة سبأ تعبدها • وسبأ يسمى باسمها (سبأ عبد شمس) تقديسا
وتقريبا منها بالرغم من ان سبأ ورد هناك كاسم ملك الا انه من المحتمل
ان يكون القصد بهذه التسمية أقوام مملكة سبأ الذين عبدوا الشمس
فنسبوا اليها •

الكواكب الثلاث

يعتقد بعض علماء التاريخ ان تلك الاسماء الكثيرة التي وردت
للآلهة ، ما هي الا صفات للثالث الكوكبي المقدس (الزهرة) (الشمس)
(القمر) • وتمثل (الزهرة) الابن • كما تمثل (الشمس) الام ، أما
(القمر) فيمثل الاب القوي وهو اصل الاشياء وصانعها ، لقد لفت القمر
والشمس نظر الانسان لما لهما من اثر على حياته ولما له من مصلحة
اقتصادية مباشرة معها • فللشمس دور كبير في تربية ماشيته وحيوانه
وعمله الزراعي والتجاري وفي صحوه ومعرفته فصول السنة • اما القمر
فقد احتل المنزلة الاولى والأساسية عند اليمنيين فهو الأب الأكبر لأن
عطاياه كثيرة ومتعددة والمرشد الوحيد لقوافلهم التجارية في رحلاتها الى
الشام وفلسطين وبابل • وهو السмир والانيس في الليالي الجميلة بعد حر
الشمس المحرقة في صحرائهم المترامية الاطراف طوال نهارهم الشاق
المضني من تلك الرمال اللاهبة اللاسعة في الصيف ، لذا فقد مثل القمر
مصدرا للخير ، فاعطوه من الاسماء والصفات بقدر عطايه • فسمى الرخ •
والسن • والسين • والشهر • وصوروه على هيئة ثور له قرون معقوفة
وعبدوا الثور حبا وتقربا للقمر • ولم يخاطبه باسمه مباشرة فقد كان
أقدس من النساء واعظم وكان لا بد من واسطة بينه وبين عبدته ،
فخوطين بالنعوت الكثيرة التي عرفوه بها ، كسين عند الحضارم والمقه عند

السبئين (وود) عند المعنيين و (عم) عند القتبانيين ويقوم مقام الاب •

وفي نصوص جنوبية لقب القمر باكهان وبنعوت وصفات اخرى كالحكيم ، والصديق ، والعليم • وهذه النعوت هي نفسها التي استخدمت في صفات الله ونعوته في الدين الاسلامي • وقد خاطبه القتبانيون (كم) فقد ورد في النصوص الجنوبية انهم نادوا الاله (وود) ب (ابم ودم) أي (اب وود) •

اذن فقد مثل القمر الاله الرئيسي لليمنيين وذلك لأنه أكثر عظما ومودة عليهم ورحمة بهم ورعاية لهم ومساعدة على احتمال شدائد نهارهم •

اما الشمس فقد مثلت عند اليمنيين اله ثانويا • فقد كان لها في نظر الانسان اليمني مضار كثيرة لأن الارض اليمنية وجزء كبير من ارض الممالك اليمنية القديمة كانت تخضع لمناخ الصحراء الجاف والحر والذي لعبت الشمس دورا كبيرا في خلقه ، فسمها (ذات الحميم) وعبدها لجملة من الاسباب التي جعلته يعبدها وذلك للتضرع اليها للتخفيف من لحيبها حتى لا تقتل زراعتها في العيف والتي كانت تتحول الى اخشاب يابسة من شدة حرارة الشمس الا انهم كما تذكر حوادث التاريخ قد كرموها في مرحلة من مراحل تاريخهم خاصة ابان حكم بلقيس • فقد ورد في سورة النمل « اني وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا يسجدوا لله الذي يخرج النجب في السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون » •

لقد فضل اليمنيون القمر على الشمس الا انهم عبدوا الاثنين كما ورد في القرآن سورة النمل فترة طويلة من الزمن امتدت الى عشرات من القرون خاصة في تلك المناطق الجبلية التي كانت بحاجة الى حرارة الشمس

للبدفء والتي يعد مناخها مقاربا لمناخ شمال الجزيرة العربية في المرتفعات الجبلية وقد وردت في كتب التاريخ اخبار كثيرة عن هذه العبادة . فالأخباريون يذكرون ان سبأ الأكبر عبدها وتسمى باسمها (عبد شمس بن يشجب بن يعرب قحطان) كما اشار القرآن الى ذلك « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر : لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم تعبدون » لقد حاول الانسان استرضاءها بشتى الطرق والوسائل . ومهداها بالطرق والوسائل فعبدتها بالطرق التي رآها مناسبة وسجد على يديه وسبح وقس باسمها .

وقد أحلها أقوام شمال الجزيرة العربية والبرانيون محل الصدارة نتيجة لطبيعة أرضهم ومناخهم الجغرافي . فعبدوها كاله رئيسي ، كما أشار العهد القديم الى ذلك . (وابد الخيل التي اعطاها ملوك يهوذا للشمس عند مدخل بيت الرب . . . ومركبات الشمس احرقها بالنار) . وهدموا امامه مذابح البعليم وتمثاليل الشمس التي عليها من فوق قطعها وكسر السواري وانتسائل والمسبوكات . وقطع جميع تماثيل الشمس في كل أرض اسرائيل ثم رجع الى (اورشليم) هذا ما فعله يوشيا عندما وجد اورشليم مليئة بتماثيل الشمس والناس يعبدونها بدلا من رب آبيه داود وسميت اماكن عبادتها في مدن يهوذا (بيت شمس) .

أما الزهرة فقد لفتت نظر الانسان اليمني بجمالها وحسن ألوانها فسميت كما ورد في النصوص العربية الجنوبية ب (عثر) وهي الابنة للشمس والقمر وعطاياها بالدرجة الاولى جبالية ونفسية .

الاسباب التي دعت الى التوحيد (١) النظام المركزي

١ - ان الاسباب التي دعت اليانين الى التوحيد عديدة خلقتها ظروف بلدهم الطبيعية وأوضاع حياتهم الاجتماعية ذلك ان العوامل الفيزيائية كما يقول مونتسكيو وبالذات المناخ والتربة والأرض ، هي التي

تحدد بسيكولوجيا وعادات وأعراف الناس بل وروح الجماعات الخاصة في تلك البيئة وبالتالي بنية حياتهم الاجتماعية والفكرية . ولن تتطرق هنا كعالم الاجتماع الفرنسي لنجعل من البيئة الجغرافية كل شيء في تحديد قضية التوحيد اليماني والتمسك بوحداية اله سموه (رب السماء) . الا اننا نرى ان ذلك العامل الجغرافي الى جانب العوامل الاخرى والتي سوف نتطرق اليها ، قد لعبت دورا كبيرا في خلق الاله الواحد عند اليسانيين . لانهم كانوا في حاجة الى عطايا المتقطعة من رياح غير مدمرة حبلى بالغيوم ، وتلد القطر والمطر وطقس معتدل يسمح ببقاء الزراعة طوال السنة دون صيف شديد القيقظ يدحر ويحرق الزرع والنخيل . ومثل هذا الوسط الطبيعي غير المعتمد على الانهار الجارية كدجلة والنيل طوال السنة والامطار غير المتقطعة والمعتمد اعتمادا كبيرا على جهود الانسان الذي جسده طرق الري الاصطناعي كما يقول انجاز في رسالته الى ماركس « في مثل هذه الاقاليم يغدو نظام الري الاصطناعي هو أهم متطلبات قيام الحياة الزراعية ، وان نظاما مثل هذا يقوم على المجهودات الجماعية او المديرية المركزية او توجيه الحكومة المركزية » . مثل هذا الوضع المناخي المتقلب وغير المنتظم هو الذي دفع الناس الى توحيد جهودهم فخلقت الدولة تلبية لحاجياتها وحاجيات مجتمعاتها . والنظام المركزي الذي كان يطلب محورا روحيا تنجمع حوله الطاقات والامكانيات البشرية للاستمرار في خلق وضعية لائقة بانسان تلك الحضارة . فخلق رب السماء كمحور يجمع الطاقات من ناحية وكعين للانسان على الطبيعة المتقلبة من ناحية اخرى وترى الماركسية (ان في مرحلة اكثر تقدما وتطورا تنقل جملة الصفات الطبيعية والاجتماعية للالهة الكثيرة العدد الى اله واحد كلي القدرة ليس سوى انعكاس للانسان المجرد) .

ان الايمان باله واحد جاء كحاجة ملية لمتطلبات الواقع الموضوعي والاجتماعي منه والطبيعي وقد عكس بصورة صادقة صافية الواقع الموضوعي الذي عاشه الانسان اليماني في ذهنه ووعيه .

ان ازدهار الحضارة اليمنية والتي قامت على الانتاج الزراعي والتجاري والصناعي وبالدرجة الاولى والذي كان يتطلب نوعين من العلاقات — علاقات الناس بالطبيعة ، وعلاقات الناس ببعضهم البعض . كان لا بد من ان يحدد بصورة مركزية سواء اكان في رب السماء كممثل للطبيعة او في شخص الملك كممثل للجمع من جهة ، ومن جهة اخرى ممثل لرب السماء الواحد . فتم الايمان بالاله الواحد الكلي القدرة . بعد تلك الآلهة الكثيرة العدد كانعكاس لذات الواقع الطبيعي والاجتماعي وتمكنت هذه الفكرة من حل التناقض الذي كان بين الانسان اليمني وبين قوى الطبيعة من ناحية وبين الانسان اليمني والدولة من ناحية ثانية .

(٢) المساواة القبلية

ان فكرة المساواة للجماعات المطلوبة مع الجماعات والقبائل الغالبة في تلك الحروب الطويلة التي كانت تشب بين القبائل اليمنية بين الحين والآخر والتي كانت نتائجها انتصار قبيلة وهزيمة الاخرى ، وجمع افراد القبيلة المغلوبة كاسرى حرب ، ثم العمل على اذابتهم في بطن القبيلة الغالبة . وقد فرضت وبالضرورة عبادة آلهة القبيلة الغالبة كما حصل عندما عبد الحضارة اله سبأ (المقه) وكما عبده كذلك القتبانيون . لقد كان من الضروري نتيجة للوضع القبلي ، وهم ابناء قبائل اخرى لا تقل شدة ولا قوة بل ولا كرامة وانفة ، ان يسلكوا مسلكا يؤدي بهم الى المساواة في الحقوق والواجبات الاجتماعية مع ابناء القبائل او القبيلة الاسيرة لهم . فقد كان الاحساس باللامساواة بينهم ، رغم انهم جميعا ابناء قبائل ، مصدر قلق روحي ونفسي لهم فكيف الوصول الى ردم هذه الفجوة الاجتماعية التي وجدت نتيجة لانكسارهم الحربي امام القبيلة الاخرى ؟ . وكيف يستعيد الفرد فيهم كرامته الشخصية ومكاته القبلي . لذا فقد كان التوجه الى الآلهة — آلهة المنتصرين اول الطريق الى احتلال مكاته الاجتماعية ، وكان لا بد من التسليم لآلهة المنتصر . ولذا فقد كان في احيان كثيرة يتحامل على آلهته وآلهة اجداده فيحطمها لتصوره

واعتقاده انها لم تعد تصالح لأن تعبء فهي سبب انكساره العسكري
واتنصار اعدائه عليه • فعبد تلك الآلهة وعندما تطورت عبادة الآلهة
الى اله واحد (القمر) في بداية ذات التطور • وهو اله الدولة الغالبة
عبد هو هذا الاله الذي اصبح فيسا بعد (بعل سين) ثم (ذى سموي)
أي رب السماء ، رغبة منه في المساواة مع افراد القبيلة المنتصرة امام
الاله كخطوة اولى للدخول الى المساواة الاجتماعية • فاستطاع بذلك ان
يضمن لنفسه وضعاً اجتماعياً في المجتمع الجديد الذي انتقل اليه • لأن
الناس امام الاله الجديد سواسيه من حيث اوضاعهم الاجتماعية والدينية
على الرغم من الاستثناء الذي كان حاصلًا بالنسبة للمكرب أو الملك أو
الكهنة والوسطاء أي الصف الاول في الدولة والذي تمتع بامتيازات كثيرة
اجتماعية كانت ام دينية •

ان التقاء الناس حول اله واحد سيكون ولا شك عاملاً حاسماً في
اذابة كثير من الفوارق الاجتماعية • فجميعهم يعبدون الغيب وجميعهم
يؤدون نفس الشعائر والطقوس • [وليس هناك] لها كبيراً ضخماً مرصعاً
بالاحجار الكريمة والمجوهرات يمثل فئة اجتماعية ذات مكانة رفيعة بين
القوم وليس هناك لها صغيراً تدل هيئته على فقره وفقر عبدته من الناس •
بل اصبح الجميع في الحال الجديدة لا يشعرون بالتمايز فقد تحولت
الآلهة الى اله واحد رحيم رحمن يعطف عليهم فينزل لهم المطر ليسقي
الزرع ويحيى الأرض • وعطاياه كعبادته ملك لكل الناس بدون أية محاباة
لفئة اجتماعية دون الاخرى أو لفرد دون آخر • ومن هنا استطاع اولئك
الاسرى ان يجدوا لهم مكانة اجتماعية بين القبيلة الآسرة فيتمتعوا
بنفس الحقوق الدينية على الأقل ، والتي عكست نفسها كمسيرة فعلية في
تلك الفترة للحياة الاجتماعية فتساووا بواسطة المساواة الدينية في الحقوق
الاجتماعية وأحس الانسان بانسانيته وآدميته والتي كان قد
فقدتها بحكم الاسر •

ونتيجة للتطور الذي استطاع الشعب اليمني الحصول عليه ابان حضارته ، فقد حصل تطور من ناحية الكثافة السكانية قبل تلك الهجرات التي حدثت في التاريخ وأدى هذا التطور الى تطور في الانتاج الزراعي . والصناعي والتعديني والتجاري . ولقد كانت تلك الزيادة في السكان نتيجة طبيعية لعوامل كثيرة اقتصادية واجتماعية وطبيعية اقتصادية . للتعاش التجاري والتعديني الذي حصلت عليه الممالك ابان استقرارها واجتماعي للهدوء والاستقرار الداخلي وتوفير الحاجات اضرورية للانسان وطبيعي حين تمكن من قهر تقلبات الطقس والمناخ ببناء السدود التي حفظت له زراعة دائمة طوال السنة ، كما أدت الزيادة في عدد السكان الى تطور الانتاج الاجتماعي الا ان هذه الزيادة بالرغم من ايجابياتها الكثيرة فقد ظهرت لها جوانب اخرى سلبية على الصعيد الاجتماعي العقائدي . فلقد خلقت كل فئة اجتماعية من تلك الفئات الكثيرة التي تعايشت في اليمن آلهة تعبدها وتتقرب اليها بالقرابين والذبائح . وأحس القائمون بالامر - الدولة والمملك بخطورة مثل هذه الظواهر على التماسك الاجتماعي والذي كان قائما قبيل الزيادة المطردة للسكان وتعدد فئاتهم الاجتماعية وكثرة طوائفهم الدينية . حيث عبت كل طائفة الها حتى قيل انه كان في تسنا وحدها حوالي ٦٥ معبدا لمختلف الآلهة التي عبادتها مختلف الفئات فأصبحت وحدة المجتمع وتماسكه مهددة بالانهيار . وقدم الناس الآلهة التي خلقوها بأنفسهم . فأصبحت منافسة لاله الدولة الكبير في مكائنها الروحية عند الانسان مما اضطر الدولة الى اعادة النظر في هذه الوضعية الدينية الجديدة التي قللت من شأن اله الدولة الكبير واصبحت ناقوس خطر يهدد سلطة الدولة وهيئتها المعنوية لدى مواطنيها فكان لا بد من حسم لمثل هذه الامور قبل ان تستفحل وتفقد الدولة سلطتها كلية على مواطنيها وان ضبط الامور وانهاء تلك الملبسات والمداخلات الدينية والدينية ضرورة تحتمها مصلحة الدولة السياسية ولم يكن في الامكان في تلك الفترة منع الناس من عبادة الآلهة أو حتى الحد منها . ولذا

فسلامة للظروف والأوضاع السائدة كان لا بد من مخرج لمثل تلك الازمة الاجتماعية السياسية دون اثاحة الفرصة لاعداء الدولة في استغلال مثل هذه القضايا ليحولوها الى مشاكل معقدة في وجه السلطة • ولم يكن هناك حل افضل من ذاك الحل الديني • فخلق الاله الواحد تلبية لتلك الحاجة الضرورية لدى الدولة واستجابة لظروفها السياسية وأوضاع المجتمع العقائدي الممزقة • فحصل هذا التطور على ما يبدو عند المعينين والحضارة أول ما حصل •

(٤) نظام الحكم

ملكية الدولة لوسائل الانتاج (اقطاعية الدولة)

لا أريد هنا ان اتسرع بطرح رأي حول نوعية نظام الحكم في الممالك اليسنية القديمة الا ان كتب التاريخ تشير جميعها الى ان حضارات الشرق لم تتعرف على النظام العبودي والى ان هذا النظام كان فقط سائدا في الشرق واثينا وروما • نتيجة لوجود مصادر كثيرة للرقيق في تلك المجتمعات فما هو نوع النظام اذن في اليمن بالذات ؟ • يرى ماركس ان هذا المجتمع كغيره من مجتمعات الشرق لم يتعرف على الملكية الخاصة للأرض نتيجة لنوع مناخ الاقاليم وأثره على طبيعة الأرض وعلى تربتها ، حتى النظام الاقطاعي الفردي كان يبدو من المستحيل قيامه في ظروف طبيعية كهذه • فما هو نوع النظام اذن في اليمن التي كانت تبدو في طبيعة مناخها متقلبة متغيرة كما ان طبيعة تضاريسها الجغرافية التي كانت لا تسمح لقيام ملكية اقطاعية كبيرة للأرض هي المتحكمة في نوعية النظام ؟ ويتساءل ماركس اذن كيف تم وأمكن ان لا يتوصل الشرقيون الى وعي قضية الملكية الفردية للأرض • • حتى ولو بشكلها الاقطاعي وهذا يعني ان نوعية النظام ستكون تتاجا طبيعيا لهذه الأوضاع الطبيعية • ولنضع ذلك جانبا لتتعرف بصورة موجزة على طبيعة المشاريع التي كانت تنفذ في تلك الفترة • لقد شق اليمنيون الطرق التجارية الطويلة والتي اوصلت اليمن جنوب الجزيرة العربية بشمالها فوق الجبال الوعرة

والصحاري الرملية الشاسعة كما قاموا بشق الانفاق لتكملة هذه المهمة الاقتصادية • وحفروا المناجم في بطون الجبل واستخرجوا منها المعادن الرخيصة ومنها الثمين وقاموا ببناء السدود لتخزين المياه وتطويع الطبيعة بدلا من الاستسلام لها ولتقابات الجو والمناخ • ورووا الصحراء بساء السدود فحولوها الى جنات خضراء وارفة الظلال في وسط صحراء محرقة ملتهبة • وبنوا المدرجات العظيمة فوق الجبال لقلة الأرض الزراعية في المناطق الجبلية وحصنوا المدن بأسوار عالية • وبنوا المعابد العظيمة • من كل هذه الاعمال نشتم رائحة الجهد الجماعي والذي لا شك ان دولة مركزية قد نظمت • وقد اثبتنا في السابق انها ليست ذات صفة عبودية • كما ان هذه الاعمال العظيمة لا يمكن ان يقوم بها الاقطاع الفردي والذي لم تتعرف عليه اليمن عبر تاريخها الطويل في الماضي كما يؤكد ماركس (لم تتعرف على الملكية الخاصة للأرض) وكما يقول في مكان آخر : (ان دول الشرق رفضت هذا النوع من النظام • فما هو النظام اذن) دولة مركزية غير عبودية واعمال عظيمة لا يقوم بها الاقطاع الفردي ان ذلك سيوصلنا الى قناعة بأن اليمن في تلك الفترة قد تعرف على شكل متقدم من النظام فوسائل الانتاج من سدود وخزانات وطرق تجارة ومناجم تعد من ملكية الدولة وطالما تشير الدلائل كلها على ان النظام لم يكن عبوديا فهو اقطاعي الا ان غياب الملكية الخاصة التي يشير اليها ماركس وأنجاز في رسائلهما المتبادلة يجعل من النظام اقطاعيا غير فرديا يسكنا ان نطلق عليه تسمية (اقطاعية الدولة) ذلك ان كل وسائل الانتاج ملكية الدولة الغير عبودية وقد فرضت طبيعية الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية آنذاك ان تستحوذ الدولة على كل المرافق العامة فافتراض هذا الوضع وبالضرورة وحدانية العبادة حتى تتمكن الدولة من انجاز مهماتها على اساس من رعاية الاله الواحد والملك الواحد والدولة المركزية الواحدة •

(٥) تعدد التضاريس وقسوتها

لقد لعبت التقسيمات الجغرافية التي احتوتها الارض اليمنية دورا كبيرا في عملية خلق الاله الواحد والتعلق به وبمشيئته القدسية بل وفي عبادته عندما اقتضت الضرورة ذلك .

فالارض اليمنية احتوت الساحل والجبل والسهل والصحراء هذا التعدد في التضاريس الطبيعية كان يتطلب التوحد الروحاني في نفس الانسان اليمني ووعيه ومشاعره . فالساحل الذي عاش فيه تجثم بالقرب منه أمواج منزعجة تهدده في لقمة عيشه وفي قوته اليومي في صيده وفي تجارته وعلاقته ببلدان ما وراء البحار بالهند والصين وشرق افريقيا التي تاجر معها وأخذ منها وتأثر بها في معتقداته وأفكاره . فكيف يقهر تلك الأمواج ويسير سفنه وهو لا يملك الا ادوات ابحار لا تتجاوز السفينة الشراعية والمجذاف ؟ وهل يضحي بعلاقته بعالم الحضارة والتجارة ؟ وماذا يأكل ان استسلم لأمواج المحيط ؟ والبحر يمدد بما يحتاج اليه من صيد لا بد ان يقاوم ليأكل ولا بد ان يخضع أمواج البحر ليتاجر . ولا بد ان يرتبط بعلاقات مع دول العالم المتحضر . ولم يكن يملك حينها أدوات وآليات متقدمة لينفذ مشيئته ورغبته في البقاء والتجارة والازدهار ولم يكن أمامه سوى اللجوء الى الغيبيات بعد ان عجزت الآلهة المتعددة على ضبط مثل هذه الامور المعقدة والصعبة وتذليلها بقوة انسانية بذلها هو ونسبها الى الآلهة العاجزة فالتجأ الى تلك القوة الروحانية لعلها تذلل الصعوبات امامه وتساعد على القيام بتلك المهمة .

اما قسوة الجبل اليمني بارتفاعه الشاهق ورؤوسه المدببة فقد منعت من الزراعة عليها . وصحيح انه قهر جزء منها فبنى المدرجات الضيقة والتي لا تتجاوز امتار عدة في كثير من المرتفعات الجبلية وبقي يزرعها بصعوبة بالغة وكانت الامطار تسحبها فتحرمه من منتوجه الذي بذل الجهد فيه طوال السنة . أوليس هذا الانسان بحاجة الى اله غيبي

يساعده مع أدواته البسيطة على شق الجبال وتسطيحها وتحويلها الى
أراضي زراعية بعد ان عجزت الآلهة الكثيرة بل وعجزت حتى الشمس
بضوئها وحرارتها وكل عظمتها ان تساعد في الحصول على لقمة عيشه
فاتجه اليه هو الاله القادر على كل شيء •

والصحراء المترامية الاطراف المتسعة طولا وعرضا والقاسية الحرارة
الشحيحة العطاء هي جزء من أرضه عاش فيها وسكن في قلبها وسير
قوافله بها ، وهو يعاني من حرارة شمسها وجفاف جوها وشحة عطائها •
أليس بحاجة الى اله غيبي بعد ان عجز حتى القمر رغم تخفيفه لكثير من
معاناة انسان الصحراء من نهارها القاسي ؟

وبالرغم من ان القمر قد أدى واجبه في حدود وضعه الطبيعي
فساعده كذلك على تسيير قوافله التجارية وآنسه في رحلته الطويلة بين
الشام وفلسطين ومصر والعراق واليمن • الا انه لم يستطع ان يتدخل في
وظيفة الشمس مما حز في نفسه فذهب يبحث عن اله غيبي يخضع الشمس
ويخفف من حرارتها وينعش الارض ويرعى القوافل التجارية فيحرسها من
لصوص الصحراء ويضللها بغمام سحب في النهار من الشمس المحرقة
ويساعد المسافر في رحلته المتعبة المضنية فيوقف الرياح وهبوب الرمال
والأعاصير في وجهه ، حيث كانت الصحراء تلتهمه عندما يتوه فيها •

انه بحاجة الى اله باذنه تنبت الارض الجافة وترعى الابل والماشية
وينمو النخيل ويعطي ثماره • ولن يكون سوى اله كلي القدرة قادر على
التحكم في هذه الظواهر الطبيعية • فيخلق المعجزات ويأتي بعظام الامور
فليكن (رب السماء) التي يسقط منها المطر ويتعلق بها الشمس والقمر
ويزحف منها الليل والنهار •

اما السهول حيث تجري الأودية وتعد من أخصب المناطق اليمنية ،
فقد كانت في بعض الأحيان عرضة للجفاف نتيجة لانقطاع المطر ونضب

المياه في العيون * ورغم جهوده العظيمة الذي بذلها في سبيل بناء السدود حتى لا يقع كلفة تحت رحمة الجو المناخ ومواسم المطر الا انه كان كذلك بحاجة الى من يضبط الامور اكثر فيسقط المطر بانتظام كي لا تخف الاودية ولا تفرغ السدود وخزانات المياه فتصاب الارض بالجفاف والزرع بالجفاف والحيوان بالموت والهلاك ولن يكون بهذه القدرة الا الاله الواحد فليخلقه في ذهنه وفكره ومن يدري لعله فعلا يعينه وينجده وقت الحاجة والضرورة الا ان انسان السهل كان أقل حاجة الى هذا الاله لأن طبيعة أرضه أقل صعوبة من طبيعة الاراضي الاخرى الجبلية والساحلية والصحراوية لذا فقد كان حماسه لهذا الاله أقل حرارة من حماسة بقية ابناء المناطق الاخرى فلقد مكنته طبيعة أرضه من ان يتغلب على بعض الصعوبات كقلة الامطار بناء الخزانات والسدود لحفظها لوقت الحاجة .

ان اله (رب السماء) الذي خلقته الضرورة والحاجة في ذهن مجسوة متميزة اجتماعيا فرضته في بداية الامر ثم لقي قبولا عند عامة الناس فيما بعد لكونه حسب تصوراتهم مصدر العطاء والرزق فأقاموا صلواتهم وطقوسهم الدينية لتحقيق تلك المطالب الحياتية وصب الاهتمام (برب السماء) من أجل العطايا بالدرجة الاولى أما فكرة الحساب والجزاء والآخرة وغيرها مما لم يكن مفهوما لديهم وغير قادر على تخفيف مشاكلهم وقضاياهم اليومية فليس هناك ما يشير اليها في النقوش الا اننا لا نستطيع ان نجازف بعدم ورودها في معتقدات اليمنية آنذاك فما زال الكثير من النقوش مجهولا وما زالت المنطقة بحاجة الى المسح الجيولوجي وما زلنا بحاجة الى استنباط الوسائل للتعرف على كثير من جوانب الحضارة اليمنية بصورة خاصة .

(٦) التمزق السياسي

ان الاوضاع السياسية الممزقة التي عانى منها اليمنيون وكانت هي الصورة الشاذة في واقع طبيعي اجتماعي واحد قد حملت اليمنيين على

التفكير بها وصب كل جهودهم لانهاء هذه الوضعية المخالفة والمضادة مع
أمانهم وطموحاتهم في تحقيق وحدة الامة اليمنية حيث دعت الضرورة
المعيشية والواقع الحياتي للانسان اليمني وللجماعات الى فرض نوع من
الهدوء والاستقرار بين الممالك .

لقد شهدت الممالك اليمنية حروب كثيرة اشعلتها بالدرجة الاولى
المصالح الاقتصادية لكل مملكة على حدة وللقبائل التابعة لها فالرغبة في
تأمين طرق التجارة للقوافل من جهة والاستحواذ على ممتلكات الممالك
الافرى من جهة اخرى سواء اكانت زراعة المر واللبن او الاتجار به
او الاستيلاء على مناطق المعادن الثمينة كالذهب والعقيق او تحويل
مجرى الودية الى اراضيها كل هذه الامور كانت مصدر اشعال الفتن
والحروب بين الممالك اليمنية بل وفي احيان كثيرة بين القبائل التابعة لنفس
المملكة او الخاضعة لعدة ممالك متجاورة فها هي مثلاً جماعة من
المغيرين السبئيين يعترضون طريق قافلة معينة وينهبون كل ما بها من
أموال ولا يتركونها الا شذر بذر فتضطر الى اللجوء الى دولتها وتشتعل
بين المملكتين حروب مدمرة كما حصل عندما قامت الحرب بين (ذي يمنت)
و (ذ شامت) .

ان تتبع الأحداث السياسية والحروب العسكرية بين تلك الممالك
اليمنية يتطلب منا وضع دراسة خاصة بذلك ولذا سأكتفي هنا بإشارة
بسيطة الى تلك الحروب التي قامت بينهم فقط من أجل استخلاص النتيجة
التي أرغب في وضعها وهي قضية التوحيد الالهي لقد قامت عدة حروب
بينهم كلها بسبب مصالح اقتصادية او اطماع سياسية بقصد التوسع على
حساب المملكة المجاورة فها هي مملكة قنبان تضم وتنشأ في مفترق طرق
التجارة بين حضرموت ومعين لتشطر معين وحضرموت وتضرب العلاقات
الودية التي كانت بينهما وتحتل مسافة واسعة من الصحراء والسهل
وتحاول ان تجد لها منفذ بحري فتتوسع وتصل في غزواتها وحروبها
الى ساحل عدن كما ورد عند (ياقوت الحموي) . وها هي مملكة

حضر موت تزيل (تمنا) عاصمة قتيان من على خارطة جنوب الجزيرة وتتوسع في غزواتها وتتسع مساحتها حتى تصل الى جوف اليمن وتمد سباً حدودها الى تخوم الحجاز ونجد وتلتهم معين بأسرها تنشأ مملكة وتتخطم الاخرى ويبرز نور حضارة في بقعة معينة ويأفل نجم اخرى في مكان آخر وتستمر هذه الحالة المؤلمة لنفسية الانسان اليمني حين يقاتل بسبب تلك الحروب أهله وذويه فقد تنشطر قبيلته الى شطرين كل جماعة منها تابعة لمملكة ، ولملك فيتخلف لقتال أهله ويتخلف أهله لقتاله ويشهد التاريخ اليمني حتى يومنا هذا ببؤس هذا المشهد اب يقتل ابنه وابن يقتل أباه او أخ يطمع في قلب أخ له كل تلك المآسي تسببها الاطماع السياسية للمكابر والمملوك والذي أدى الى تمزق المنطقة سياسيا رغم الواقع الطبيعي والاجتماعي الذي يشهد على وحدتها .

ولقد آلمت هذه الوضعية الانسان اليمني الفرد والجماعات ، وقد بدأ يبحث عن مخرج يعود اليه في الشدائد فيخفف من ذاك التمزق والضياع انه بحاجة الى سلطة واحدة ذي قدرة خارقة تفهر التمزق وتعيد وحدة ارضه وبيته وتبعد عنه شبح الحرب مع أهله واستغل هذه الرغبة المكربين والمملوك استغلتها الدولة فجهزت الحملات الكبيرة باسم اله واحد (رب السماء) وبالرغم من ان هذا الموضوع بحاجة الى بحث تاريخ منفرد الا اني اميل الى الاعتقاد ان تلك الحملات الكبيرة التي شهدتها الممالك اليمنية قد كانت باسم تثبيت سلطة الاله المتعددة ثم اله الواحد لحاجة الناس الملحة اليه بعد ان استطاعت السلطة ان توجه شعور الناس وتمكنت من اخضاعهم بواسطة هذا الاله لسلطتها المركزية العليا ودخول الملك لنفسه مسئولية التحدث باسم الاله الأكبر واصدار التشريعات والقوانين الموافق عليها من قبله وتمكن بذلك من السيطرة على اطراف مملكته ولقي عند الناس الرغبة الملحة والتقبل النفسي والذي هيئته له تلك الاوضاع مجتمعة الطبيعية والاجتماعية والسياسية فأقبل الناس على (بعل سمن) يتوددون اليه ويقدمون ولاء الطاعة (لذي

سموى) (رب السماء) دون ان يتعرفوا عليه كما تعرفوا من قبل على تلك الآلهة الكثيرة ثم على الكواكب الثلاثة لاعتقاده بأن تلك القوة المجهولة هي التي تسبك وتحرك كل شيء بيدها •

(٧) الأوضاع الاقتصادية

تشير كتب التاريخ الى ان القاعدة المادية للاقتصاد اليمني آنذاك قد قامت على الزراعة بالدرجة الاولى والتجارة والتعدين • ولقد اعتمد الانسان اليمني في انتاجه على وسائل الري الاصطناعي حين بنى السدود التي اوصلت كل مملكة بالآخرى لامتدادها على طول وعرض الممالك فكانت عامل مهم من عوامل الربط بين الممالك كما كانت عامل من عوامل الحروب والفتن بينهم عندما كانت تتم عملية حجز المياه عن مملكة اخرى او تحويلها او استنحواذ قبائل دولة من تلك الدول على مياه الامطار دون قبيلة اخرى وقد يجعلها ذلك تضطر الى الاذعان لمطالب القبيلة المجاورة فتسلم بسا تريد خوفا من الموت جوعا وعطشا وقد تتودد اليها بتقديم ولاء الطاعة الى الهتها •

ان توفير المناخ الملائم لازدهار التجارة كان يتطلب وبضرورة استقرار وأمن بين تلك الممالك المتحاربة فيما بينها على الدوام لاعتقاد كل مملكة بالاحتمية التاريخية في أراضي مملكة اخرى وفي انتزاع ذلك العرش من مكانه وتشيت عرش آخر محله واخضاع اطراف المملكة المتسردة والمطالب بالانمصال بل وفي اوقات كثيرة المنفصل والمؤسس مملكة اخرى اخضاعه للمملكة الشرعية واعادته الى الحضيرة حتى لا يهدد القوافل التجارية بالدرجة الاولى التي كانت في داخل أراضي كثير من الممالك اليمنية فالطريق التجاري الذي يستد الى شمال الجزيرة العربية كان يمتد من قنا (بئر علي) على الساحل الخضمي الى (تمنع) عاصمة قنبان (فسأرب) داخل الاراضي السبئية (فقرناو) • المعينية ثم (الديدان) (العلا) وهناك يتفرع في عدة اتجاهات يجري كل طريق منها الى

مملكة من ممالك الشمال ولقد كان على هذه الممالك ان تؤمن سلامة هذه القوافل داخل اراضيها وفي اطراف مملكتها من لصوص الصحراء تثبيتا لقوتها العسكرية وهيبتها السياسية من جهة ومن جهة ثانية حتى يتم تأمين قوافلها هي كذلك والتي كانت تشترك في تلك الرحل الطويلة بين جنوب الجزيرة وشمالها ولقد كان لتجار كل مملكة مصالح في أراضي الممالك الاخرى من هنا فقد تداخلت المصالح التجارية ببعضها وتطلب ذلك حام أعلى يقوم بعملية الحراسة للقوافل والاشراف على التجارة المتحركة من الممالك وما كان يستطيع ان يوفر تلك الحماية غير اله قوي أمين جبار كلي القدرة .

ان مناطق المعادن الثمينة في بعض الممالك اليمنية كالحضرمية والمعينية والسبئية قد ولد اطماع ملوك الممالك المجاورة فرغبت في الاستحواذ عليه ووضع يدها على مناطق استخراجه فجهزت لذلك الحملات الكبيرة وشتت الحروب الطويلة المنهكة باسم الاله التي رغبت في امتلاك تلك المعادن وفرضتها على القبائل المهزومة وتأثرت بعبادات الاقوام المهزومين كما حصل عندما عبد الحضارمة المقه وعبد القتبانيون (عم) آلهة معين وتسمى ملوك حضرموت باسماء ملوك معين التي تبدأ أو تنتهي باسم الاله (ايل) (صدق ايل) اول ملوك حضرموت كل ذلك التقارب في عبادات الآلهة كان العامل الحاسم فيه اثبتت الحروب التي كانت العوامل الاقتصادية هي المتحكمة فيها المؤججة احيانا والمهدئة حين آخر . ولقد وجدوا في الاله الواحد عامل حاسم لاشغال الحماس في النفوس وللاحتفاف حول الملك الراغب في غزوة او معركة فدعو باسمه وتبنت الدولة هذه الدعوة وقام عليها الملك وروج لها كهنة المعابد خدمة لمصالحهم الخاصة ومصالح الملك والدولة ثم لقبائلهم وأقوامهم . والتفت جماهير الناس حول الشعار وراحوا يحولونه الى واقع ملموس بتجسيده في صلواتهم وعباداتهم والتمسك به في حروبهم بل وشن الحروب باسمه لغرض سيطرته ووسطوته على المناطق التي رغبوا في احتلالها لأجل استخراج معدن ثمين او الاستيلاء على زراعة معينة خاصة تلك الزراعة

التي اشتهرت في ذلك الوقت المر واللبان او المتحكم في منفذ تجاري كل هذه الحوافز والدوافع الاقتصادية هي التي حركت الاطماع السياسية تحت شعار فرض اله القبيلة على بقية القبائل او تحويل عبادة تملك القبيلة من اله الى اله آخر فيما بعد فرض (ذي سوي) (رب السماء) والذي عُثر على اسمه في نصوص المسند في ثمود كما يورد ذلك الدكتور جواد علي في موسوعته التاريخية « الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » .

التوحيد اليماني أساس التوحيد العبري .

ان تطور الاديان والذي بدأ بتقديس الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق والمفاهيم العامة المجردة كالخير والشر ثم نزح عليها الى عبادة الاصنام المتعددة الاشكال والاسماء والتي ترمز في النهاية الى الكواكب البائدة في السماء كالزهرة والشمس والقمر ثم المتوصل الى التوحيد باله مجهول الهوية غيبي يسكن فوق السماء قد شهدته اليمن ابان حضارتها قبل الميلاد .

ولقد تعبد اليمانيون للالهة فتقربوا اليها واسترضوها بثتى الوسائل والطرق كما اشرت سابقا واختاروا لها الاسماء والصفات وتيمنوا بها فوردت اسمائهم بعد اسم الصنم او الاله مثل (ايل يشرح) (ايل يفع) (ايل يثخ) او (يدع ايل) (يسمع ايل) و (سعد ود) (عبد شمس) ويبدو من نقطة ايل المتكررة في اسماء ملوك اليمانيين انها صفة لاله وتعي القادر (صدق ايل) أي صدق القادر او القوي الجبار . ثم جاءت عقيدة التوحيد باله واحد يسير الحياة والعالم . ولقد اختلفت الآراء في مفهوم كلمة الله ولم ترد اللفظة في العبرانية وورد لفظه اله (ايلوه) بالرغم من ان كثيرا من علماء المسلمين ومؤرخيهم من الاخباريين وعلى رأسهم الرازي يعتقدون ان اصل الكلمة سرياني او عبراني ويذهب بعض المستشرقين ان لفظه (الله) التي استخدمت في الاسلام انما هي من بقايا الوثنية وهو اسم صنم كان بسكة يعبد من قبل القرشيين ووردت

في الخط المسند كلمة (بعل) معناها مالك او صاحب او رب وكلها كلمات ترمز الى الاله (بعل غمدان) التي يراها (روبرتسن سميث) انها مقتبسة من الاقوام السامية التي سكنت طور سيناء . ويراها (نولدكه) و (ولهوزف) انها عبادة سامية قديمة عرفت عند قدماء العرب منذ عهود سحيقة في جنوب الجزيرة العربية وقد اطلقت هذه اللفظة على الارض التي تعتمد في زراعتها على الامطار والري الصناعي وان الساميين سكان الجزيرة العربية بالذات قد خصصوا للالهة المتعددة قطع من اخشب اراضيهم كوقف لتسن عليهم بالخير والبركة فلقد تحكمت بيئتهم الجغرافية في هذه القضية الى حد كبير فخصصوا للالهة جزء منها لتكون الارض في حماها وبالتالي حياتهم وازدهارهم وحضارتهم فتحولت كلمة (بعل فلان) عندما انذرها الأهلون للاله الى (بعل سمين) والتي تعني (رب السماء) يقصد بهذا ان تلك الارض هي في ملكوت اله غيبي هو الذي ينزل المطر عليها ليسقيها ذلك انه اله البركة والخصب الا انها تصب في النهاية في مفهوم واحد هو السقي بالامطار المتقطع والتي كانت تتحكم فيه آنذاك بالنسبة لانسان تلك الفترة قوة واحدة تسقطه متى ما رضى عنه أي بدون انتظام كما يشهد بذلك الوضع الجغرافي والمناخي في جنوب الجزيرة العربية .

فلقد حاول اليمانيون ان يرجعوا الكثر في الالهة الى مفهوم الوحدانية لها فكان التدرج الذي تم في عبادة الاله من شتات عديدة في الاله بلغ اكثر من مئة اسم رغم ان جزء كبير منها نعت وصفات للاله الى حصر لها في كواكب ثلاث ذات تأثير على الانسان الى مفهوم لاله جديد هو (بعل سمين) الى اله سمي ذي سموى (أي رب السماء) ويبدو ان اللفظة متطورة من (بعل سمين) كما ان فكرة جديدة قد وردت في اللفظة الجديدة فكما يذكر علماء اللغة ان (الرب) هو الله وهو رب كل شيء أي مالكة وليس فقط رب ومالك لقطعة ارض صغيرة انذرت له وباسمه وان هذا الرب له حق الربوبية على جميع الخلق لا شريك له وهو رب الارباب ومالك الارض والسماء كلها وعلى الانسان ان يسلم مشيئته

اليه والى مثليه على الارض المتسجد في الملك او المكرب . كما وردت في نصوص المسند كلمة (الرحمن) وهي صفة لرب السماء (ذي سموي) حتى ان أبرهة الحبشي قد استعملها في نص سد مأرب الشهير ولقد قدم له اليسانيون النذور والعطايا فتعبدت له قبيلة (امر) ليرسل المطر وينشر الخير للناس كما ورد في نص بالمسند (وذ سموي ليزا مقضي شعبهو) أي أن معناها (وليستع رب السماء شعبه) كما وردت في نصوص قتبانية كلمة (ال تعالى) ومعناها حسب تفسير علماء الآثار والتاريخ (الله تعالى) .

ان كل هذه الالفاظ التي وردت في النقوش الى جانب التطور الذي حصل في عبادة الآلهات ومفاهيم الكلمات التي تطورت هي بدورها بحسب ما اقتضته الضرورة تدل دلالة أكيدة على ان التعاليم الوطنية اليمنية قد شكلت بالفعل الخلفية الفكرية والفلسفية للديانات التوحيدية ابتداء بالابراهيمية وانتهاء بالاسلام وان جميع هذه الاديان قد تطورت من المفهوم الاولي للتوحيد اليماني فهي لم تفتعل ولم تخرع ولم تخلق تلك الفكرة بل وجدتها كعماد اولي وأساس في العقيدة التوحيدية وازضافة عليها ما أرادت ان تضيفه ليتناسب مع طبيعة ظروفها وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فقد كانت العقائد وكما هي ستبقى الملبي الذهني لحاجيات المجتمع وظروفه ذلك ان التوحيد اليماني قد أدى دوره حسب المتطلبات الاجتماعية للقبائل اليمنية بمرونة لا تحد وكان عليه بعدما انتقل الى شمال الجزيرة ان يتكيف بحسب حاجة أقوام تلك المنطقة ويتغير ويتطور مع نشوء التوحيد المصري (اخناتون) ومع طلوع الشمس اليهودية ليلبي حاجيات المجتمع الاسرائيلي (العبراني) ثم مع المسيحية وعيسى وأخيرا مع مجتمع الجزيرة العربية في نجد والحجاز من ثم في ملول وعرض الجزيرة مع الدعوة المحمدية .

وبحكم العلاقات الاقتصادية التجارية المتبادلة بين شعبي جنوب الجزيرة العربية وشمالها حيث عاش الآراميون هناك والذين ينتمي اليهم

ابراهيم الحنيف فقد حدثت تأثيرات متبادلة سواء أكانت اجتماعية أو فكرية أو سياسية وتأثر الآراميون بفكرة التوحيد اليمانية فاحتضنها وتبنّاها ابراهيم الحنيف واريدها ان اعرج تعريجا طفيفا على كلسة حنيف وأصلها التاريخي كما وردت في كنب التاريخ يرى بعض المستشرقين ان لفظة (حنيف) اطلقت على القائلين بالتوحيد في الجزيرة وقد ظهوروا أول ما ظهوروا في اليمن ونادوا بالتسليم لرب السماء ودعوا الى عبادة الرحمن وقد تأثرت اليهودية والنصرانية بهذه الديانة اليمنية حيث يراها انجلز انها من التقاليد الوطنية العريقة للشعب اليمني وان جزءا صغيرا منها كان العبود الفقري للديانة اليهودية فيقول بالحرف الواحد (لقد تبين لي بما لا يقبل الشك فيه من الادلة ان كنب اليهود ليست سوى سجل للاعراف والتقاليد الدينية من القبيلة اليمنية) ويعتقد ان اليهود قاموا بتحريفها ونسبها اليهم وانكار أهلها الشرعيين ولقد وجدوا في الكوارث التي حلت بالشعب اليمني نتيجة للفتن الداخلية والاهمال لكثير من جوانب الحياة الاقتصادية والرفاهية الزائدة التي أدت الى الانهيار الاجتماعي وتحول طرق التجارة والهجرات الجماعية قبل الغزو الحبشي الذي أكمل ما تبقى لتلك الحضارة من حياة وجدوا في كل ذلك المدخل للاستلاب التاريخي الذي حل بالحضارة اليمنية وتقاليد شعبها العريقة فيزوروها وينسبوها لأنفسهم فيقول انجلز (وقد حرفت بعد ان شط المزار باليهودية عن اقرباء عصبتهم وجيرتهم بعد تشردهم وانفصالهم عنهم) ويؤكد (على ان مادة النقوش اليمنية بالمأثورات التي اشتملت عليها وكذلك القرآن كل هذه تميظ الماثم عن ان اهم محتوياتها الاساسية عربية أصيلة) • لقد انصف ماركس وانجلز التاريخ اليمني برأيهما ذلك والذي كان دراسة عميقة ومستفيضة للتاريخ الانساني عامة وللتاريخ اليمني هنا بصورة خاصة وبالرغم من محاولات اليهودية انكار اقتباسهما للتقاليد اليمنية تلك الا ان حوادث التاريخ والترتيب الزمني الصحيح لها يؤكد ان القبائل والاقوام التي عاشت في اليمن تعرفت على الحضارة قبل ان يكون لليهود كيان بعشرات من القرون وبالرغم من ذلك فانه يمكننا ان

نلس من النورات اعتراف ضمني بتلك الحضارة وتقاليدها تكوين (ويطعان ولد الوداد وشالفا وحضرموت ويارح وهدورام واوزال ودقله وعوبال وايسايل وشبا واوفير وحويله ديوباب جميع هؤلاء بنو يقطعان وكان مسكنهم من ميثا حينما تجيء سفار جبل المشرق هؤلاء بنو سالم حسب قبائلهم كالسنتهم باراضهم حسب امهم (هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم باسمهم ومن هؤلاء تفرقت الامم في الارض بعد الطوفان حسب مواليدهم باسمهم ومن هؤلاء تفرقت الامم في الارض بعد الطوفان) اذن فهؤلاء القوم لا شك وانهم حملوا معهم تقاليدهم واعرافهم الى الامم التي اخلطوا بها وتعايشوا معها فاثروا عليها كما تأثروا بها وكانت فكرة التوحيد حسب اخبار الكتب المقدسة موجودة وقائسة وبالرغم من ان الماضي البعيد صعب التحري والتحقيق لذا فالبحث سيشمل الفترة التي بدأت فيها الكتابة بالنقوش والتي ترى ان لفظة حنفاء قد وردت بالخط المسند وانها تعني التسليم لاله غيبي .

فالاحناف اذن هم الذين سلموا اوجههم (لرب السما) او بالمعنى الاسلامي (الله) حيث ورد في القرآن سورة ابراهيم (ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا) . والمتخفي كما وردت عند الزبيدي في تاج العروس هو المتعبد المتدين وهو بمعنى التوحيد أي اثبات الفاعلية الدينوي لله .

وأكد القرآن على ان ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا حيث وردت سورة آل عمران (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) . وتدعم كتب التاريخ رأي القرآن في قضية ابراهيم ومحاولة اليهود تهديده رغم ان كسل مؤشرات التاريخ وأحدا ووقائعه ترى ان ابراهيم من أصل آرامي ولد في منطقة الكوفة في العراق في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ويقال ان أهله وذويه قد نزحوا من جزيرة العرب ولا يعرف بالتحديد في أي موضع من الجزيرة عاش آبائه وأجداده الا انه مما لا شك فيه انه قد تأثر بالحضارة اليمنية

والافكار والمعتقدات الوحداية التي آمن بها اليسانيون ويدعم قولي هذا
ببراهين وردت في القرآن (ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين)
ومن المستشرقين من أكد عبر دراسته للنقوش وجهة نظر الاسلام حيث
يقول (نولدكه) ان حنف من أصل عربي وقد وردت لفظة (حنف) في
العربية الجنوبية وردت بمعنى (صبا) اي مال وتأثر بشيء ما وقد اطلقها
الاسلام على نابذي عبادة الاصنام ومن وجهة نظر الاسلام وعلماء الاسلام
ان هناك من دعي الى نبذ هذه العبادة والتوجه الى (رب السماء) من
جنوب الجزيرة العربية وهم اتباع هود وصالح والذين ارسلوا الى قوم
عاد وثمود قبل ابراهيم الحنيف بقرون عديدة سورة الاعراف (والى عاد
أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم اله غيره أفلا تتقون) هود (والى
عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالك من اله غيره ان انتم الا
فاقدون يا قوم لا أسألكم عليه اجرا ان اجري الاعلى الذي فطرني أفلا
تعقلون) قد افلح (ثم انشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا
منهم ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون هيهات هيهات لما
توعدون ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن ببالعوثين) •

يبدو سكان جنوب الجزيرة قد عرفوا البذخ في حياتهم وعاشوا في
نعمة من العيش وفي حضارة لا يضارعها في الجزيرة العربية حضارة وقد
ذكر القرآن هذه النعم وهذا البذخ الذي عاشوا فيه حتى بلغ بهم
الحد ان استكبروا وعاثوا في الارض فاستكبروا في الارض بغير الحق
وقالوا من أشد منا قوة) ويذكر القرآن بعد ذلك العذاب الذي انزل بهم
وهو نوع من التخويف لسكان الجزيرة العربية الذين اراد محمد ان
يألف منهم امة واحدة ودولة واحدة وحضارة متماسكة ذات بأس شديد
وقوة • (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد) وعاد وثمود قبيلتين
سكنت جنوب الجزيرة وأرسل اليها هود وهو كما تذكر كتب الاخباريين
انه ابن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر ابن ثمود بن عابر بن ارم بن سام
ابن نوح • فقد ورد في سورة النسل (ولقد ارسلنا ثمود أخاهم صالح ان
اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون) ويبدو من هذه الآية ان فتنة

قد نشبت بين اليمانيين الموحدين ومن بقي على عبادة الاصنام او الكواكب
أما في نسب ابراهيم فتورد كتب الاخباريين والتوراة ان ابراهيم هو ابن
شارخ بن فاحور بن ساردع بن راغوا ابن فالح بن عابر بن شالخ بن
ارفخشو بن سام بن نوح) اذن فكتب الاخباريين التي أوردت الاسماء
والنسب الى جانب اخبار التوراة واحاديث القرآن كلها تثبت ان انبياء
جنوب الجزيرة العربية منهم هود وصالح قد جاءوا ودعوا الى اتوحيد
قبل ابراهيم وبصرف النظر عن دقة اخبارهم والانساب الدينية التي
وردت عندهم ولم ترد في النقوش الا ان ما يهمننا هو ان ندعم وجهة
نظرنا مستفيدين من المصادر في عملية التحليل للواقع اليمني في تلك
الفترة التي أدت الى خلق ديانة التوحيد عند اليمانيين قبل غيرهم من
الاقوام وقد ورد في الماركسية ما يدعم أخبار القرآن بل (ولقد اولت
لهذه الظاهرة عند اليمانيين اهتماما بالغاً حيث وردت في رسالة انجلز
الى ماركس (عام ١٨٥٣) آراء وأقوال تدعم وجهة نظرنا هو « ان التعاليم
التي اشتملت عليها النقوش يشكل مجرد جزء صغير منها قوام الديانة
اليهودية .. والاسلام) .

ويقول انجلز عن الدين الاسلامي الحنيف الذي انتهج منهج ابراهيم
(وفيما يخص الدين الاسلامي يبدو انه ذو صلة واشجة وطيدة بالتعاليم
التي جاءت في النقوش اليمنية القديمة وهي التي لا يزال الموجود منها يشير
الى ان التقاليد الوطنية العريقة والقائمة على التوحيد هي الطابع السائد) .
اذن فالاسلام الذي يعتز انه على دين ابراهيم حنيفا انما فكرته التوحيدية
من اصل يمانى ذلك ان العقيدة الحنيفة يمانية . الا ان سقوط الحضارة
اليمنية الذي جر الى خراب قضية التوحيد من جنوب الجزيرة وتحولها
الى شمالها وليس قتل الناقة ولا عصيان أوامر صالح ولا تمرد الناس على
طاعة رب السماء هو الذي جر الى سقوط الممالك اليمنية وتلك الحضارة
وتحولها بما فيها من عقائد الى الشمال ونسيان الناس لها كلية .

ان وقائع التاريخ التي اوردناها سابقا والاثباتات المادية التي وردت

هي التي تشهد على صحة ما نذهب اليه ولنسر مع تطور الحوادث التاريخية خطوة خطوة فيبدو لنا من تسمية ابراهيم الخليل وهو المعروف في التوراة (ابرام) وصفة الخليل مقسمة قسمين (الخل ايل) أي المقرب الى الآلهة ايل . والمعروف ان ايل اله معيني عبد في معين قبل الميلاد بما يزيد عن عشرين قرنا وتيمن به اليمنيون في اسمائهم فورد كحام لهذه الاسماء اما بعد او قبل الاسم (صدق ايل) (ايل صدق) في تلك الفترة امتدت سيطرة المعينين حتى تخوم الحجاز بل وتجاوزتها الى المستوطنة (الديدان أي العلا في مفترق طريق الشام وفلسطين) وغني كابراهيم صاحب تجارة واسعة لا بد ان تكون اليمن بلاد المر واللبان قد لفتت نظره كتاجر لذا فمن المحتمل قيامه بسفرات الى هذه المنطقة . وقد تكشف لنا النقوش العربية سواء المدفونة في باطن ارض الجنوب أو الشمال مثل هذه الرحلات وعلى كل اذا سلمنا بعدم زيارته للمنطقة الا اننا نجزم بأن ابراهيم قد سمع عن جنوب الجزيرة كثيرا بل واحتك بمن جاء الى ارض الشام وفلسطين منها متاجرا او داعيا لفكرة - وانه قد تأثر بهم وحمل عنهم بعض الافكار والمعتقدات وانتقال اسماء اليسنية والمعينية بالذات الى الشمال وقد ورد في التورات تك (٢٤ / ٣) ذكر الاله (ايل) الذي دعى ابراهيم الى عبادته قبل ان يتعرف على عبادة الكواكب وقبل ان يحس بالانشطار الروحي الذي عانى منه في نفسه الآية الانعام (واذا قال ابراهيم لايه آزر ألتخذ اصناما آلهة اني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكون من القوم الضالين) ولاختلاف طبيعة المناخ بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها فقد اعطيت الشمس الأهمية العظمى والكبرى في الشمال وعبدت كأعظم الكواكب السماوية لما كان للانسان هناك من فوائد ومصالح مرتبطة بها

وأخيرا رأى ابراهيم الشمس (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم أي يرىء مما تشركون ، اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) كخطبة المظاف بعد الحيرة في الكواكب الثلاثة .

وتقول كتب التاريخ ان ابراهيم كان يتمتع بسكينة رفيعة بين قومه فها هو يتحدى ملكة النمرود ويحطم الاصنام التي سخرها الملك لخدمة أهدافه ومطامحه في السياسة والحكم (ولقد أتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اذ قال لايه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) . ويستمر الحوار في تحد بين الطرفين ويتهم ابراهيم على قومه بعد ان اهتدى هو الى رب السموات والارض سورة الانبياء (قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجبتنا بالحق ام انت من اللعين قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهم وانا على ذاكم من الشاهدين) . ويستمر التحدي بقوة تدل على ثقة ابراهيم بنفسه . لما له من ثقل بينهم وتحديه مع سابق الاصرار على تسفيه عبادة قومه انما تدل على انه كان صاحب جاه ومال كما تشهد بذلك جميع الكتب التاريخية (والله لأكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فجعلهم جذارا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون) . اما التوراة فتؤكد على غنى ابراهيم والذي ينتمي الى طبقة الملوك والامراء وان الخلاف الذي حصل بينه وبين الملك نمرود على ما يبدو انه خلاف على المصالح المادية في نفس الطبقة (فصعد ابرام من مصر هو وامراته وكل ما كان له ولوط معد الى الجنوب وكان ابرام غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب وسار في رحلاته من الجنوب الى بيت ايل) .

لقد احتلت رحلات ابراهيم وسفرائه الطويلة مكانا كبيرا من التوراة لاهيتها بالنسبة لدعوته التوحيدية ولإقامة دولة مركزية لشمال الجزيرة العربية فلقد ترحل بين بابل وفلسطين ومصر في بداية حياته كتاجر . ونتيجة للظروف السياسية آنذاك والعلاقات الخارجية القائمة بين تلك الممالك

(البابلية - والكلدانية والكنعانية والآشورية) فقد اصبحت الدعوة التوحيدية ضرورة للتوحيدين اولئك الأقوام فما كان يصيب هذه العلاقات من توتر بسبب الحروب التي كانت تنشب بين الحين والآخر بين تلك الممالك فتعكس نفسها على الامن فينعكس على تجارته وتجارة غيره وتتعرض للخطر . من هنا فقد دفعته الرغبة في التنقل بحرية وتأمين اجارته وازالة الحواجز والمكوس بين تلك الممالك ولاختصار الفكرة اليمنية من حيث كونها تخدم اهداف سياسية وتسخر الرب الواحد لخدمة المصالح والاغراض الاقتصادية والاجتماعية فهب يدعو الى الوحدةانية في المنطقة الواقعة بين النيل والفرات تكوين ١٥ و ١٦ آية (في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا لنسلك اعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير الفرات . القينيين والقنزيين والقدموغيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والاحوريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين) ان تلك الدعوة التوحيدية لا شك انها انطلقت من ارضية مادية اقتصادية واجتماعية اوجتها اليه المصلحة الشخصية والجماعية الرغبة في التنقل بحرية وتوفير الامان بغرض الهدوء والاستقرار في ربوع المنطقة وبناء كيان موحد للأقوام المتعاشين هناك تحت ظل ممالك مشتته موزعة فمثل تلك الاوضاع الممزقة تقهر طموحات واحلام ابناءها وتمزق حياتهم الاجتماعية والفكرية وليس هناك أي حل الا بجمع ذاك الشقاق واعادة بنائه في كيان موحد ويشعر انسانيته بانسانيته وينهي الضياع . الا انه كان لا بد ان تأخذ الدعوة الى الوحدة الاقتصادية والسياسية طابع ديني يتلائم مع تلك المرحلة فدعى الى عبادة الاله الواحد على غرار الدعوة لتوحيد الممالك اليمنية وبناء الدولة المركزية تحت شعار ديني بالرغم من ان الهدف دينوي محلي يتولى السلطة العليا فيها ملك مقرب الى الآلهة والى رب السماء (مكرب) .

ويبدو ان الفكرة اليمنية تلك كانت قد استهوته واستحوذت على مشاعره وأفكاره وهو المنحدر من نفس الطبقة التي كان ينتمي اليها مكارب وملوك اليمن فأخذ يعمل طوال بقية حياته على تحقيق تلك

الوحدة واقامة تلك الدولة التي يأتي هو زعيما او ملكا فوق قمة بناءها الهرمي الا ان ابراهيم لم يستطع ان يكمل تلك المهمة ويقيم الدولة المركزية الواحدة نتيجة لطبيعة الظروف التي عاشتها المنطقة آنذاك وابتني جعلت من حكم ابراهيم ها وامنيته الوطنية مهمة شاقة وصعبة وحولت الناس من الأخذ بالفكرة الدينية التي تادي بها مسترا تحت شعار الوحدة الى الأخذ بفكرة الوحدة وعبادة الموضوع الذي خلقوه بأيديهم والذي حاول ابراهيم ان يتخذه كوسيلة فقط لتحقيق ذلك الغرض وذلك الطموح المادي الملموس وهو تحقيق وحدة المنطقة اقتصاديا وسياسيا وازالة شبح الحروب المدمرة بين مملكتها الكثيرة ان خلق تشكيلة واحدة اقتصادية واجتماعية لبناء تلك المنطقة سيذيب ولا شك كل الظواهر السياسية المشتته والممزقة في وحدة عضوية يقوم التأثير فيما بينها الا على اساس الافضلية العرقية وانما على أساس مادي يعتمد على الانتاج والقدرة على الحركة التجارية في طول المنطقة وعرضها .

ان خلق كيان اقتصادي واجتماعي موحد يزيح شبح الفتن والحروب بين اقوام تلك المنطقة كانت اعظم طموحات ابراهيم الخليل الوطنية فعمل من اجل تحقيقها بخلق مفهوم عقائدي واحد يجمع مثل هؤلاء القبوam الشتات في وحدة اقتصادية واجتماعية فخلق الاله الواحد تأثرا بالفكرة اليمينية كفكرة لاهوتية لم تستطع ان تحقق حينها الغرض الذي وجدت من اجله الا انها بقية تختمر وتتطور بواسطة الرسل حتى جاء بعد النبي وخمسة عام من بزوغ فجرها في الجزيرة العربية من استطاع ان يحقق ذلك الطموح المشروع ويبني الدولة العربية المركزية الواحدة لأقوام المنطقة العربية لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية فيتحول شتات اولئك الاقوام الى وحدة امة متماسكة قوية ويخلق من اولئك البدو تلك الدولة العظيمة التي أطاحت بالنفوذ الاجنبي الفارسي البيزنطي من الوطن العربي الى غير رجعة ذلك هو محمد بن عبدالله في ثورته الاسلامية تلك التي سارت على

هدى مبادئ ابراهيم الحنيف في التوحيد اليماني •

ان أهمية ابراهيم التاريخية بالنسبة لاقوام تلك المنطقة بل لسكان الجزيرة العربية كلها تكمن في محاولاته العظيمة في توحيدها وبناء دولة مركزية قوية يجد الانسان فيها انسانيته بعد ان بقي ضائعا فوق أرضها الصحراوية بين أنظمتها الكثيرة العديدة المختلفة النوعية ان ابراهيم يعد بطلا قوميا أراد أن يبنى كيانا لأقوام ممزقين متحاربين رغم وحدة طبيعة أرضهم الجغرافية وتقارب لغاتهم من بعض وقد كان هناك التركيز على شخصيته في الديانات الثلاث اليهودية (أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أبا الجمهور من الامم فلا يدعي اسمك بعد ابرام بل يكون اسمك ابراهيم، لأنني اجعلك ابا لجمهور من الامم واثرك كثيرا جدا واجعلك امما وملوك منك يخرجون) •

واما المسيحية فقد ارجعت جميع الانبياء الى نسل ابراهيم (كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم ، ابراهيم ولد اسحق واسحق ولد يعقوب ويعقوب ولد يهوذا واخوته ويهوذا ولد فارص وزار من تامار وفارص ولد حصرون وحصرون ولد آرام) الى آخره اما الاسلام فيرى فيه الدين الصحيح والخلفية الروحانية والفكرية (يا أهل الكتاب لم تحتاجون في ابراهيم وما انزلت التورات والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) • وهذه الآيات القرآنية تؤكد على زعامة ابراهيم لأقوام الجزيرة العربية كلها ولا شعوبية الدعوة الابراهيمية وليس كما يحاول البعض ان يجعلوا منه زعيما روحيا فقط • ولا بد لنا ان نزيل الوهم الذي يسيطر على اذهان الناس وعقولهم حتى تتمكن ان نقيم حقيقة هذا العالم كما هي وان نكشف الاشكال المقدسة لأوهام الناس وتخيلاتهم حتى نخدم التاريخ بحق وحقيقة وان ننزع القناع عن المفاهيم الدينية الغيبية التي غلفت التاريخ والحقائق والوقائع المادية بغلافها لفترة تاريخية طويلة وحتى تتمكن من ان نمزق تلك القديسة التي لا تمس والتي

شوهت الحقائق التاريخية وحولتها الى تجريدات ضبابية الرؤيا فلم تتمكن من ان نعرف على التاريخ كما هو في تطوره المادي •

ان التوحيد اليماني والذي شكل الرافد الحقيقي لفكرة الوجدانية الابراهيمية غنيها القوام شمال الجزيرة لما كان لبراهيم من مكانة اجتماعية بينهم • هذه الوجدانية التي شكلت الخلفية الفكرية للعقائد السساوية تتطلب معرفتها معرفة للفكرة اليمانية هل اكتفت بالتوحيد الغيبي (لرب السماء) ام تجاوزتها الى فكرة العقاب والمحاكمة التي ستم خلف هذا العالم المادي كما بشرت بها ووجدانية ابراهيم ومن جاء من بعده من الرسل والمعتقدات الدينية ثم كيف كانت تتم عملية اخضاع الانسان بالوجدانية الغيبية هل تلقاها منذ البداية بلا مقاومة وهل حاجته الى الحاجات الضرورية هو الذي شكل المدخل لهذا الايمان وبالرغم من اني اميل الى ان تلك الفكرة قد فرضت عليه من قبل الملك والدولة الا انها جاءت مستجيبة لبعض من حاجياته الضرورية لذا فقد وجدت في نفسه صدى عميقا مكنها من ان تعيش وتنتشر في ربوع اليمن • اذن فالمجتمع والدولة في اليمن هما اللذين اتجا هذه الفكرة والتي مثلت الوعي المقلوب للواقع الموضوعي اليمني والذي يعد عالما مقلوبا بالنسبة لوعي الانسان المجرد والذي لم يكن يستطيع ان يحاكي الواقع الا بفكره فلم يكن قد تمكن بعد من اخضاع الطبيعة وقواها •

ان التوحيد اليماني يعد النظرية العامة للتوحيد في جميع الاديان الموحدة ولقد اصبح موضوع اعتزاز لها لذا فانصافا لهذه النظرية وتقديرا لاهلها والذين كانوا المبدعين الحقيقيين لتقاليدها والقيم المتعلقة بها لا بد من اعطائها الاهتمام التاريخي ولتكن هذه الدراسة مجرد مدخل الى دراسات تاريخية عميقة مدعمة بكثير من الحقائق المادية والوقائع التاريخية والأحداث الحياتية وان استنباط وسائل حديثة من أجل الحفاظ على آثار الشعوب وتاريخها سوف يساعدنا في المستقبل كثيرا في دراساتنا وبحوثنا والتي نريد بها ان نخدم التاريخ والتاريخ اليمني بصورة خاصة

يتطلب منا التحليل ماديًا للآحداث والوقائع واتّهاج منهج المادية التاريخية حتى لا نقع في الضبايات وتضييع منا الرؤيا الواقعية اوضوعية للامور فلا نستفيد من الوسائل الجديدة التي نطمح الى خلقها والابداع لها لذا لا بد من ربط العلم والمنهج العلمي المادي في تحليل التاريخ حتى تسهل أمامنا كثير من الصعوبات وتتخطى جميع العقبات التي سوف تواجهنا ونحن نقوم بهذه المهمة التاريخية •



مصادر تاريخ العراق والخليج العربي في دار السجلات الحكومية الهندية في بومباي

الدكتور عبد الأمير محمد أمين
طبيب التبيب / جامعة بغداد

تحتوي دار السجلات الحكومية في بومباي على وثائق لعلمها تشمل أهم وأغزر المواد التاريخية الخاصة بالعراق والخليج العربي في العالم أجمع وسجلات دار الوثائق الحكومية في بومباي هي في الأساس سجلات « شركة الهند الشرقية الانكليزية » The English East India Co. وسجلات السلطات البريطانية التي ورثت تلك الشركة وتولت مسؤولياتها (١) .

لقد اجازت الملكة اليزابث الاولى هذه الشركة في ٣١/١٢/١٥٩٩ ومنحتها حق احتكار التجارة الانكليزية في « الهند والاقطار المجاورة لها The East Indies » وما هي الا سنوات قلائل حتى ظهرت سفن الشركة في مياه الشرق ، واستقر ممثلوها في أماكن عدة من الهند لرعاية مصالح الشركة وادارة تجارتها .

واتخذت (سورات) مقر رئيسي للشركة في غرب الهند . وفي نهاية القرن السابع عشر حلت بومباي محل سورات وأصبحت مركزا هاما من مراكز تجارة الشرق . وانيط بها الاشراف على مقرات الشركة الى الغرب من شبه القارة الهندية كتلك التي في منطقتي البحر الاحمر والخليج العربي وكانت الشركة قد مدت نشاطها الى الخليج العربي بعد سنوات قليلة من

قيامها ففي عام ١٦١٦ أسست لها مقرا تجاريا « Factory » في (جاسك) على الساحل الشرقي للخليج العربي . ثم اختارت « كمبرون Gombroon » على الساحل نفسه لتحل محل جاسك . وابد اسم كمبرون باسم آخر هو « ينذر عباس » وازدادت أهمية هذا الميناء الجديد بمرور السنين . بل صار محورا للنشاط الاقتصادي والسياسي في منطقة الخليج العربي خلال المئة والخمسين سنة التالية (٢) .

ولم ينحصر النشاط الانكليزي في بندر عباس ، بل عمدت شركة الهند الشرقية الانكليزية في بعض الاحيان الى فتح « مقيميات Residencies » في أماكن أخرى مثل البصرة وبوشهر واصفهان وبغداد وشيراز ، تابعة الى مقر الشركة الرئيسي « الوكالة The Agency » في بندر عباس .

وترجع صلات شركة الهند الشرقية الانكليزية بالبصرة الى عام ١٦٤٠ (٣) . فقد دفعت المنافسة الهولندية في بندر عباس الانكليزية الى ارسال بعض سفنهم الى البصرة لعرض بضاعتهم في اسواقها . ثم أخذت السفن الانكليزية منذ ذلك الحين تتردد على الميناء دون ان تؤسس الشركة فيها مقرا دائما حتى عام ١٧٢٣ .

وفي عام ١٧٦٣ رفعت مقيمة البصرة الى وكالة وحلت بذلك محل بندر عباس . واستمر هذا الوضع الى عام ١٧٧٨ حيث خفضت البصرة مرة أخرى الى مقيمة (٤) .

وكانت تجارة الخليج هي موضع الاهتمام الاول بالنسبة لشركة الهند الشرقية الانكليزية خاصة خلال المئة والخمسين عاما الاولى من تاريخها . ولكن فعاليات الشركة لم تقتصر على التجارة في أية فترة من فترات تاريخها الطويل ، بل كثيرا ما تعدتها الى مجالات سياسية وعسكرية . بحجة الرغبة في توسيع تلك التجارة وحمايتها (٥) .

وعلى أثر غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ وتحركاته المريبة في منطقة الخليج العربي والعراق وفارس • تبدلت نظرة البريطانيين الى كل هذه المناطق • فلم تعد التجارة هي موضع الاهتمام الأول لهم ، بل طغت وبشكل واضح الاعتبارات السياسية والاستراتيجية على الاعتبارات التجارية • وتشبث البريطانيون منذ ذلك الوقت بمنطقة الخليج العربي كاحدى الطرق المهمة المؤدية الى امبراطوريتهم الواسعة في الهند •

وتخلت شركة الهند الشرقية الهندية في منتصف القرن التاسع عشر عن مسؤولياتها في الهند • وتوات الحكومة البريطانية مباشرة هذه المسؤولية • ولكن هذا لم يغير من الوضع في الخليج العربي ، فقد واصل البريطانيون سياستهم الرامية الى احكام سيطرتهم على الخليج العربي • وقاوموا بكل اصرار طيلة القرن التاسع عشر جميع محاولات الفرنسيين والروس والامان الرامية الى الاقتراب من الخليج واتخاذ موقع قدم فيه • وما ان أشرف القرن التاسع عشر على نهايته ، حتى كانت منطقة الخليج العربي برمتها ضمن مجال النفوذ البريطاني • وقد وقع رؤساء المنطقة وشيوخها معاهدات مع البريطانيين ضمنت لهؤلاء السيطرة والنفوذ •

ان صلات البريطانيين الطويلة بمنطقة الخليج العربي واهتماماتهم التجارية والسياسية والاستراتيجية ساعدت في تراكم السجلات التي تحتفظ بها في الوقت الحاضر دور الوثائق في كل من بريطانيا والهند ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ، فان شركة الهند الشرقية جبلت منذ بداية تأسيسها على ابداء اهتمام بالغ بأوراقها • لقد بذلت الشركة عناية قد تفوق حد التصور في تنظيم سجلاتها وفي المحافظة على ذلك السجلات وعدم التفريط بها مهما تقادم عهدها وتضاءلت أهميتها • ومهما اتت الحاجة المباشرة اليها • لقد كانت الشركة تصر على تدوين كل شأن من شؤونها على الورق ، وبلغ هذا الأمر حدا وصفت الشركة معه بأنها « حكومة أوراق » ^(٦) ، وكثيرا ما أكدت لمستخدميها ضرورة تدوين كل صغيرة وكبيرة من شؤونهم • كما كانت تعبر الى أولئك المستخدمين عن

حاجتها الى المعلومات والى مزيد من المعلومات عن كل حدث وعن كل موقع في اماكن تواجدهم مهما كانت صلة ذلك كبيرة أم صغيرة مباشرة أم غير مباشرة بأعمالهم .

وبعد هذا كله فلا عجب ان تبلغ سجلات الشركة الملايين من المجلدات والاضاييرووحصة بومباي منها كبيرة جدا قد تبلغ ربع مليون من هذه وتلك (٧) من هذه اعداد كبيرة جدا تحتوي على معلومات ثمينة تتصل بكل نواحي النشاط الانساني في العراق ومنطقة الخليج العربي لفترة الثلاثة قرون الماضية وعلى الرغم من هذه الأهمية البالغة لسجلات بومباي فان ما فيها من ثروة لم تستخدم كما يبدو ، من قبل البحاثة والمؤرخين العرب بأي شكل من الاشكال وأرجو ان يوفق هذا البحث في اعطاء فكرة واضحة ومجملّة عن هذه « السجلات » ان الوصف الذي تضمنته هذه الدراسة والملاحق الكثيرة التي تضمنتها قد تسد الطريق للمباحث العربي الراغب في الاستفادة من وثائق بومباي كما انها قد تعطيّه فكرة مسبقة عما يتوقع الحصول عليه في حالة قيامه بزيارة دار انسجلات هناك » .

والمعلومات ذات الصلة بالعراق خاصة ومنطقة الخليج العربي عامة يمكن الحصول عليها في ضيات الاصناف التالية من سجلات دار الوثائق الحكومية في بومباي :

- (١) يوميات البصرة .
- (٢) يوميات بوشهر .
- (٣) يوميات بندر عباس .
- (٤) سجلات مديرية بومباي الخاصة بالعراق والخليج العربي .
- أ - القسم العام والقسم السياسي والسري حتى عام ١٨٢٠ .
- ب - القسم السياسي والسري بعد عام ١٨٢٠ .

٥ (سجلات البعثات واللجان •

أ - بعثة كاردن الى الخليج العربي •

ب - بعثة بغداد •

٦ (مخنارات مطبوعة من سجلات بومباي :

أ - مختارات مطبوعة خاصة بالعراق •

ب - مختارات مطبوعة خاصة بالخليج العربي •

يوميات البصرة :

ويوميات البصرة هذه تتألف من عشرين مجلداً قغطي الفترة من عام ١٧٦٣ والى على عام ١٨١١ مع كثير من الفجوات • وليوميات البصرة في دار الوثائق الحكومية في بومباي أهمية خاصة وذلك لعدم وجود نظائر لها في أي محل آخر في العالم «فمكتبة دار الهند India Office Library» تفقر ايها تماما • بل انها تشمل حلقة منقودة بالنسبة لهذه المكتبة • ويوميات البصرة بدورها تترك في حيزها

١ (يوميات مقر البصرة التجاري •

٢ (يوميات مقيمة البصرة •

وتتألف الاولى من أحد عشر مجلداً تحمل ارقاماً ١٩٣ - ٢٠٣ وتغطي الفترة من كانون الثاني عام ١٧٦٣ الى عام ١٧٧٥ • وهذه فترة الوكالة الانكليزية في البصرة • وتتميز تلك الفترة بدقتها وأهميتها وذلك من حيث تطور المصالح البريطانية ونسوها في منطقة الخليج العربي • وتساؤل الوجود الهولندي فيها ، وازدياد نشاط القبائل العربية واثتداد قواها البحرية والصراع بين تلك القبائل العربية من جهة ، والفرس والعثمانيين وحلفائهم البريطانيين والهولنديين من جهة اخرى • فمجلد

رقم ١٩٣ تسجيل للاحداث التي صحت عملية الانسحاب الانكليزي من بندر عباس عام ١٧٦٣ والاستقرار في البصرة المقر الجديد للوكالة . وحالة التجارة وسق الاقمشة الصوفية الانكليزية وتحركات قبائل المتنفذ وتمردها على السلطات العثمانية (٩) .

والمجلد الذي يليه (مجلد رقم ١٩٤) يحتوي على معلومات تجارية قيمة وعلى مراسلات الوكيل الانكليزي في البصرة مع باشا بغداد ومع السفير الانكليزي في اسطنبول وكان الموضوع الاساسي لتلك المراسلات هو محاولة السفير الانكليزي الحصول على موافقة السلطان العثماني لحصول البصرة على « البراءة » أي شمولها « بالامتيازات Capitulations » (١٠) .

وتغطي معلومات مجلد رقم ١٩٥ مقدمات الصراع بين الانكليز وقبيلة كعب التي كانت متمركزة في شط العرب . ثم الحرب المريرة التي وقعت بين الفريقين والمفاوضات التي سبقتها وقيام التحالف الانكليزي العثماني لتحطيم هذه القبيلة القوية الشكيمة الشديدة البأس . وقد جاء في احدي اليوميات وصف ممتع لعلاقات * كعب فهي كبيرة جدا « Very Great » وتحمل الواحدة منها ما بين ستة وثمانية مدافع (١١) .

وتغطي وقائع الحرب مع كعب معظم اجزاء المجلد التالي (مجلد رقم ١٩٦) وقد اعطيت كثير من التفاصيل الخاصة بالقتال وبالقوات البرية والمائية للفرقاء المتحاربين (الانكليز والعثمانيين وكعب) (١٢) .

ويعطي المجلد رقم ١٩٧ تفاصيل المفاوضات والمراسلات والنشاط الدبلوماسي الذي صحب الحرب بشكل خاص المفاوضات مع كريم خان الذي تدخل في صالح كعب واجبر الانكليز وحلفاؤهم العثمانيين على

* الفلافة نوع خاص من السفن للتفاصيل انظر عبد الامير محمد امين القوى البحرية في الخليج العربي ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٥٦ .

الانسحاب من أراضي كعب • كما ان هناك مراسلات اخرى مع باشا بغداد ومع بعض الشيوخ العرب (١٣) •

وتستمر قبيلة كعب تحتل مركز الصدارة في الاحداث ، فتغطي المجلدات رقم ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ اخبار تحركاتها ، وفعاليتها وعلاقاتها بالانكليز وكذلك تغطي تطور العلاقات بين الانكليز وكريم خان وفيها كذلك اخبار تجارية ومحلية متفرقة (١٤) •

أما المجلدات الاخرى (١٥) : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ففيها معلومات مفصلة عن أحوال البصرة وولاية بغداد وتفشي وباء الطاعون وتهديدات قبائل المنتفاك للسلطات العثمانية وتأزم العلاقات بين الانكليز وكريم خان وتطور العلاقات بين الانكليز والعثمانيين وقبيلة كعب وتدهور أحوال البصرة وكساد التجارة فيها ومقدمات للغزو الفارسي لها •

يوميات مقيمية البصرة :

ويوميات مقيمية البصرة هي تسعة مجلدات تغطي الفترة من عام ١٧٩٨ وإلى عام ١٨١١ (١٦) (مجلد رقم ٢٠٤ إلى مجلد رقم ٢١٢) • وأغلب هذه المجلدات التسع منتظمة تبدأ في ١ كانون الثاني وتغلق في ٣١ كانون الاول من العام نفسه •

والمعلومات التي تحتويها كثيرة ومتنوعة • تحتل انباء نقل البريد بين أوروبا والشرق عن طريق البصرة مركز الصدارة فيها • فقد تطلب الامر خلال الحروب النابوليونية ازدياد أهمية الطريق المذكور وزيادة في عدد الوسائل المارة به •

كما ان يوميات مقيمية البصرة تحتوي على نسخ من الرسائل المتبادلة بين سلطات الشركة في لندن ومقراتها في شبه القارة الهندية • وبين سلطات تلك الشركة وممثليها في الخليج العربي وبغداد والبصرة واسطنبول وطهران • فقد شهدت جميع هذه المناطق نشاطا سياسيا انكليزيا

ودبلوماسية متميزا خلال الفترة التي تغطيها هذه اليوميات وذلك نتيجة للغزو الفرنسي الى مصر وتحركات الفرنسيين المريبة في الشرق *

وبالاضافة الى تلك الجوانب السياسية والدبلوماسية فان يوميات مقيسية البصرة تحتوي على معلومات مهمة عن التجارة وأسعار الحاجيات وعن القبائل العربية في العراق ومنطقة الخليج العربي وحركة السفن وأنباء اخرى متفرقة كثيرة *

ومما تجدر الاشارة اليه ان مجلدات مقيسية البصرة بصورة عامة في حالة رديئة للغاية وقد عسلت الرطوبة والحرارة وفقدان وسائل الصيانة الحديثة عملها في تهرئة الاوراق وتنزقها وطمس بعض معالم الكتابة فيها (١٧) *

رسائل البصرة Outwards or Orderbooks

وهناك مجلد واحد من هذا النوع وهو يحمل رقم ٣٠ ويعتبر الاوراق التي يحتويها هذا المجلد من اقدم الاوراق الخاصة بالبصرة فهي ترجع الى عام ١٧٢٥ * ولكن هذا المجلد في حالة سيئة للغاية فالغلاف مهترىء والاوراق تكاد تتبعثر بسجرد لمسها وتصفحها (١٨) *

يوميات بوشهر (١٩) :

وهناك مجلد واحد خاص ببوشهر ويحمل رقم ٣٥ ويضم مجموعة من الرسائل المتفرقة الصادرة والواردة Outwards and Inwards Letters للفترة ١٧٨٩ - ١٧٩٨ *

يوميات بندر عباس (المقر التجاري أو المقيمة) Gombroon Factory or Residency Diories

وهذه سبعة مجلدات تحمل ارقاما ١١٢ الى ١١٨ وتغطي الفترة ١٧٤١

الى آب ١٧٥٧ مع فجوات كثيرة ، فلا توجد يوميات لعام ١٧٤٣ الى جانب
فجوات اخرى •

ويوميات بندر عباس مهمة من نواحي عدة فخلال الفترة التي
تغطيها هذه المجلدات السبع كانت بندر عباس مقرا رئيسا لكل من الانكليز
والهولنديين في منطقة الخليج العربي لذا كانت محورا للنشاط الاقتصادي
والسياسي ، كما كانت قاعدة للأسطول الفارسي الذي بناه نادر شاه ومنها
انطلقت قطعاته في غزوها لعمان وللشاتيء العربي للخليج (٢٠) • وحول
بندر عباس وفي هذه الفترة بالذات نشطت القبائل العربية مثل القواسم
وبني معين والحوالة (٢١) •

ومعلومات هذه المجلدات السبع تغطي كل هذه الجوانب من
النشاطات السياسية والاقتصادية : العربية والفارسية والاوربية (٢٢) •

رسائل بندر عباس (٢٣) :

وهناك مجلدان من هذه هما مجلد رقم ٣١ وهو يحتوي على
Outwards Letters للفترة ١٧٤٤ ومجلد رقم ٤٠ ويحتوي على
Inwards Letters للفترة ١٧٣٤ - ١٧٤٤ •

سجلات مديرية بومباي Bombay Presidency Records

(١) سجلات مديرية بومباي لغاية ١٨٢٠ •

تتوافر معلومات كثيرة تخص العراق والخليج العربي من اقسام
مديرية بومباي المختلفة ولكن المادة الرئيسية نجدها في القسم العام
Public Department للفترة السابقة لعام ١٧٥٥ وفي القسم السياسي
والسري Political and Secret Dept. للسنين التالية (٢٤) •

ووردت المعلومات في سجلات كلا القسمين القسم العام والقسم

السياسي والسري ضمن وقائع اجتماعات مجلس المديرية (يوميات ومداولات Consultations) وهناك ما لا يقل عن مئتين مجلد من مجلدات هذين القسمين تحتوي يومياتها على معلومات تخص ولاية بغداد (٢٥) والبحرين ومسقط واوهايين والقواسم وانخ (٢٦) .

وقد غطت تلك المعلومات فعاليات القبائل العربية في الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر . والنشاط الفرنسي في الخليج خلال حروب الثورة الفرنسية ونابليون والصراع الانكليزي الفرنسي في العراق وفارس ومنطقة الخليج العربي والعلاقات البريطانية مع القوى المحلية (حكام فارس وباشا بغداد والامير السعودي وسلطان مسقط ورؤساء القبائل العربية) (٢٧) .

كما انها تغطي بشكل مفصل جدا ذلك الصراع الطويل والمرير بين البريطانيين والقواسم الذي استغرق اربعة عشر عاما (من عام ١٨٠٥ الى عام ١٨١٩) وتطلب الامر ارسال ثلاث حملات بحرية وبرية انكليزية كبيرة الى الخليج العربي . الاولى في عام ١٨٠٥ والثانية في عام ١٨٠٩ - ١٨١٠ والثالثة في عام ١٨١٩ (٢٨) .

لقد اجبرت هذه الحملة الاخيرة رؤساء القواسم على القاء السلاح واضطروا الى توقيع معاهدات مع البريطانيين ألزموا بموجبها بانهاء حالة الحرب وبعدم التعرض للسفن الانكليزية في الخليج العربي وفي كانون الثاني عام ١٨٢٠ وقع جميع رؤساء القواسم على ما سمي « بالمعاهدة العامة » جعل البريطانيون أنفسهم بموجبها مسؤولين عن حماية الامن في الخليج وحكما بين قبائله . ودفعت بريطانيا في السنوات التالية بقية رؤساء القبائل العربية الى توقيع تلك « المعاهدة العامة » وتغطي سجلات القسم السياسي والسري جميع هذه الجوانب السياسية والعسكرية من ذلك الصراع وتلك التسويات (٢٩) .

سجلات مديرية بومباي (القسم السياسي والسري) بعد عام
١٨٢٠ :

ابطل نظام اليوميات في عام ١٨٢٠ ، ولم يعد المجلد الواحد في القسم
السياسي والسري يضم موضوعات عديدة كما كان سابقا . بل افرد مجلد
خاص لكل موضوع ذي شأن وغالبا ما يكون مجلد واحد لكل عام ولكن
كثيرا ما يكون للموضوع المهم أكثر من مجلد واحد خلال العام . وقد
سنت الموضوعات الخاصة بالعراق والخليج العربي تحت عناوين كثيرة
منها الخليج العربي ، البصرة ، بغداد ، العراق التركي ، البحرين ،
الوهابيين ، رأس الخيمة ، فارس ، تجارة الرقيق ، الاسلحة والنج .

ويجد الباحث أوسع المعلومات وأغزرها في هذه المجلدات الخاصة
بكل قطر من اقطار الخليج العربي والمتعلقة بكل موضوع من
مواضيعه (٣٠) .

وقد يقال بشيء قليل من التردد ان هذه الثروة من المعلومات المتصلة
بكل جانب من جوانب النشاط الانساني - السياسي والاقتصادي
والاجتماعي قد لا يكون لها مثيل في أي دار من دور الوثائق في العالم
وفي أي مكتبة فيه .

فبالنسبة للعراق توجد هناك اثنان وثلاثون مجلدا جاءت تحت عنوان
« العراق التركي Turkish Arabia » (٣١) وخمسة وأربعون
مجلدا وردت تحت عنوان « رسائل البصرة Bussora Despatches » (٣٢)
وثلاثون مجلدا بعنوان رسائل بغداد « Bagdad Despatches » (٣٣) ،
وهناك عدد من المجلدات وردت بعناوين أخرى منها حملة الفرات
Euphrates Expeditions ومنها « بواخر الفرات Euphrates Steamers »
وحملة النهروان Nahrawan Expeditions (٣٤)

سجلات البعثات واللجان والمعاهدة الخ :
Particulars of Records of Missions Committees, Institutions
etc.

وفي هذا الصنف من السجلات نجد بعثتين تخص منطقة الخليج
العربي وهما :

١ - بعثة الخليج العربي Persian Gulf Mission

٢ - بعثة بغداد Bagdad Mission

١ - بعثة الخليج العربي : وقد دوت وقائع هذه البعثة في مجلدين
يحملان رقم ٢٨٣ ورقم ٢٨٤ . وكانت مديرية بومباي قد ابتدأت في عام
١٧٧٥ كاردن الى الخليج العربي لتسوية الخلافات بين كريم خان
والبريطانيين . وكانت قد توترت العلاقات جدا بين الفريقين خلال السنوات
القليلة الماضية وكاد ان يؤدي الامر الى حرب شاملة بين الطرفين خاصة
بعد ان تعرض حلفاء كريم خان الى السفن الانكليزية في الخليج العربي
وأُسروا من فيها واحتفظوا بهم رهائن في شيراز .

لقد وصل كاردن الى بوشهر في نيسان عام ١٧٧٥ وبدأ فوراً
مفاوضات مع السلطات الفارسية . ونجح كاردن في حمل الفرس على
اطلاق سراح المحتجزين البريطانيين وعلى التعهد بحماية الممتلكات
البريطانية في البصرة في حالة احتلالها من قبل الفرس وكانوا يحاصرونها
في ذلك الوقت . كما تم الاتفاق على إعادة فتح المقر التجاري البريطاني
في بوشهر وكان قد اغلق قبلاً (٣٦) .

٢ - بعثة بغداد :

وهذه هي رحلة السرهارد جونس الى بغداد وتقع في ثمانية
مجلدات (مجلد رقم ٣٠٠ الى مجلد رقم ٣٠٧) (٣٧) . وكان الغزو
الفرنسي لمصر قد أدى الى ردود فعل كثيرة لدى البريطانيين ومن ردود

الفعل لتلك القرار الذي اتخذ في عام ١٧٩٨ بفتح مقيمة بريطانية في بغداد وكان الهدف منها تأكيد النفوذ البريطاني في هذه المدينة والحفاظ على العلاقات الطيبة مع الباشا ومقاومة النفوذ الفرنسي .

وفد. تم الاتفاق بين الحكومة البريطانية وشركة الهند الشرقية الانكليزية على اختيار هارفرد جونز ليراس المقيمة ودونت وقائع تعيينه ووقائع ادارته لتلك المقيمة خلال فترة مكوثه في بغداد (١٨٠١ - ١٨٠٧) في تلك المجلدات الثانية . وبالإضافة الى ذلك فهي تحوي معلومات محلية كثيرة .

ولعل أهم ما فيها نسخ الرسائل المتبادلة بين هارفرد جونز وانباشا وغيره من الرؤساء المحليين . ومراسلاته مع السفير البريطاني في اسطنبول ومع الممثل البريطاني في طهران جون مالكونم ومع المقيم الانكليزي في البصرة مانوئيل مونستي^(٣٨) وهي بهذا سجل حافل لجزء مهم من النشاط الدبلوماسي الذي شهدته المنطقة خلال تلك السنين الدقيقة والحافلة بالاحداث .

مختارات مطبوعة من سجلات بومباي :

والذي يهنا من هذه المختارات المطبوعة جزئين احدهما عن العراق والآخر عن الخليج العربي اما الجزء الخاص بالعراق فهو عبارة عن مجموعة من البحوث الشيقة للغاية كان قد اختارها وجمعها ضابط البحرية الهندية جيمس فلкс James Felix ونشرت تحت عنوان : Memoirs وهي ٥٠٠ صفحة^(٣٩) . وتحتوي اكثر البحوث على خرائط واشكال ملونة جميلة .

أما البحوث التي ضمنها هذا المجلد الشين فهي :

Steam-trip to the North of Baghdad, in April 1846; with notes
on various objects of interest en route

Journey for the purpose of determining the tract of the ancient Nahrwan Canal, undertaken in April 1848; with a glance at the past history of the territory of the Nahrwan.

Journey to the Frontier of Turkey and Persia, through a part of Kurdistan.

Researches in the vicinity of the Median Wall of Xenophon, and along the old course of the river Tigris; and discovery of the site of the ancient opis.

Memoir on the Province of Baghdad.

Notes on the Topography of Nineveh, and the other cities of Assyria; and on the General Geography of the Country between the Tigris and the Upper Zab. (1857).

Memoir on the Ruins of Babylon, by William Beaumont Selby, Commander, Indian Navy, and Surveyor in Mesopotamia, with plans (1859).

اما تلك المختارات المضبوعة والخاصة بالخليج العربي فتشتمل على بحوث قيمة جدا تخص عمان وقبائل العنوب والجواسم والبحرين والكويت وعلاقات البريطانيين بقبائل الخليج العربي وجدول باهم الاحداث السياسية الخاصة بمسقط والقبائل العربية ابتداء من ١٧١٦ والى عام ١٨٤٣ ومعلومات وتقارير متنوعة اخرى (٤٠) . واعل هذه المحتويات تمثل أقدم وأوسع البحوث الخاصة بمنطقة الخليج العربي .
الاحاطة بها جميعا نورد عناوينها :

Information connected with the possessions, Revenues, Families, etc., of the Imaum of Muskat; the Ruler of Bahrein; and the Chiefs of the Maritime Arab States in the Persian Gulf.

Historical sketches of the Joasmee, Uttubi, Wahabi, Beni yas, Bee felasa, Ejman and Amulgavine tribes of Arabs, from the year 1716 to the year 1853.

Memoir descriptive of the navigation of the Gulf of Persia; accompanied by brief notices of the manners, customs,

religion, commerce, and resources of the people inhabiting its shores.

Historical and other information connected with the province of Oman, Muskat, Bahrein, and other places in the Persian Gulf.

Report on the Island of Kenn, on Bassadore; the Harbcur of Grane; and the Island of Pheleechi.

The rise and progress of and past policy of the British Government towards, the Arab tribes of the Persian Gulf; their resources, localities, etc.

Chronological Table of events from 1716 to 1843 connected with the Government of Muskat and the Arab Tribes of the Persian Gulf.

Rise and progress of the Government of Muskat; and miscellaneous information connected with that Government, from 1694 to 1853.

Treaties, engagements, etc. with the Imaum of Muskat, etc.
Notes of a visit to Zanzibar in the year 1834.

المراجع

(١) سبق للباحث أن كتب بحثاً بعنوان « مصادر تاريخ الجزيرة العربية في دار السجلات الحكومية في بومباي » قدمه الى الندوة العالمية الاولى لتاريخ الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في ربيع عام ١٩٧٧ م . ويحاول الباحث تجنب تكرار ما ورد في ذلك البحث ، لذا يفضل الرجوع اليه لاتمام النائدة علما بأنه في مرحلة الإعداد للنشر في مجلة المؤرخ العربي عدد ٥ .

(٢) للاطلاع على المزيد من تاريخ الخليج العربي خلال هذه المئة والخمسين عاما انظر ج.ج. لورمو : دليل الخليج : طبعة جديدة معدلة ومنقحة ، ج ١٠ .

(٣) نفس المصدر ج ١ . ص ٢٠ .

(٤) للاطلاع على المزيد من تاريخ الخليج العربي خلال هذه الفترة انظر الدكتور عبد الامير محمد امين : المصالح البريطانية في الخليج العربي ١٧٤٧-١٧٧٨ منشورات مركز دراسات الخليج العربي (١٤) ، بغداد ١٩٧٧ .

(هـ) نفس المصدر .

6) See Guide to the Records in the National Archives of India, Part I (Introductory), National Archives of India, New Delhi 1959, p. 10.

7) V. G. Digha, Descriptive Catalogue of the Secret and Political Dept. Series 1755-1820. Bombay: 1954.

(أ) البوميات سجلات دون ممثلو الشركة فيها كل المراسلات المتبادلة بين بعضهم البعض وبين مدراء الشركة في لندن وبينهم وبين الحكام المحليين . كما سجلوا فيها المناقشات والمشاورات التي تجري في مجلس المديرية ومجالس الوكالات والقرارات التي تتخذ تبعاً لذلك . واعتاد ممثلو الشركة تدوين كل ما يقع لهم ، وما يقع في المنطقة التي يقيمون بها من أحداث في يومياتهم وكثيراً ما كتبوا في تلك اليوميات أنباء وأخباراً تطرقت إلى سمعهم في أماكن بعيدة نسبياً من أماكن إقامتهم .

9) Bombay Government Records, Bussora Factory Diaries vol. 193.

وانظر الملحق رقم (١)

10. Bussora Factory Diaries Vol. 194.

11) » » » » 195.

12) » » » » 196.

13) » » » » 197.

14) » » » » 198.

15) » » » » 199.

16) A. F. Kindersley, A Handbook of Bombay Govt. Records, Bombay: 1921.

ان هذا هو الدليل الوحيد الشامل لسجلات بومباي وهو غير وافي بالغرض ومليء بالأخطاء ويتميز بعدم الدقة والمعلومات التي اوردها عن مقيمة البصرة ، بشكل خاص : مرتبكة ولا تتفق مع واقع تلك السجلات ، انظر ملحق رقم (٢) .

(١٧) انظر على سبيل المثال يوميات مقيمة البصرة المجلدات ٢٠٤ ،

٢١١ : ٢١٠ .

18) Bombay Government Records, Outwards or order books vol. 39.

19) Ibid., Outwards or Orderbook, vol. 35.

20) Ibid. Gombroon Diaries, vol. 112-115.

21) Ibid. vols. 113, 115, 116.

وفي مجلد رقم (١١٣) معلومات كثيرة عن حالة الفوضى التي كانت سائدة في أواخر عهد نادر شاه وعن نشاط النشاة العربية في الأماكن المجاورة لبندر عباس ، ولعل امتنع ما فيه وصف دانفرز كريفر لمعسكر نادر شاه في كرمان .

وكان كريفر مقيما للشركة في (كرمان) وحدث ان زار نادر شاه هذا المدينة في أوائل عام ١٧٤٧ وأقام له ممسكرا فيها . وكلف كريفر من قبل رؤوسائه بالذهاب الى ممسك نادر شاه وتقديم التماس الى الشاه بشأده فيه رفع الحنف الذي نزل بتجارة الشركة وفعل المقيم ذلك وحصل من الشاه على الامتياز وصف بأنه خير ما حصلت عليه الشركة خلال كل تاريخها الطويل . ولكن اتضح بعد أيام ان نادر شاه لم يكن في وضع اعتيادي ولم يكن يدري ما يفعل وما يقول وقد بلغ حدا من القسوة والعنف لم يسبق له مثيل . لقد ترك لنا كريفر وصفا دمتعا للغاية لنادر شاه قبيل اغتاله وجاء هذا الوصف يوما بيوم وساعة بساعة وبأسلوب رائع وصغير إلى أبعد الحدود .

23) Bombay Government Records or Order books, vol. 31; Inwards or Letter books vol. No. 40.

(٢٤) كان القسم السياسي والسري قد انشء في عام ١٧٥٥ على اثر الصراع بين البريطانيين والأهواء الهنود واحتمال تجدد الحرب مع الفرنسيين في الهند . وفي عام ١٨٠٩ فصل الى قسمين مستقلين هما القسم السياسي والقسم السري . وعولجت قضايا الخليج في القسم السياسي حتى عام ١٨١٨ وفي العام المذكور تحولات هذه القضايا الى القسم السري بعد القرار الذي اتخذ بإرسال حملة بريطانية ضد القواسم . واستمر الوضع الى عام ١٨٢٣ حيث أرجع الى القسم السياسي وبقي كذلك حتى عام ١٨٢٧ . وعلى اثر تحرك المصريين والمشاكل مع الفرس . اعتبرت قضايا الخليج العربي خلية فنقلت الى القسم السري حتى عام ١٨٤٣ . وبعد هذا العام عولجت قضايا الخليج بشكل عام في القسم السياسي ، ما لم تكن تخص العلاقات مع فارس والدولة العثمانية والقوى المحلية في الخليج العربي ، والتي تتميز بأهمية خاصة فانها عولجت بالقسم السري .

(٢٥) انظر الملحق رقم (٣) القسم الخاص ببغداد والبصرة .

(٢٦) انظر ملحق رقم (٣) القسم الخاص بالبحرين ومسقط والوهابيين والقواسم .

(٢٧) نفس المصدر .

(٢٨) انظر ملحق رقم (٣) خاصة ذلك الجزء الخاص برأس الخيمة .

(٢٩) نفس المصدر .

(٣٠) انظر ملحق رقم (٥) والمجلدات الخاصة بالبحرين ومسقط ،
وبوشهر وفارس وتجارة الاسلحة ورأس الخليج العربي ، والقبائل
العربية ، والقرصنة .

Turkish Arabia (٣١) انظر المجلدات الواردة تحت اسم

Russora Despatches (٣٢) انظر المجلدات الواردة تحت عنوان

Bagdad Despatches (٣٣) انظر المجلدات الواردة تحت عنوان

Euphrates Expeditions (٣٤) انظر المجلدات الواردة تحت عنوان

والمقصود بالحملة هو حملة استكشافية وليست عسكرية .

25) See Bombay Government Records: Particulars of Records of Missions, Committees, Institutions etc. Persian Gulf Mission, vols. 283 - 285.

(٣٦) نفس المصدر .

37) Ibid. Bagdad Mission, vol. No. 300-307.

38) Ibid.

39) Bombay Government Records, Memoirs by Comandes Jones Felix, connected with Bagdad, Nahrawon Canal etc. Bombay: Education Society Press: 1857.

3857
أما الرقم الذي يطلب به فهو $\frac{3857}{9}$ أما تلك الأرقام التي وردت في

Kendersley فلا يمكن ان تساعد في هذا المجال .

40) Bombay Government Records, Miscellaneous Information Connected with the Persian Gulf, Bombay: Education Society Press: 1856.

3306
أما الرقم الذي يطالب به فهو $\frac{3306}{1}$ أما تلك الأرقام التي وردت في

فلا يمكن ان تساعد في هذا المجال .

توينبي

الأستاذ الدكتور هجراد علي
بمبار

امتاز توينبي عن نظرائه من مؤرخي التاريخ الحضاري العالمي
بميزتين بسعة علمه بمفردات تاريخ العالم ، وبقوله الحق ودفاعه عنه فيما
يثبت عنده انه الحق .

وتتجلى الميزة الاولى في هذا السيل المدون في متن كتابه (١) وفي
حواشي صفحاته بالاستشهاد بالحوادث والنقول التي اقتبسها من موارد
لا يعرفها عادة الا اخصاب الاختصاص ، وبالملمه بالقضايا الفرعية والجزئية
الدقيقة من تواريخ شعوب العالم واستخدامه اياها في دراسته المقارنة
للحضارات وفي مقابلاته بينها ، مقابلة لا اعرف لها مثيلا في كتب غيره من
المؤرخين المشتغلين بدراسة الحضارات وبنائها « Kulturmorphologie »
« Culturemorphology » فأنت اذا قرأت كتاب « افول الغرب »
« Der Untergang des Abendlandes » (٢) للمؤرخ الفيلسوف
« اوسوالد شبنكلر » « Oswald Spengler » وهو في بنيات
الحضارات وفي ادوار حياتها وتركيبها وقارنته بكتاب توينبي وهو صنوه
في هذا الموضوع وفي تأثيره في الناس ، تجد البون بينهما شاسعا جدا
في قضية المادة التي عرضها توينبي لتأييده رأيه ، وفي وقوفه على كنه ما
أورده من أمثلة واقتباسات واسماء تجدها منشورة في المتن وفي حاشية

(١) صدر في اثني عشر جزءا ، طبع الجزء الاول منه سنة ١٩٣٤ م .

(٢) صدر الجزء الاول منه سنة ١٩١٨ م ،

كل صفحة ، بصورة مذهلة أثارت دهشة جميع قراء الكتاب ، بما فيهم نقاده (١) وأقر الجميع بسعة علمه المدهش بتاريخ العالم •

اما ميزته الثانية ، فتظهر لك في نزعة الانسانية وفي اخلاقيته المتجلية من الانسان على أخيه الانسان منذ أقدم الايام الى يومنا هذا ، وفي سخريته من هذا الغرور حصل الانسان على تسخير ابداع وأسسى ما اعطى وهو عقله في خدمة حماقاته بالعمل منذ نشوئه على توسيع وتعقيد أجهزة الحرب التي خلقها بيده ، لتدمير ما خلقه الله وما خلقه الانسان بنفسه ، بدلا من ان يستخدمه في خدمة الانسانية وفي تطويرها نحو حياة أفضل ، وفي العمل على نشر مبادئ المحبة والتعاون بين الناس والترويج لمبادئ الحياة المسالمة والاخوة المؤدية الى تكوين عالمية تزيل عن بني الانسان الافكار الغرورية التي تولدت عنده من تقدمه التقني الهائل ، ومن صرفه هذه البلايين من الدولارات التي يجمعها من مجهود البشر ، على قنابل يهدد بها ضعفاء الناس ، بدلا من ان يعرفها على المحتاجين من الناس لرفع مستواهم وعلى مساعدة الشعوب الضعيفة لرفع مستواها معاشيا وعلميا وتقنيا •

ولما نشر « برتراند رسل » كتابه « Has Man a Future » أي «هل للانسان مستقبل؟» علق عليه توينبي في جريدة « Sunday Observer » (٢) تعليقا وصف فيه جيلنا هذا بـ « الجيل المجرم » وقال فيه ان رغبتنا في القتال ترسبت من العصور الخالية حين كان الانسان يقاتل الوحوش حتى يكتسب لنفسه البقاء ، ولما أصبح سيد هذه الوحوش أخذ يشبع عادة القتال في حرب يحارب فيها الاخ اخاه ، انها عادة قديمة وشريرة ، بيد ان من الممكن تغيير العادة اذا صمم الانسان على بذل المجهود الاخلاقي

(١) Y. J., Renier, History its Purpose and Method, p., 216, R. G. Collingwood, The Idea of History, pp., 181, 223, 225, 264.

(٢) عدد الاحد يوم ٢٦ تشرين الثاني من سنة ١٩٦١ م ، وقد عرّب الكتاب ، عرّبه سمير عبده ونشره سنة ١٩٦٩ .

المطلوب ، ان جيلنا يدرك ان علينا في عصر الذرة ان نعالج غرورنا من عادة شن الحرب اذا اردنا بقاء الانسان . ولكننا لا زلنا منذ انتهى القاء قنبلة هيروشيما نقول بويلات الحرب الذرية . ثم لا نزال نقرر على المواطنين لنذخر المال في سبيل اكنشافه فتابل تكون أشد فتكا بالانسان من تلك القنبلة .

ومن حماقات هذا الانسان وبربريته تصوره انه على منازل ودرجات ، وان الله قد خلقه متفاوتا في القابليات وفي العقل ، وهي حماقات قديمة . لا تزال تعيش وقد حمل عليها توينبي وعددها بربرية وثنية ، تعيد الانسان الى هيجيته الاولى ، فسخف رأي « كوينو » « Count de yobineau » القائل بتفوق الانسان « الآري » ولا سيما « النوردي » أي الشمالي منه على بقية الشعوب (١) . وبعدم تكافؤ الاجناس البشرية وسخر من رأي « هوستن ستيوارت شبرلين » « Houston Stewart Chamberlain » الانكليزي المتجر من الذي أخذ برأيه « كوينو » في كتابه : « أسس القرن التاسع عشر : Die grundlügen des 19 Jahrhunderts » ١٨٩٩ م . وجعل الحضارات حاصل عمل « الرمن » « Race » والرس درجات . اعلاها الجرمان : « الجنس المختار » . والجنس النوردي خالق الحضارات الاصلية (٢) ومهد بذلك للنازية مثامها « Weltanschauung » التي تجسست في شهادة ايمانها التي يجب ان يعمل بها كل نازي هي شهادة ال « Blut und Boden » (٣) أي الاعتقاد بشرف « الدم والارض » والدم هو الرس الجرمانى والارض تربة الوطن ، أرض الجرمان . وهي فلسفة اقرها « هتلر » في انجيله « Mein Kampf » « كفاحي »

(1) Toynbee, A study of History, Vol. 7, p. 49, 8, p. 81, p., 429, 437, Abridgement, by somerwell, vol., 1, pp., 216.

(2) Schmidt, Philosophes Worterbuch, S., 95

(3) Schmidt, S., 83.

كتاب النازية المقدس ، وعمل فيلسوفه : « ألفريد روزنبرك »
 Alfred Rosenberg على نشرها بين الألمان في كتابه :
 « Der Mythos des 20 Jahrhunderts » اسطورة القرن العشرين ،
 وفي مؤلفاته الأخرى التي نادى فيها الى تقديس الرس ، واحياء تراثه ،
 وابقائه صافيا نقيا ، ونادى مع من نادى قبله بفصل العنصر الجرمانى عن
 العناصر الأخرى حتى تم ذلك بإصدار قوانين الفصل العنصرى المعروفة
 بقوانين نورنبرك لحماية الدم الألمانى وشرف الدم المقدس ، وبجمع شمله
 من كل مكان بضمه الى أرضه ، التي فيها مجال حياته ' Lebens Raum
 وبضم كل ما يعده الألمان أرضا المانية اليهم « Anschluss » وانتوجه
 نحو الجبهة الشرقية بصورة خاصة : « Drang nach dem osten » *

وبين هذه الديانة التي تدين بالعنصرية ^(١) ، وبوثنية القرن العشرين ،
 وبالبربرية الجديدة كما نعتها المؤرخ « توينبى » ^(٢) وبالأجرامية ، ليقتلها
 اليهود ^(٣) ، وبالفصل العنصرى المتجلى في قانون نورنبرك ، وباعمدة
 العقيدة الأخرى التي حرمتها الجلفاء بعد الحرب العالمية الثانية ، وبين
 الصهيونية المتحكة اليوم في السياسة الدولية نسب وصلة بل هي في
 الواقع « نازية » اليهودية ، تقول بالرس ، وبالدين وبالتربة وبالفصل
 العنصرى ، وبالتوسع لآحياء الـ « Lebens Raum » التي هي
 « إسرائيل الكبرى » « من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » ^(٤) ،
 عرضا ، ومن الجنوب الى مدخل حماة « وجميع لبنان جهة مشرق الشمس

(1) A Study, Vol., 8, pp. 288, 576, 604, 9, 437.

(2) A Study, Vol., 8, pp., 13, 81, Vol., 9, p., 450.

(3) A Study., Vol., 8, 288.

(٤) التكوين ، الأصحاح الثالث عشر ، الآية ١٤ ، الأصحاح ٢٨ ،
 الآية ١٢ ، الأصحاح الخامس عشر . الآية ١٨ ، الأصحاح الثاني عشر ،
 الآية ٢٧ الأصحاح ٢٥ ، الآية ١٠ وما بعدها الخروج ، الأصحاح السادس ،
 الآية ٢ وما بعدها الأصحاح السابع عشر . الآية ١ وما بعدها .

من بعل جاد تحت جبل حرمون الى مدخل حماة (١) ، مع طرد كل الساكنين بهذه الارضين لان الرب قال : « سأطردهم من وجه بني اسرائيل ، وانت تقسمها بالقرعة لاسرائيل ميراثا كما امرتك (٢) »

يتحدث الصهاينة في الوقت الحاضر عن حدود آمنة ، وهي حدود لا حد لها في المستقبل ، ما دامت اسرائيل هي دولة فوق الدول . تسير اميركا حسب مشيئتها ، فيقول « بن كوريون » في مقدمته عام ١٩٥٤ لكتاب : « تاريخ الهاكناه » ، في الوقت الحالي نتحدث عن الاستيطان ، وعن الاستيطان وحده ، لكننا سنقول للمغرب : ابتعدوا ، فليس في بلادنا مكان الا لليهود ، فاذا لم يوافقوا فسنبعدهم بالقوة وفي آب سنة ١٩٦٧ ، صرح موسى دايان . اننا اذا كنا نمتلك الكتاب المقدس ، واذا كنا نعتبر أنفسنا شعب الكتاب المقدس ، فان علينا بالمثل ان نمتلك ارض الكتاب المقدس (٣) ، فلا بد اذن من التوسع التدريجي كما فعل هتلر من قبل ، ولا بد من خلق اسرائيل الكبرى ، ولا بد من التوسع ومن التدخل في شؤون الدول الاخرى لحملها على اخراج يهودها للنزوح الى اسرائيل .

ونرى « ليفي اشكول » رئيس وزراء اسرائيل السابق ، يقرر ان كل يهود العالم في « الشتات » أي خارج اسرائيل ، هم مواطنون اسرائيليون ، وتحت رعاية وحماية اسرائيل وهذا مسا آثار تائرة اليهود الاميركان الذين يعيشون في الولايات عيشة يحسدها عليهم الاسرائيليون (٤) ، وجعل وزارة الخارجية الاميركية توضح موقفها من هذا القرار الذي يعرض اخلاص اليهود في العالم لأوطانهم الى الامتحان ، ويهدد العرب في أرضهم (٤) .

(١) التثنية ، الاصحاح الاول ، الآية ٦ وما بعدها .

(٢) سفر بشوع ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية الاولى وما بعدها .
سفر القضاة ، الاصحاح الثالث ، آية ٣ وما بعدها .

(٣) روجيه جارودي ، « عن الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية » ، بحث القاه ببغداد .

(٤) Levi Eshkol, Israel & the Diaspora, Issues, Winter, 1965-66

pp., 13.

ولهذه العقيدة المشتركة ، عدها قوم من اليهود من صنيع النازية^(١) ، فالعوامل التي خلقت النازية هي نفسها العوامل التي عملت على خلق الصهيونية ، وعلى رأسها الشعور بالقومية المتطرفة ، وبالجنس الخاص المختار^(٢) : فنادت بغربة اليهود عن الأقوام التي يعيشون بينها ، وشجعت على ظهور اللاسامية وعلى اثارها ، لحمل اليهود على مغادرة ارض الشتات « Diaspora » الى ارض فلسطين^(٣) ، واشتركت وتعاونت مع النازيين في اخراج اليهود من المانيا وهذا ما كان يريده الالمان ، للتخلص منهم ، ولأخراج البريطانيين بذلك ، اصحاب الانتداب على فلسطين ، بل اتهم بعضهم مثل « كستنر » « Kastner » وغيرهم بمعاونة النازيين في قتل اليهود^(٤) وقد اتضح بعد الحرب العالمية الثانية ومن الوثائق السرية ان جماعة من يهود المانية كانت تتعاون مع «هملر» رئيس ال « SS » « اس اس » في امور اليهود وفي خلق جو مرعب من اللاسامية يدفع اليهود على ترك المانية الى فلسطين ولن يسمح لي الوقت للدخول الى تفاصيل ذلك^(٥) ، وهكذا ساهم الصهاينة انفسهم بخلق اللاسامية لتحقيق هدفهم في خلق اسرائيل جديدة على نمط دنيوي لا يتفق مع تعاليم التوراة ، وقد عارض « اكودات يسرائيل » « Agudath Israel » وغيرهم من المتدينين الصهيونية لأن مملكة الله لا تكون باعمال الانسان بل بإرادة الله^(٦) وبالمسيح الموعود من نسل داوود ، فلما ظهر المسيح : المخلص زال الوعد المعطى في التوراة بظهوره وبعدم ايمان اليهودية به ، كما جاء

(1) The Zionist Wish & the Nami Deed, By Benyamin Matovu, in Issues, Winter 1966-1967, pp., 1.

(2) A Study, Vol., 8, pp. 290.

(3) A Study, Vol., 7, pp., 530, 579, 8, 274, Vol. 9, 24, Vol., 10, p. 322.

(4) Issues, Winter, 1966-1967, p., 1.

(5) Heimy Hohne, The Order of the Death's Head, pp. 305, 318, Helmut Krausnick, Martin Brosmat, Anatomy of the State, pp. 35.

(6) Study, Vol., 8, pp. 300, 600.

ذلك في الاناجيل ^(١) لأن الايسان به أبطل العهد بالختان ، وجعله في المحبة وفي القلب ، ختان القلب ^(٢) ، وعقيدة الشعب المختار عقيدة تذكرنا بنشيد النازية الذي حرم الحلفاء مطالعته Deutschland Deutschland uber alles المانيا فوق كل شيء في العالم لما فيه من نزعة القومية المتطرفة ، وهي عند توينبي من حاصل الانانية ويقول : « أنا لا أومن بأن الالهة . هو في نفس الوقت محب وقادر على كل شيء يفضل بعض ابنائه على بعض تفضيلاً يثير في نفوسهم الحسد والبغضاء ، ان هذا التمييز لم يصنعه الله » ، وانما يعود الى خطيئة عبادة الذات أي الأنانية والقومية وهو خطأ اخلاقي مثلما هو خطأ علمي ، و « أنا لا اعتقد بأن اليهود او الاسرائيليين البريطانيين هم شعب الله المختار ، وأنا لا أومن بالاحرى بأن اعادة اسكان اليهود في فلسطين هو الكمال الذي دأب على انجازه جميع التاريخ البشري منذ العقد الثاني من القرن السادس قبل الميلاد » ^(٣) وقد دأبت الكنيسة متأثرة بالتوراة على ان كل شيء في هذا العالم قد صنع من أجل الامة اليهودية ، كما قال ذلك « فولتير » في رده على الاسقف « بوسيه » في تاريخه عن العالم ^(٤) ، وهذه العقيدة هي سر تكتل اليهود واستعلائهم عن الغرباء الارجاس ، ونفور الغرباء منهم ، النفور المعروف باللاسامية .

وكما عارض توينبي النازية لعقيدتها البربرية ، عارض الصهيونية للسبب نفسه ، فانها بعقيدتها هذه صارت وريثة للتراث النازي ، فقد اجرت كما اجرم النازيون حين فصلوا اليهود عن المجتمع الالماني لعرقهم ، وساقوهم الى غرفة الغاز اما الصهيونية ، فقد شردت أكثرية أهل فلسطين

(١) رسالة القديس بولس الى أهل غلاطية ، الاصحاح الثالث ، اعمال الرسل ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٣ وما بعدها ، ٣٢ وما بعدها .

(٢) التثنية ، الاصحاح العاشر ، الآية ١٦ ارميا ، الاصحاح الرابع ، الآية ٤ .

(٣) آفاق عربية ، العدد ٧ ، آذار ١٩٧٦ م (ص ٢٤) نقل الاستاذ محمد توفيق حسين من كتاب تجارب (ص ١٣٥ وما بعدها) .

(٤) Emery Neff, The Poetry Of History, pp., 11. (٤)

هذه الارض من قبل مجيء اليهود مشردين الى فلسطين فيما قبل الميلاد ،
وشتت شملهم تشتيتا « Diaspora » فكأنها ارادت بذلك تمثيل دور
الذين شتتوهم قبل الميلاد ، وبدلا من ان تحاكي الصهيونية فعل معلمتها
النازية بادخال اهل فلسطين غرف الغاز استعملت البنادق والرشاشات في
قتل الفلاحين العزل حين عودتهم الى بيوتهم بدير ياسين وبغير هذا المكان^(١)
وشتت شمل عوائلهم فأثبتت بما فعلته مع أهل فلسطين وبمباغتتها للدول
العربية المجاورة لفلسطين انها ليست أقل شرورا من النازية في تصرفاتها وفي
سلوكها ، وقد اثبتت عصاة « اركون » « Irgun »^(٢) و « الهكانا »
و « شتيرن »^(٣) : ان سادتها قد اجادوا دروسهم التي تعلموها من
ال « اس اس » « SS » فرقة « هملر » رئيس « الكستابو » بارتكابهم
اعمالا فضيعة مع الفلسطينيين استبشعها عدد من اليهود مثل الفيلسوف
الفيزيائي « البرت انشتاين » وجماعة من كبار علماء اليهود وبينهم حملة
جائزة نوبل : فلما جاء نبأ قدوم « مناحم بيكن » « Menahim Begin »
رئيس وزراء اسرائيل الحالي ، الى الولايات المتحدة عام (١٩٤٨) ،
احتج هؤلاء العلماء على مجيئه ونشروا احتجاجهم في جريدة نيويورك
تايمس في اليوم الرابع من كانون الاول من سنة ١٩٤٨ ، لأنه اراهابي
وفاشي ونازي وله حزب سياسي يشبه في تنظيمه وأساليه وفلسفته
السياسية وتكوينه الاجتماعي الاحزاب النازية والفاغية ويتكون الحزب
من اعضاء ومناصري ايركون زوي ليومي ، وهي منظمة ارهايية يمينية
متعصبة قوميا ، وقد مزج في الاوساط اليهودية مزيجا من التعصب القومي
وأفكار التفوق العنصري ، والمثال على تصرف هذا الحزب ما جرى في
قرية دير ياسين من تقتيل ومن السير بالفلسطينيين اسرى في شوارع

(1) A Study, Vol. 8, pp. 290.

(2) A Study, Vol. 8, p. 290.

(٣) فلسطين ، جريمة ودفاع (ص ٩٠) .

القدس، لارعاب العرب وحملهم على ترك فلسطين والهجرة الى الخارج^(١).

و « بيكن » هذا الارهابي « Terrorist » الذي خجل اوائك
العلماء الكبار من مجيئه الى الولايات المتحدة لانه سفاك ، هو نفس
« بيكن » الذي دخل القصر الابيض ، باستقبال مهيب عاطفي من رئيس
الحكومة الاميركية السيد « كارتر » وقابل زعماء المجلسين ، مع انه
لا زال ارهابيا مصمم على اعتبار الضفة الغربية من ارض اسرائيل التاريخية
وعلى احياء مملكة اسرائيل الكبرى وعلى منع الفلسطينيين من استرداد
وطنهم ، والمجيء الى ديارهم ، وهم اهل البلاد قبل اليهود ، يجري كل ذلك
بينما تصر الولايات المتحدة على اعتبار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية
والمنظمة من الارهابيين وهي الام ، تسمح لنفسها بمصافحة الارهابيين ،
ذلك لأن لليهود كما هو معلوم نفوذ قوي في الولايات وعدد يزيد على
عدد يهود فلسطين بأكثر من الضعف ، ولهم نفوذ قوي هناك تحدث عنه
توينبي في مواضع متعددة من كتابه^(٢) .

كان تشكيل الوطن القومي لليهود للتخلص من الشتات ومن خطى
الاسامية اعظم حجة تمسكت بها الصهيونية في ادعائها بالوطن القومي ، ولما
صدر ما يسمى بوعد بلفور لم يهاجر الى فلسطين ما كان يتصوره الصهاينة ،
فأخذوا يستعينون بالوسائل المختلفة وفيها الوسائل السرية ، مثل الهجوم
على معابد اليهود والحيلة عليهم ، لحملهم على الهجرة ، والاتفاق مع
النازيين وعلى رأسهم « هتلر » على تهجيرهم الى فلسطين ومع ذلك فقد
بقي عدد كبير منهم في المانيا ، وبعد تأسيس الكيان الصهيوني بتدخل
شركة « فايرستون » بقي أكثر اليهود مع ذلك في الشتات ولم يتجنس

(1) The New York Times, 4 December 1948.

وقد استعنت بالنص العربي المنشور في (صفحة ١١) من مجلة
الف باء ، العدد ٤٦٠ من السنة العاشرة ، ١٢ تموز ١٩٧٧ .

(2) A Study, Vol. 8, p. 292, 303, 307, Vol. 9, p. 586.

منهم بالجنسية اليهودية الا الاقلية منهم ، تماما كما وقع في أيام « عزرا »
يوم أمره ملك فارس باخراج قومه من سبي بابل الى فلسطين ، فلم يخرج
منهم معه الا القلة وبقيت الكثرة في بابل وفي بقية الشتات (١) .

وتجاء هذا الوضع البغيض للصهيونية ، ستسعى الصهيونية العالمية
بكل وسائلها وامكانياتها كما نوه بذلك توينبي ايضا في مقال نشره في
نشرة « Issues » لصيف ١٩٦٠ ، الى خلق لا سامية جديدة تدبرها
هي بنفسها ، وتؤجر عليها رجالا من المرتزقة لاثارة الرعب بين اليهود
لحملهم الى الهجرة ، وجمع شتاتهم في فلسطين ، لتتمكن من احياء ارض
الجنس المختار (٢) ، فان من الاجرام ترك ما يزيد على ثلاثة ملايين يهودي
في مدينة نيويورك مع غنائم الهائل ، وفلسطين في حاجة اليهم وهذا ما
قاله « اخدهام » أحد زعماء الصهيونية في سنة ١٩٢١ م (٣) .

وتجاء مناقشة توينبي الصهيونية في موضوع الجنس المختار والزرع
المقدس ، وارجاعه هذه العقيدة الى خطيئة عبادة الذات ، لأن الخالق لا
يفضل بعض ابنائه على بعض تفضيلا يثير في نفوسهم الحسد والبغضاء (٤) ،
وتجاء قوله بتحجبي اليهودية بوقوفها حيث وقفت (٥) ، وبقوله بانتهاء وعد
الرب لابراهيم بظهور المسيح : يسوع الناصري (٦) وبما ذكرته من
امور رمي بالاسامية وبمعادات اليهودية (٧) ، وبعدم الفهم (٨) ونست

(١) راجع اسفار عزرا ، ونحميا Issues, Summer 1960,

(٢) راجع مقاله في Issues, Summer 1960, نشرة يصدرها المجلس
الاميركي لليهودية .

(٣) Judische Rundschau, 1921, Nr: 83, Alfred Rosenberg, Der
Staatsfeindliche Zionismus, 1938, S. 69.

(٤) توينبي ، Experiences, pp., 125.

(٥) أرنولد توينبي ، جريمة ودفاع (ص ١٥١ وما بعدها) .
A Study, Vol. 12, pp. 484.

(٦) Jewish Chronicle, 31 Oct., 1975.

(٧) Rahinowicy, O. K., Arnold Toynbee On Judaism & Zionism, (٨)
1974.

الصهيونية ان توينبي هو من اعدى اعداء الاسلامية بكل اشكالها من قديمة ومن حديثة ، حتى انه انتقد النصرانية لما ظهر منها من عداء نحو اليهود ، ولقولها بخطيئة اليهود في قتلها السيد المسيح ، وحصل على الاوربيين وغيرهم لتعصبهم على اليهود (١) : نست كل ذلك وغسلته لأنها ترى ان الناس احرار في مدح الصهيونية ولكن لا حق لأحد منهم حتى ان كان يهوديا من التعرض لها بالنقد ، لأن نقد الصهيونية هو عمل نازي ، معاد للسامية ومعاداة السامية جريمة حرما القانون الدولي ، وادخلت عدد ١ من مفكري اليهود الاحرار في عداد اللساميين (٢) ، وحكمت على « المجلس الاميركي لليهودية » The American Council for Judaism ومقره نيويورك بمعاداة اليهود لانه لا يقي الآراء الفلسفية القائمة على فلسفة القول بالرس والقومية وبالشتات وبعودة اليهود الى اسرائيل (٣) ، فليس اليهود رسا بالمعنى العلمي الاتروبولوجي (٤) .

وقد اتهمه « يا ماكوف هدتزوك » سفير الكيان الاسرائيلي في كندا بتحامله على الصهيونية ، وذلك بحواره معه في مدينة « مونتريال » وحاول السفير اظهار ان توينبي من المتحاملين على الاسرائيليين ومن المتعاطفين مع العرب ، وجرى في هذا الحوار كل المواضع التي أخذتها الصهيونية عليه ، وحاول باسلوب الدبلوماسية افحامه امام الناس ، فكان جوابه عليه جواب العالم الهادي الرصين (٥) .

والواقع ان توينبي كان كما قلت من أشد الناس عداوة للمعادين

(1) A Study, Vol., 8, pp. 281.

(2) Zionist & Anti-Semite, Issues, Spring, 1966, pp. 20.

(3) The Challenges of Freedom, In Issues, Summer 1935, pp. 16.

(4) Are Jews A Race ?, Issues, Winter 1961, pp. 34.

(٥) وقد نقلت هذه المحاوراة الى العربية بعنوان : فلسطين جريمة ودفاع ، تعريب : عمر الديراوي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦ م .

لليهود ، كما كان من أشد الناس كرها للظلم ، ولهذا ندد بمهاجمة بلاده
لمصر مع فرنسا واسرائيل سنة ١٩٥٦ م ، وعاب على قومه في سيرتهم
الاستعمارية ، وانتقد الولايات المتحدة لسياستها الامبريالية مع انها كانت
من المستعمرات في الاصل وكان من اللازم عليها مساعدة الشعوب
المستعبدة ودافع عن حقوق السود في الولايات المتحدة وعن الأفارقة ودان
تدخل الولايات المتحدة بفيتنام وبالمواضع الأخرى من جنوب شرقي آسيا،
فهو رجل انساني العقيدة ، يدين بالسلم ولا يقبل صدور الظلم من أحد .

ومن هذه العقيدة الانسانية دافع عن الفلسطينيين لا عن عداوة
للمسيحية وعن حب للعرب وانا متأكد من قولي هذا اعتمادا على اتصالي
به ومجالساتي معه في لندن وفي بغداد وفي الولايات المتحدة ، وما كان
في طبع توينبي النفاق والدجل فقد كان صريحا يجاهر بما يعتقد ولا ييالي
بأحد وقد كلمته في مخاصمة الصهيونية له لا سيما بعد ظهور الجزء
السابع والاجزاء التالية له من اكتاب فلم اجد منه ما يشير الى حنقه
على الصهاينة او ما يشير الى حقده عليهم ، فقد كان جوابه لي جواب
المؤمن الصادق في لهجته : لقد كتبت ما كتبت لأجل اثاره حقيقة ، او عن
كره وعداء ، او عن طمع في مال اكسبه من رواج الكتاب والذي هاجم
النازية مثلي وهاجم قومه وهاجم فرنسا وغيرها لا يصدر منه كره لليهودية
ولا يمكن ان يعادياها ، ولكن الصهيونية نازية في ثوب يهودي انها عبادة
جديدة تؤمن بالمثل التي اوجدت الديانة النازية وهي كما قال عنها بعد ذلك
في كتابه : تجارب استعمار اسرائيلي وجريسة بالاضافة الى كونه مفارقة
اخلاقية تنافي مفاهيم عصرنا « (١) .

(١) مقتبس من مقال الاستاذ محمد توفيق حسين ، المنشور في

مجلة : افاق عربية عدد (٧) لسنة ١٩٧٦ . (ص ٣٠) .

من هذه الروح الانسانية الضحية تظهر عظمة توينبي : نصير
الشعوب المظلومة لقد كان لدفاعه اثر مهم في رأي العالم لعلمه وملكاته
ولشهرته ، دافع تطوعا ، فلم يذكر اعداؤه عنه انه هاجم الصهيونية لأن
العرب شروه بالمال ولو علسوا ذلك لما سكتوا وانسا الذي اغراه على الدفاع
عن اهل فلسطين هو شعوره بأن المؤرخ يجب ان يكون في خدمة الحقيقة
والحق.



الرأي الطبي العربي بين الأصالة والتجديد

للمستاذ الدكتور مرسى محمد عرب
الإسكندرية

مقدمة

تتداعى أمام الباحث في موضوع الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد مجموعة من التساؤلات رأيت أن تكون مدخلا لهذا البحث الخاص بالتراث الطبي العربي باعتباره عنصرا من عناصر الحضارة العربية، وموقف هذا التراث من قضية الأصالة والتجديد .

وبادىء ذي بدىء فانه لا بد من تحديد العلاقة بين الجزء والكل ، أي علاقة الطب العربي بالحضارة العربية . فعلم الطب جزء من المعرفة الانسانية ، نشأ منذ بداية خلق الانسان ، ومن تراكم المعرفة الانسانية عبر العصور نشأت الحضارة ولا بد أن الانسان منذ ان سكن الأرض قد فكر في وجوده ، وتأمل ظاهرة الحياة والموت والمرض ، ثم أعمل عقله في الملاحظة والتجربة فحصل على معلومات بدائية في العلاج الذي أمكن اكتشافه فيما يحيط به من أعشاب ونباتات . ثم تجمعت المعلومات وتناقلها الناس عبر الأجيال حتى توفر بعضهم على مزيد من التأمل ثم ممارسة صناعة الطب والعلاج مكتشفين قواعد لهما وباحثين عن المسببات والعلل .

هكذا نجد ان الطب كان ولا يزال أمرا مرتبطا بالحياة والحضارة نشأ بقيامها ، وارتبطت علوم الطب بظواهر المعرفة الاخرى ، ولعل هذا

الارتباط كان أكثر وضوحا عندما كان العلم يمارس بطريقة موسوعية ؛
أي عندما كان على العالم أن يكون ملما بعلوم الفلسفة والآداب والتاريخ
والكيمياء والفلك والطب وغيرها معا ، ثم استلزم التوسع الهائل في كل
من هذه العلوم أن يمارس كل فرع منها بعد ذلك ممارسة مستقلة •

ثم تأتي هذه التساؤلات التي نحتاج اليها لتحديد معنى الاصاله
والتجديد فيما يتعلق بالتراث الطبي العربي ، ويجدر بنا أن نقسمها الى
قسمين : الأول يتعلق بالتراث الطبي من حيث تقييم ماضيه ، والثاني يتعلق
بقية هذا التراث في حياتنا الحاضرة والمستقبلية •

فالتراث الطبي العربي من حيث هو تاريخ يدفعنا للتساؤل عما اذا
كان الطب العربي أصيلا حقا ؟ وهل المقصود بالاصالة هنا أن يكون الطب
العربي نابعا من صميم وجدان الامة العربية التي أقامت تلك الحضارة
العظمى أم أنه كان دخيلا عليها أو منقولا عن غيرها من الامم ، ثم هل
تتعارض الاصاله مع التجديد بحيث لا يمكن أن يجتمعا معا في وصفنا
لتاريخ هذا التراث •

أما القسم الثاني الذي يتعلق بالحاضر والمستقبل فان معنى الاصاله
والتجديد بالنسبة للطب العربي باعتباره عنصرا من عناصر التكوين
الحضاري العربي يستدعي البحث عن ماهية الاصاله في هذا التراث ،
ذلك أن العرف السليم لدى كل أهل حضارة هو الإبقاء على كل ما هو
أصيل من تراثها والعمل على أحيائه والارتفاع به ، وهم على العكس من
ذلك لا يفعلون ذلك بما هو دخیل غث • والطب بوجه عام من علوم الحياة
المتجددة والمتطورة وقد يكون ما يصلح منه لزمان معين أبعد ما يكون
عن ان يجوز لزمان تال ، ومن ثم تنشأ الحاجة الى عملية تجديد لا
ينقطع •

هل نشأ الطب العربي أصيلا ؟

مما لا شك فيه ان الطب العربي شأنه شأن سائر الآفاق للمعرفة لم
ينشأ من فراغ ، بل كانت له جذورا استمد منها نشأته الاولى •

ولقد نشأ الطب العربي شأنه في ذلك شأن كل مظاهر الحضارة العربية الإسلامية مع قيام الدولة الإسلامية وفي محيط الأمة العربية ، غير أنه من الصعب أن نقول أن ذلك الطب العربي الزاهر الذي بلغ أوج عظمته كان هو التطور الزمني الطبيعي لذلك الطب البدائي الذي كان معروفا لدى العرب قبل الإسلام ، فلقد كان للطب العربي جذورا أخرى متعددة استمد منها عناصر حياته عن طريق النقل من طب الحضارات القديمة والمعاصرة وهي الطب المصري القديم والطب اليوناني وما كان معروفا لدى البابليين والآشوريين ثم الفرس والهنود والصينيين ، والحق أن الجذور المنقولة عن هذه المصادر كانت أقوى بكثير واخصب من تجارب العرب في الطب قبل الإسلام •

وفي ذلك يختلف الطب العربي مثلا عن الأدب العربي الذي تشل جذوره الأقوى ما كان متصلا بحياة العرب كمآثرها قبل الإسلام •

ومع ذلك فإنه ما من شك في أن الإسلام ذاته كان العنصر الحاسم في بداية تكوين التراث الطبي العربي . غير أن هذا الدور يختلف في مجال الطب باعتباره عنصرا من عناصر الحضارة العربية عن غيره من عناصر هذه الحضارة كالتشريع والفلسفة مثلا فهذه العناصر وجدت في الدين مورد لها الأساسي المباشر أما في الطب وغيره من سائر العلوم الدنيوية فقد كان للإسلام دوره العظيم بصورة غير مباشرة ، إذ إن قدرا هائلا من المعارف التي نقلها المسلمون عن غيرهم من الشعوب المختلفة ما كان يسكن أن يعبر عن طريق حركة هائلة للنقل والترجمة بدأت في ظل النهضة الإسلامية ثم ينصهر في بوتقة واحدة ، ويعاد تشكيله ، ثم يضاف إليه في مراحل تالية الكثير مما هو أصيل وخلق لولا مبادئ أتى بها الإسلام ورسخت مع نشأة الدولة العربية الإسلامية • واتسمت هذه

المبادئ نفسها بالاصالة . فقد قامت هي من صميم الأمة العربية ولم تكن منقولة عن أحد .

وهكذا يمكن القول أن الطب العربي نشأ منقولا بدرجة كبيرة ، غير أنه تم تشكيله ونما في التربة العربية ذاتها : تغذيه وترعاه مبادئ أصيلة دعا اليها الاسلام وتحميه تقاليد نابعة في داخل الدولة العربية ، حتى اذا استطاع بعد وقت قصير أن يعبر مرحلة النقل والترجمة الى مرحلة الخلق الاصيل حيث ابداع العلماء والاطباء العرب امكانيات هائلة من تجاربهم الشخصية أكثر من اعتمادهم على النقل عن سبقهم من الامم .

وعلى ذلك فاننا نرى أن معالجة قضية الأصالة في الطب العربي تستدعي البحث في اتجاهين :

الاول : هو دراسة عميقة لتلك التربة الصالحة التي سمحت باحتضان العلوم القديمة ثم بنمو الطب العربي ورعايته ، وذلك عن طريق القاء الضوء على المبادئ والتقاليد والقيم السائدة التي تكون في ظلها ذلك التراث الطبي العظيم الذي كان له أثره الواضح في قيام الطب الحديث .

الثاني : هو القاء الضوء على تلك الانجازات الخلاقة التي أضافها العلماء والاطباء العرب في فروع الطب المختلفة فاستحقوا بذلك أن توصف أعمالهم بالاصالة .

ومن ناحية أخرى فان معالجة قضية الاصالة بهدف البحث عما في تراثنا الطبي من أصيل يستدعي الحرص على احيائه ، دون غيره ما لم يعد يتفق من منطق التفكير العلمي والذي لا تقع في كثير أو قليل من التمسك به وبذل الجهد في احيائه — نقول ان هذا الجانب من البحث سوف يسوقنا مرة أخرى الى اكتشاف اصالة التقاليد العلمية العربية التي كما كانت هي الأساس المتين لبناء التراث الطبي في الماضي فانها أيضا هي التي ما تزال تصلح بعد احيائها ووضعها موضع الدراسة الدقيقة

لكي تكون المنطلق لحركة تجديد شامل في الطب العربي المعاصر ليس فقط لبلوغ مرحلة مسابقة ركب التطور العلمي بل لاستعادة مركز الريادة بين شعوب الأرض •

ولعلنا من هذه الدراسة أن نلتزم بأسلوب ومنهج طالما دعا اليهما الاستاذ الدكتور محمد كامل حسين أحد رواد البحث العلمي في التراث الطبي العربي من ضرورة البعد عن المبالغة التي شابت كثيرا من الدراسات السابقة ، أو أن تلوى الحقائق قسرا لتحقيق نزعة قومية عن طريق الاصرار مثلا على أن تكشف بالضرورة في علوم السابقين شيئا نجهله اليوم ، فلا يليق في رأيه بمؤرخي العلوم العربية ان يلتمسوا عند العلماء العرب ما يدل على أنهم فاقوا العلماء المحدثين . فان ذلك لا يستقيم مع منطق الامور ، اذ أن لكل علم قديم ملاحظات دقيقة وبه حقائق كثيرة كما أن به أيضا من خرافات البدائيين ما لا يستطيع الصعود امام تيار المعرفة والتقدم ، كما أن من رأي الدكتور محمد كامل حسين ان المؤلفات العربية ليست كلها سواء في أصالتها ، ومن ثم فانه لا بد من التدقيق في اختيار ما نعمل على احياؤه من هذا التراث ، فبعض المؤلفات العربية لم تزد على أن تكون مذكرات يدون فيها المؤلف كل ما يعن له أن يدونه مما يسمع ويقرأ ويعلم ، ومن هنا كان بعضها مجرد مجموعة من المعلومات المتناثرة التي لا تربطها وحدة في التأليف ، ولهذا فان نشر مثل هذه المخطوطات التي لا تزيد على كونها كشكولا وضعه المؤلف لنفسه قد لا يكون بذى جدوى للتراث العربي • ولا يصدق هذا بالطبع بالنسبة للمؤلفات ذات الموضوع المحدد ، المنسقة الخالية من التكرار والاضطراب •

أصالة التقاليد العربية :

كانت الدعوة الاسلامية هي المفجر الاول للحضارة العربية الاسلامية، ولقد دعا الاسلام الى الأخذ بالعلم بوجه عام بما في ذلك بالطبع ما يتصل بأمور الطب ، ولم يقف منه موقف العداء كما وقفت بعض العقائد

في بعض العصور ، بل رفع من قدر العلم والعلماء • ولعل في آيات القرآن الكريم أبلغ دلالة على ذلك فأول القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك ... » وفيه : « وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » • « ويرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » ...

وفي أحاديث الرسول الكريم حث للمؤمنين على طلب العلم : (غدوة في طلب العلم أحب الى الله من مائة غزوة) و (اطلبوا العلم ولو في الصين) وهو يكرم العلماء أبلغ تكريم فيقول : (يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء) و (موت قبيلة أفضل من موت عالم) ثم قوله : (لا خير فيمن كان من امتي ليس بعالم ولا متعلم) ..

وهكذا وجدت العلوم المنقولة من الحضارات القديمة الى الامة العربية. ذرعا ممدودة بالترحيب ، تباركها تعاليم الدين وسنة الرسول •

واستمرت رعاية الاسلام للعلم . ولم نسمع عن اضطهاد أصاب عالما في ظل الدولة الاسلامية لشأن من شئون العلم ، ويمكننا القول بوجه عام أن العمل بالشريعة الاسلامية وما أفضت اليه من اسلوب في الحياة وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض يكسب الانسان أسمى مراتب السعادة النفسية والجسمية والعقلية •

وعندما انتقلت ولاية الدولة الى الخلفاء كان هؤلاء حريصين على أن يكونوا أيضا حماة للعلم والعلماء ، فكانت قصورهم مراكز تشع منها الثقافة ، وكعبة يحج اليها العلماء ، وتعتقد فيها مجالس العلم • وقد بدأ ذلك بقصر معاوية وازدهر في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك في العصر الأموي ، ثم بلغ هذا التقليد العظيم ذروته في عهد الدولة العباسية ، وبخاصة في عهد المأمون ، الذي يعتبر عصره أزهى فترة تاريخ النهضة العربية ، فقد كان بلاطه يموج ، بجمهرة غفيرة من رجال العلم والأدب والاطباء والفلاسفة الذين شملهم جميعا برعايته •

وعندما انتقل ثقل الحكومات الى الممالك شبه المستقلة لم يكن حكام هذه البلاد في المشرق العربي او المغرب العربي بأقل حرصا على تلك التقاليد الموروثة من أسلافهم •

ثم ان الامراء والوزراء في الدولة الاسلامية كان لهم أيضا شغف بمجالس العلم ورعايتها ، ومن اشهر هذه المجالس مجلس الوزير ابن الفرات في عشرينات القرن الرابع الهجري ، ومجلس ابي عبدالله الحسين في سبعينات القرن نفسه • ولعلنا ان تتساءل بعد كل هذا هل كان يمكن أن تكون هناك أرضا أكثر خصبا لاحتضان العلوم وازدهارها من مثل هذا المجتمع الذي يحرص ولاية الامر فيه كل هذا الحرص على رعاية العلم والعلماء •

وفي ظل تلك النظرة السامية للعلم والعلماء اتفقت تقاليد العرب على احترام مهنة الطب باعتباره علما له أصوله بعد أن انفصلت ممارسته عما كان يخالفها قبل الاسلام من السحر والخرافات ، فارتفعت مكانة الأطباء الى أعلى المراتب ، ولم يستثن من ذلك من بقي منهم على غير الاسلام بل شملت هذه الرعاية العلماء والأطباء من مسلمين ومسيحيين ويهود على حد سواء ، فقد دعا الرسول الكريم الى التطبيب على يدى الحارث بن كلدة ، واستعان خلفاء بني امية بالأطباء أمثال « ابن أثال » الذي كان نصرانياً وكان طبيبا لمعاوية الذي كرمه وقربه ، وأبو الحكم الدمشقي وأبنة الحكم وحفيده عيسى ، وكان « ابن ماسرجويه » الطبيب المصري سريانيا يهوديا في زمن عمر بن عبدالعزيز ، أما خلفاء العباسيين فقد كرموا أطباء أسرة بختيشوع الفارسية الأصل ، كما اشتهر في زمنهم أيضا كثير من الأطباء غير المسلمين أمثال حنين بن اسحق ، يوحنا ابن ماسويه ، وقد بلغوا أسمى مراتب التكريم في زمانهم • وكان من الولاة العرب أيضا من اتخذ طبيب بلاطه من الأطباء اليهود ، كما فعل صلاح الدين الايوبي ، فنجح موسى بن ميسون الذي كان رئيسا للطائفة اليهودية في مصر ثم دخل في خدمة السلطان صلاح الدين • ولو لم يكرم الولاة المسلمون العلماء

اليهود لما نبغ منهم احد ، اذ ان كثيرا من الاطباء اليهود كانوا يلاقون الاضطهاد الشديد في أوروبا ولم يكن لهم حق الدخول في الجامعات حتى وقت قيام الثورة الفرنسية ، ولم يذكر التاريخ شيئا عن نبوغ أطباء من اليهود في أوروبا في العصور الوسطى بل وفي الجزء الاكبر من عصر النهضة .

لقد بلغ من تكريم مهنة الطب أن وصل ممارستها الى أعلى مراتب وظائف الدولة الى جانب اشتغالهم فكان منهم من ولى الوزارة - ولعل أشهرهم ابن سينا ، وبلغ بعضهم من الجاه والسلطان مبلغا عظيما ، ومنهم من ولى القضاء ببغداد أمثال القاضي ابن المرخم يحيى بن سعد الذي أصبح قاضي القضاة أيام الخليفة المقتضى ، وأفضل الدين ابو عبدالله الذي صار قاضي القضاة بمصر ، كما صار سعد الدين بن البطريق بطريركا بالاسكندرية .

ولقد سمحت تقاليد العرب للنساء بممارسة مهنة الطب والمداواة ، ولم يقف الدين ضد اشتراك المرأة في هذا العمل ، وقد جاء في تاريخ الاسلام الذهبي ان أم عطوة الأنصارية قالت « غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم وأخلفهم في رحالهم واداوي الجرحى وأقوم على المرضى » . وكانت رفيدة الأسلمية تداوي الجرحى في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبرعت زينب طبيبة بني أود في صناعة الكحلة ومداواة آلام العيون واشتهرت بذلك بين العرب وكانت أخت الحفيد ابي بكر بن زهر وابنتها علمت في صناعة الطب ومداواة النساء .

ومع أن الأطباء العرب مارسوا الطب الى جانب علوم الشريعة والفلسفة والكيمياء والصيدلة وغيرها . فقد عرفوا أيضا مبدأ التخصص في المعالجة ، ولعل المجال قد اتسع لذلك في ممارسة الطب داخل البيمارستانات ، حيث كان يقوم على كل قسم من أقسام البيمارستان أطباء متخصصون من الباطنيين أو الجراحين (الجراحين) أو الكحالين (أطباء

العيون) أو المجبرين (لعلاج الكسور) وغيرهم وكان اذا دعا الحال يدعى طبيب من قسم آخر غير القسم الذي فيه المريض لاستشارته •

ولقد كان من التقاليد التي استنها العرب ما يضمن أداء الخدمات الطبية للمجتمع على خير وجه ، بحيث يحاسب الأطباء ان أخطأوا عن جهل فاضح أو عمد ، ولعل أول صورة لذلك ما جاء في الحديث الشريف من تحديد لمسئولية الطبيب في قول الرسول صلى الله عليه وسلم (من تطب ولم يعرف عنه طب فهو ضامن) أي مسئول عن عمله محاسب عليه •• ثم بلغ تنظيم الرقابة على ممارسة مهنة الطب أوج عظمته في تقاليد الاجازة في الطب ، وفي نظام الحسبة على الاطباء والصيدالة ، فقد كان الأطباء في أول عهد الدولة الاسلامية يمارسون الطب بعد قراءته على أي طبيب من مشاهير الاطباء أو في كتب الأقدمين أو يمارسونه بالوراثة ويباشرون الصناعة بعد ذلك بغير قيود ، واستمر الحال على ذلك حتى نظم الخليفة العباسي المقتدر بالله هذه الممارسة اذ فرض على من يريد ممارسة الطب أن يؤدي امتحانا لاجازته ، وأمر بأن يكف عن ممارسة الطب جميع الأطباء الا من يمتحنه سنان بن ثابت ، وفي أيام الخليفة المستنجد بالله فوضت رئاسة الطب ببغداد الى أمين الدولة بن التليذ لامتحان المتطبين •

ولقد نظمت الرقابة على الأطباء والصيدالة ، وكان يقوم بها مأمورون يطلق على كل منهم (المحتسب) وهو الذي يأخذ على الأطباء عهد أبقرط ، وعليه أن يتأكد من أن الطبيب لديه جميع آلات الطب بما يلزم له في صناعته ، وان يمتحن الاطباء بما جاء في الكتب الطبية المعترف بها كل فيما يخصه • ونظمت أيضا عملية الحسبة على الصيدلة • بما يضمن أن يراقبوا الله عز وجل في عملهم •• وينبغي للمحتسب أن يخوفهم ويعظمهم بالعقوبة ويعتبر عليهم عقاقيرهم كل أسبوع •

واذا كان ابقرط هو الذي وضع العهد للطبيب بأن يلزم الطهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطب ، فقد التزم العرب في ممارستهم للطب

بأخذ هذا العهد على الأطباء غير أنهم أضافوا تقينا أوفى لآداب المهنة ،
يظهر جليا في ما جاء عن ابن رضوان من وصف خصال الطبيب من حسن
الخلق والملبس والطبع وسلامة العقل والقلب والعفة والنزاهة وغيرها
من كامل الصفات •

وإذا كان في كل ما سبق إشارة الى تقاليد الممارسة « التطبيقية »
للطب العربي التي ازدهر في ظلها هذا الطب ، فانه كان للعرب أيضا تقاليد
عظيمة في التناول « الأكاديمي » لشئون الطب بما مكن لهذا الطب من
أن يبنى تراثا خالدا ، وأصبحوا هم معلموا الطب لكافة الشعوب وانتشرت
مؤلفاتهم الطبية وبقيت لعدة قرون هي المصادر الأساسية للتعليم الطبي •

فكان التعليم الطبي الاكلينيكي يقوم على مشاهدة المرضى
والاستماع الى شكاواهم واستقصاء أحوالهم وزيارة منازلهم ، ولم يكتف
شيوخ الأطباء بتلقين علوم الطب لتلاميذهم من بطون الكتب ، وإنما
كانوا يقومون معهم بالمرور على أسرة المرضى بالبيمارستانات يفسرون
أحوال المرضى ويشيرون بالعلاج ، وتلك هي وسيلة التعليم الطبي السليم
حتى وقتنا الحاضر •

وكانت المناقشات العلمية أساسا أيضا من أسس التعليم ، فالسائدة
في حلقات المناقشة يجلسون وامامهم الكتب الطبية في قاعات ملحقة
بالبيمارستانات (المستشفيات) يتباحثون مع تلاميذهم ، وكان نظام
تقديم « رسالة » لمناقشتها تمهيدا لحصول الطالب على اجازة علمية من
ابتكار العلماء العرب • فكان الطالب يناقش في كل ما يتعلق بما في
رسالته من الفن ، فاذا أحسن الاجابة اجازه الممتحن •

وعرف العرب نظاما للمؤتمرات العلمية حيث كانت تعقد الاجتماعات
في « بيت الحكمة » ببغداد وهي التي أنشأها المأمون أو « دار الحكمة »
بالقاهرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله ، وكان على الطلبة والعلماء ان
يحضروا الى تلك الدور من شتى بقاع الأرض لحضور تلك الاجتماعات •

وفي مجال التأليف العلمي التزم أغلب الأطباء العرب بتقليد منهجية في كتاباتهم بالحرص على ذكر مصادر ما ورد فيها عن سبقوهم من المؤلفين ، فنجد الرازي مثلا يذكر في مؤلفاته الباب أو الفصل الذي استمد منه المادة ثم يميز آراءه وخبرته الشخصية بلفظة (لى) بعد ما يدونه من هذه الآراء .

أصالة الإضافات العربية :

لقد أجمعت الدراسات المنصفة للتراث الطبي العربي على أن العرب لم يكونوا فقط نقلة للتراث القديم ، وحفظة له من الاندثار بعد أن ضاعت أصوله القديمة او معبرا عبرت عليه الحضارة القديمة الى العصر الحديث . ولو أن ذلك كان فضلهم فحسب لكان فيه كل الفخر لهم ، غير أن الحقيقة الساطعة من الدراسة الامينة تظهر بجلاء أصالتهم في الابتكار والخلق والاضافة في مختلف مجالات الطب وفروعه ، ويطول بنا الحديث لو تتبعنا هذه الإضافات في شتى المجالات ولا نرى في الواقع داعيا لسرد بيان هذا البحث لتلك الإضافات العربية في التشريح ووظائف الأعضاء والطب الباطني والجراحة وأمراض العيون وأمراض النساء وابتكار الآلات الطبية ونظم الادارة للمستشفيات ورعاية المجانين وغيرها ، فقد يخرجنا ذلك التفصيل عن جوهر ما نقصده من هذه الدراسة كما أن مثل هذا التفصيل قد أفاضت فيه امهات الكتب والمؤلفات التي تناولت التراث الطبي العربي من هذه الزاوية .

أما بيت القصيد في بحثنا فهو يؤكد ان الأصالة الحقيقية والخالدة في التراث الطبي العربي انما هي في القواعد والأسس التي قام عليها هذا الطب ممارسة ، وتطويرا واطافة ، وتعلينا ، وهي التقاليد التي تم في ظلها كل ذلك ، من رعاية الدين والدولة وأولى الأمر للعلم وتكريم العلماء من كل جنس ولون ، وفتح مجال الاجتهاد في هذه الصناعة أمام الرجال والنساء ، والتخصص الدقيق في فروع الطب المختلفة وتحديد المسؤولية الدقيقة لعسل الأطباء ومراقبة أعمالهم ، والالتزام بأداب المهنة

والأخلاق ثم في بناء تعليمهم الطبي ووضع مؤلفاتهم العلمية من واقع
المشاهدة العلمية والبحث وحرية المناقشة والأخذ بنظم الرسائل العلمية
والاجازات والمؤتمرات وفي الأمانة العلمية في وضع مؤلفاتهم ..

كل هذه التقاليد العظيمة في نظرنا هي الأصالة التي سمحت بقيام
التراث الطبي العربي وهي التي كانت أساسا لنشأة الحضارة العربية
الشاملة ، وهي في نظرنا أيضا الأصالة الكامنة في ذلك التراث
التي تدعونا دائما للعمل على احيائها والالتزام بأحكامها ،
فهي صالحة لعصرنا هذا ولكل العصور وهي الكفيلة حقا بنقل الحضارة
العربية بما فيها من طب وغيره . من ظلام التخلف الحاضر الى أوسع آفاق
التقدم المأمول في المستقبل ان شاء الله .

المراجع

- طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة .
تاريخ البيمارستانات في الاسلام : للدكتور احمد عيسى بك .
لمحات من تاريخ الطب : للدكتورة أمّة صبري مراد .
طب الرازي : للدكتور محمد كامل حسين .
مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العدد الرابع) سبتمبر ١٩٦٣ .
مجالس العلم والجمعيات العلمية في مختلف العصور : للدكتور عبد
الحليم منتصر .
مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العدد الرابع) سبتمبر ١٩٦٣ .
مكانة الطب في تاريخ العلم عند العرب : للدكتور عبد الحليم منتصر .
مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العدد السابع) يناير ١٩٧٤ .
تقاليد وآداب المهنة الطبية لدى العرب : للدكتور مرسى محمد عرب .
مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العدد السابع) يناير ١٩٧٤ .

لهجرة القبائل العربية إلى الكوفة في القرن الأول الهجري وأثرها في التنظيمات القبلية

الدكتور محمد حسين الزبيدي
كلية الآداب جامعة بغداد

تمهيد

لقد بدأت طلائع هذه الهجرة إلى الكوفة حينما أرسل أبو بكر الصديق (رض) حملتين إلى العراق لمحاربة الفرس في المرحلة الأولى من الفتوحات الإسلامية • تولى الحملة الأولى خالد بن الوليد • عندما أرسل أبو بكر كتابا إلى خالد يأمره بالتوجه إلى العراق بعد الانتهاء من حروب الردة في اليمن • وطلب أبو بكر من المشي وحرملة وسلمى وفدعور أن ينضموا إلى خالد وأن يكونوا تحت قيادته فكانوا في ثمانية آلاف من ربيعة ومضر وكان هو في الفين فصار جيشه في عشرة آلاف مقاتل وأمر أبو بكر أيضا أن يفتح العراق من الجنوب على أن يبدأ بفرج الهند (الابله) ^(١) ثم (البصرة) ^(٢) وكان عدد جنوده في هذه الحملة عشرة آلاف مقاتل •

أما الحملة الثانية تولاه عياض بن غنم حين طلب إليه الخليفة أن يأتي العراق من أعلاه وأن يلتقي في الحيرة مع خالد •

وقد وصل خالد إلى الحيرة مبكرا ولكن عياض لقي مقاومة شديدة حالت دون وصوله إلى الحيرة • فاضطر خالد أن ينقذه وأن يفرق عنه

(١) الذهبي : الاعتدال ج١ ص ٣٦٤ •

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٢ •

الجيش الفارسية المقاتلة وانصارهم من نصارى العرب ولقد كان جيش خالد بن الوليد يضم الصفوة الممتازة من المسلمين فكان هذا الجيش خلاصة المهاجرين والانصار الذي حارب بهم اهل (الردة) في انحاء الجزيرة العربية وكان فيه كثيرا من الصحابة والقراء . وقد آمد ابو بكر جيش العراق بسدد آخر فقد آمد خالد بن الوليد بالقعقاع بن عسر التميمي وآمد عياض بعبد الرحمن بن عوف ثم كتب اليهما ان استنفرا من قاتل من اهل الردة على الاسلام بعد رسول الله (ص) . وترك خالد هذا الجيش اذا اعطيت قيادته الى المثني بن حارث الشيباني بعد سفره الى الشام لنجدة المسلمين هناك .

وعندما خرج خالد الى الشام خرجت معه طائفة من الجيش واستخلف المثني على من بقي منه وقد خاض المثني معركة واحدة في بابل ضد الجيش الفارسي .

وعندما أحس المثني بضعف جيشه أمام الجيش الفارسي طلب نجدة من ابي بكر ولما استبطن المدد خرج الى المدينة .

ولما وصلها وجد الناس منشغلين بوفاة ابي بكر وقد ترك ابو بكر وصيته لعمر بن الخطاب ان مندب الناس مع المثني وأن يرد أصحاب خالد الى العراق ان فتح الله على امراء الشام فانهم اهل وولادة أمره وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم (١) . وقد انتدب عمر بن الخطاب من المدينة ومن حولها امدادا لجيش المثني وكان هذا المدد الاول مكون من ألف رجل وقد أمر عليهم عمر أبا عبيد بن مسعود ثم تلاه المدد الثاني وقد ندب عمر أهل الردة فأقبلوا عليه فأرسلهم الى الشام والعراق . أما الهجرة الثالثة يوم أعلن عمر بن الخطاب (رض) التعبئة العامة بعد مقتل ابي عبيدة ابن مسعود الثقفي في كارثة الجسر سنة ١٣ هـ والتي قتل فيها من قتل من المسلمين وغرق من غرق وهرب من هرب الى المدينة وفي قلوبهم رعب

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٣٨ .

شديد من قتال الفيلة (١) والتي بقي فيها المشنى في عاد قليل من الجند حوالي ثلاثة آلاف ومن أجل هذا نجد ان عمر قد اعلن التعبئة العامة وأخذ يد العراق بالامدادات الكثيرة التالية :

١ - جرير بن عبدالله البجلي في قومه من بني بجيلة وقد اجاب عمر طلبه في جمع من بني بجيلة من قبائل العرب فلما اخرجته الى العراق حتى يلحق بالمشنى ابى الا الشام فأكرهه ثم عوضه لاكراهه ، واستصلاحا له فجعل له (ربع خمس) ما افاء الله عليهم في غزوتهم هذه له ولمن خرج اليه من القبائل (٢) .

٢ - عصمة بن عبدالله من بني عبد بن حارث الضبي فيمن تبعه من بني ضبة .

٣ - ابن المشنى الجشمي - جشم سعد ، فيمن قدم معه من بني سعد .

٤ - ربعي ابن عامر بن خالد العنود في أناس من بني عمرو .

٥ - قوم من بني ضبة جعلهم في فرقتين ، على احد الفرقتين ابن الهوير وعلى الاخرى المنذر بن حسنة (٣) .

٦ - أنس بن هلال النميري في أناس من النمر (٤) .

٧ - ابن مردى الفهر التغلبي من أناس من بني تغلب ، وهو عبدالله ابن كليب بن خالد (٥) .

٨ - نفر من أهل الرده جاؤوا عمر (رض) فأرسلهم الى المشنى (٦) .

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٤٢ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٦٤٥ - ٦٤٦ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧ .

(٥) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧ .

(٦) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧ .

٩ - وجسع من بني كنانة والأزد وعددهم سبعمائة قدموا الى
المثنى (١) .

١٠ - هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع اليه من الرباب (٢) .

١١ - ترط بن جنساج العبدي في عبد القس (٣) .

١٢ - عبدالله بن ذي السهمين في أناس من خثعم (٤) .

١٣ - ربعي وابنه شبت في أناس من بني حنظلة (٥) .

وقد حقق المثنى بهذه الامدادات نصر كبير في معركة (البويب)
التي تأربها لمعركة الجسر .

الهجرة الرابعة :

وقد بدأ العرب والفرس استعدادا لمعركة (القادسية) الفاصلة وقد
كتب عمر بن الخطاب (رض) الى عماله في المدن فقال « لا تدعوا أحد له
سلاح او فرس او نجدة او رأي الا اتخبتموه ثم وجهتموه الي والعجل
العجل » (٦) .

(١) خرج مع سعد الى العراق اربعة آلاف فيمن جاء اليه من اليمن
والسراة وعلى أهل السراة حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي . وهم
بارق والمع وغامد وسائر اخوتهم في سبعمائة من أهل السراة وأهل اليمن
الفان وثلاثمائة منهم النخع بن عمرو وجميعهم يومئذ اربعة آلاف مقاتلتهم
وذرايرهم ونساؤهم . وأتاهم عمر في عسكرهم فأرادهم جميعا على العراق

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٢) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٣) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٤) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٥) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٦) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

فأبوا الا الشام وابى الا العراق فسرّح نصفهم الى الشام ونصفهم الى العراق وألف من قيس عيلان عليهم بشر بن عبدالله الهلالي (١) .

(٢) كتب عمر الى عماله : (لا تدعوا في ربيعة أحدا ولا مضر ولا حلفائهم أحدا من أهل النجدات ولا فارسا الا اجلبتموه فان جاء طائعا والا حشرتموه) .

(٣) كتب عمر الى سعد بن ابي وقاص فيمن كتب اليه عندما كان على صدقات هوازن بانتخاب ذوي الرأي والنجدة ، فمن كان له سلاح أو فرس فجاءه كتاب سعد اني قد اتخبت لك الف فارس فؤد كلهم له نجده ورأي وصاحب حيظه يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم اليهم انتهت حسابهم ورأيهم فلشانك بهم (٢) .

(٤) كتب عمر الى عماله على القبائل ان لا تدعوا أحدا له سلاح افرس او نجدة أو رأي .

ثم وجهتموه الي والعجل العجل ، فوافاه أوائل هذا الضرب من القبائل التي طرقها على قلة المدينة فاما من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق فوافاه بالمدينة مرجعه من الحج واما من كان من أسفل ذلك فقد انضموا الى المثنى فاما من واتى عمر فانهم أخبروه عن وراءهم بالحث .

(٥) اتخبت سعد من بني تميم والرباب اربعة آلاف . ثلاثة آلاف تميمي والاف ربي واتخبت من بين اسد ثلاثة آلاف وأمرهم ان ينزلوا على حد ارضهم بين الحزن والبسيطة فأقاموا هناك بين سعد والمثنى (٣) .

(٦) وامتد عمر سعدا بعد خروجه بألفي يمانى وألفي نجدى مؤد من

(١) الطبري ج ٣ ص ٥ ، ٦

(٢) الطبري ج ٣ ص ٥ ، ٦

(٣) الطبري ج ٣ ص ٧

عطفان وسائر قيس • وقدم سعد منطقة زرود (١) •

٧ () انتخب سعد من بني تميم والرباب اربعة آلاف تسمي وألف ربي وانتخب من بني اسد ثلاثة آلاف وأمرهم ان ينزلوا على حد ارضهم بين الحزن والبسيطة فأقاموا هناك بين سعد والمثنى (٢) •

٨ () كان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة : ستة آلاف من بكر بن وائل والفان من سائر ربيعة اربعة آلاف ممن كان انتخب بعد وصول خالد واربعة آلاف كانوا معه ممن بقي يوم الجسر وكان معه من أهل اليمن الفان من بجيلة والفان من قضاة وطىء ممن انتخبوا الى ما كان قبل ذلك على طىء عدي بن حاتم وعلى قضاة عمرو بن وبرة وعلى بجيلة جرير بن عبدالله (٣) •

٩ — جاء الى سعد الاشعث بن قيس ومعه الف وسبعمائة من أهل اليمن عندما كان في شراف (٤) •

١٠ () كتب عمر الى ابي عبيد بن جراح اهل العراق وهم ستة آلاف ومن اشتهر أن يلحق (٥) بهم وقد بلغ هذا الجيش بضعة وثلاثون الفا • وقد اختلف في عدد هذا الامداد • فمن قال اربعة آلاف فليخرجهم مع سعد من المدينة • وقال ثمانية آلاف فلاجتماعهم بزرود • ومن قال تسعة آلاف فليلحق القيسيين ومن قال اثني عشر الفا فليدفعون بني اسد من فروع الحزن بثلاثة آلاف وجميع من قسم عليه فيء القادسية نحو من ثلاثين الفا (٦) •

١١ () وقد تابعت الامداد لسعد بعد معركة القادسية فقدم هاشم بن

(١) الطبري ج ٣ ص ٧

(٢) الطبري ج ٣ ص ٧

(٣) الطبري ج ٣ ص ٧

(٤) الطبري ج ٣ ص ٧

(٥) الطبري ج ٣ ص ٧

(٦) الطبري ج ٣ ص ٧

عتبة من قبل الشام ومعه قيس بن المكثوم الراوي في سبعمائة بعد فتح
اليرموك ودمشق فتعجل في سبعين منهم سعيد بن غران الهمداني .

٦ - ثم تابع أهل العراق من أصحاب الايام ممدّين لأهل القادسية
فتوافوا بالقادسية من الغد وبعد الغد وجاء اولهم يوم اغواث وآخرهم من
بعد الغد من يوم الفتح وقدمت امداد فيها مراد وهمدان ومن افناء
الناس (١) .

وكان المثني في ثمانية آلاف من ربيعة وستة آلاف من بكر ابن وائل
وألفان من سائر ربيعة وألفان من أهل اليمن وهي قبيلة بجيلة وألفان من
قضاة وطى . وكان على طى . عدي بن حاتم بجيلة جرير بن عبد الله (٢) .

فاجتمع اليه من قبائل عدة منها (قبيلة ، قيس عيلان وبني تميم
والرباب ، وبني اسد ، وبني بكر . وربيعة وغيرها) وولى امر قيادتهم الى
سعد بن ابي وقاص . وقد بلغ عدد هذا الجيش الذي خاض معركة
القادسية حوالي (ثلاثين ألفا) .

وأخذ هذا الجيش يكتسح امامه الجيوش الفارسية ويهد اسوارها
حتى انتزع النصر منها في هذه المعركة ، وقد تتبع هذا الجيش فلول
الجيش الفارسي الى المدائن فاستولى عليها . وأخيرا خاض هذا الجيش
(معركة جلولاء) التي انتصر فيها المسلمون انتصارا مبيّنا جعلت
الامبراطورية الفارسية بعدها حدثا من أحداث التاريخ وخبرا من
أخباره .

اثر الفتح في اختلاط ودمج القبائل العربية في المدن :

ان خروج العرب في الحقيقة من الجزيرة العربية الى العراق بسبب

الفتح مقدمة لعملية اختلاط القبائل العربية مع بعضها البعض بعد ان ظلت محتفظة بطابعها القبلي ووحدها قرونا عديدة ، فقد كان هذا الخروج يتخذ شكلا جديدا بعيدا كل البعد عن التجمع القبلي أو العصبية القبلية التي عاشتها القبائل في الجزيرة العربية قرونا طويلة لأول مرة في التاريخ العربي الاسلامي ، فكان الانتداب للحرب أو الجهاد لا يتخذ شكلا قبليا كما كان مألوفا عندهم لان الخليفة عندما كان يستنصر القبائل على الجهاد ويرغب الناس فيه ويحثهم عليه ، كانت الجموع تتوافد على المدينة من كل حذب وصوب من انحاء الجزيرة العربية فتجتمع هذه الوفود فتعبي وتنظم ثم يرسلها الخليفة الى الجهة المطلوبة التي يراها بحاجة الى المدد فيمدها بالجنود بعد ان يعين أميرا عليهم وذكر الطبري (١) ان (أمير المؤمنين كان اذا اجتمع اليه جيش من أهل الايمان أمر عليهم رجلا من أهل العلم والعدة فاجتمع اليه جيش فبعث عليهم مسلمة) •

كان لهذه الفتوحات أثرا كبيرا في مزج القبائل هذه وصهرها في بودقة الاسلام انصهارا كاملا وتكوين طابع جديد لها يميزها تميزا واضحا عن طابعها القبلي القديم الذي تميزت به قرونا عدة ، وليس أدل على ذلك من قول الطبري قول (وتتابع أهل العراق من أصحاب الايام الذين شهدوا اليرموك ودمشق • ورجعوا ممهدين لأهل القادسية ، فتوافوا بالقادسية ، من الغد وبعد الغد ، وجاء أولهم يوم أغواث وآخرهم من بعد الغد من يوم الفتح قدمت امداد فيها مراد وهمدان ومن اقناء الناس (٢)) •

ان هذا يدلنا دلالة واضحة على ان العرب لم يخرجوا للفتح على أساس قبلي أو فردي أو على نطاق القبيلة حيث ان (أهل العراق من اصحاب الايام) لم يكونوا قبيلة واحدة وانما كانت من قبائل متعددة خرجوا مؤمنين برسالة سامية جاهادين على نشرها في العالم والدفاع

(١) الطبري ج ٣ ص ٨٠

(٢) الطبري ج ٣ ص ٨٤

عنها . ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على الاختلاط ان المحاربين في الجيش الاسلامي كانوا يستصحبون نساءهم الى جهات القتال نظرا لحاجتهم الماسة اليهن ولا سيما عندما كانت تطول مدة القتال ففان الطبري (لم يكن من قبائل العرب أحدا أكثر امرأة يوم القادسية من بجيلة والنخع ، وكان في النخع سبعةائة امرأة فارغة وفي بجيلة الف وانهؤلاء وهؤلاء صاهروا احياء العرب وان المهاجرين تزوجوهن حتى استوعبوهن وان النخع وبجيلة كانت تسمى لذلك اصهار العرب او اختان المهاجرين) (١) .

ان هذا التزاوج أدى بلا شك الى توسيع روابط القبيلة الواحدة بعدد كبير من القبائل واختلاطها بعد ان كانت روابط الزواج تكاد تكون محصورة في القبيلة الواحدة . ان في هذه الحادثة صورة ناطقة لتزاوج القبائل واختلاطها وتوسيع افق القبيلة حتى لا تكون وحدة قائمة بذاتها وانما تكون حلقة وصل وترباط بين بقية القبائل في تكوين هذه الامة التي سكنت الكوفة .

وقد تنابعت مظاهر الاختلاط وانتدأخل بين القبائل حين استقرت في المدن واختلط بعضها ببعض اختلاطا واضحا كان أعرق مدى وأبعد أثرا لا شراكها في حياة مدينة واحدة ، حتى ان سلطة القبائل السياسية وروابطها القائمة على أساس علاقة الدم التي سادت حياة المجتمع القبلي في الجزيرة العربية تأثرت كثيرا بعد استقرارها في العصر وخضوعها لسلطة الامير العليا التي لم تكن تستند قوتها من رابطة الدم . ومن العوامل الأخرى التي ادت الى وحدة العرب وازعاف الروابط القبلية هو الدين الاسلامي الذي كان من اعظم أسسه الدعوة الى الاخوة والمساواة بين معتنقيه بصرف النظر عن اصلهم وجنسهم وألوانهم وهذا كان من اعظم أسسه التي قام عليها الدين . وكان هذا اسلوبا آخر للمزج بين القبائل العربية واختلاطها وتحطيم ما كان في الجاهلية من حواجز

(١) الطبري ج ٣ ص ٨٢ .

فرضتها عليهم طبيعة الحياة • وكان الدين الاسلامي سبيلا الى التآخي بين افراد المجتمع الجديد في مواجهة الحياة •

ان القاء نظرة واحدة على عدد القبائل واسمائها التي نزلت الكوفة تعطيك صورة جديدة واضحة لذلك الاختلاط • فانك تجد فيها قبائل من جنوب الجزيرة العربية وقبائل اخرى من الشمال واخرى من نجد ومن الحجاز واخرى من حضر واخرى من ربيعة وغيرها •

لقد ظلت عملية الاختلاط والدمج تسير شيئا فشيئا على الرغم من انها نكست على عقبيها نتيجة بواعث الفتنة وسوء السياسة التي اتبعها بعض ولاد انسوء • وبذلك محت الفروق المكانية بين القبائل وأجيت العصبية القبلية •

كما انها حاولت ان تحيي الفروق الاخرى ، او تخفف من حدتها ، فربطت بين بعض القبائل ، ولم تدع كل قبيلة ان تعيش وحدها فكونت كنلا جديدة تسمى الاسباع حيث قسم سعد بن ابي وقاص سكان المدينة الى سبعة اقسام منفصلة عن بعضها ومما لا شك فيه ان هذا التقسيم الجديد ادى الى صياغة المجتمع الكوفي صياغة جديدة لم تشهداها المصور السابقة من قبل • واقد ظل المجتمع على هذا التقسيم حتى مجيء الامام علي بن ابي طالب بعد معركة الجمل سنة ٣٦ هـ فغير نظام الاسباع ودمج بعض القبائل التي كانت منفصلة فيما بينها •

ونتيجة لهذا الاستقرار والتجمع نجد بأن الروح القبلية بدأت تتضاءل شيئا فشيئا وان وحدة العرب بدأت تتحقق بينهم وهي تلك الغاية البعيدة التي قصد اليها الرسول الاعظم (ص) وهي ان جعل الاسلام الرابطة بين العرب بعد ان كانت العصبية القبلية والشعور الرابطة الوحيدة بينهم •

لقد ظلت الكوفة على هذا النظام حوالي اربعة عشر عاما حتى ولاية

رياد ابن ابيه الكوفة سنة ٥٥ هـ فخطى زياد خطوات واسعة أخرى •

فدمج القبائل مع بعضها بشكل اقوى بكثير مما قام به سعد ، فعذل زياد هذه الاسباع فجعلها ارباعا ، ومزج القبائل المختلفة داخل كل ربع هادفا في ذلك اضعاف الروح القبلية وصار هذا اقرب الى توحيد القبائل وتجميعها . وقصد زيادة من هذا التقسيم أيضا الى تثبيت دعائم الحكم ونشر الامن والنظام في ربوع الكوفة والمحافظة على وحدة الجيش وتماسكه والابتعاد به عن العصبية القبلية التي تمزقه وتشتت شملها اذا ما تفشت به وسيطرت عليه (١) •

ان هذه الخطوات التي اتخذها زياد في دمج القبائل العربية مع بعضها في الكوفة كان لها اعظم الاثر في نفوس القبائل العربية التي سكنت الكوفة حيث اخذت تهينوها نفسيا لتدرك ان الحياة المدنية شيء آخر غير الحياة البدوية التي تعود عليها العرب في حياتهم الاولى في الجزيرة العربية ، فكانت بداية للون جديد من الحياة المدنية تربط بينها وشائج المدينة وعلائق الاجتماع وروابط الحياة الحضرية الجديدة (٢) •

ان حياة العرب الاجتماعية في الكوفة لم تبق على ما تركها عليه زياد في دمج القبائل وانما اخذت تتحول الى شكل جديد آخر بحكم الحياة الجديدة المستقرة ، ان سكنى القبائل العربية في الكوفة جنبا الى جنب جعلهم يشعرون انهم ابناء مدينة واحدة تفرض عليهم نوعا من العلاقات الاجتماعية جعلتهم يشعرون بأنهم وحدة متجانسة متشابهة الملامح والسمات فبدأ يتسرب الى نفوسهم احساس بالمدينة ولكن هذا الاحساس بالمدينة لم يقضى على الاحساس المتأصل بالقبيلة كليا وانما ظل رواسيا لاشعورية في اساق تفكيرها • أي تحولت العصبية القبلية الى عصبية

(١) يوسف خليف - حياة الشعر في الكوفة ص ١٥ •

(٢) يوسف خليف حياة الشعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثاني للهجرة ص ١٦ •

للمدينة التي سكنوها (١) ومن هنا بدأت تظهر ظاهرة جديدة حيث تحولت الحياة القبلية الى حياة قبيلة تؤمن بالمدينة تستطيع ان نسميها (الاقليمية) او (التأقلم) وهي ان تسمي القبيلة باسم المدينة مثل تسمي الكوفة وتسمي ابصرة وازد الكوفة وازد البصرة (٢) وليس ادل على ذلك من قول المبرد (لقد حدثت فتنة في البصرة بين الازد وربيعة بعد وفاة يزيد وكادت ان تنشب الحرب بينهم وقد استطاع الاحنف بن قيس ان يهدأ هذه الفتنة فقال : يا معشر الازد وربيعة انتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الصهر واشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار ويدنا على العدو ، والله لازد ابصرة احب الينا من تسمي الكوفة وازد الكوفة احب الينا من تسمي الشام) (٣) !

ولم يقف تطور العرب الى هذا الحد من الشعور بالعصية القبلية والمدينة معا وانما تعداها الى ابعد من ذلك ، حيث قطع العرب خطوات كبيرة نحو التجصع في الكوفة بعد ان ذابت الفروق المكانية بين القبائل . فصار الشعور بالمدينة وحدها فوق كل اعتبار آخر وان كتب التاريخ تذكر لنا أمثلة كثيرة .

وعلى ذلك فنقول — سار أهل الكوفة وجاء أهل البصرة • وقاتل أهل الكوفة أهل البصرة • اننا معشر أهل البصرة • وسلمى بن اليقين على أهل البصرة ونعيم بن مقرن على أهل الكوفة • وتتابع أهل العراق من أصحاب الايام (٤) • الى غير ذلك من الأمثلة • دون ذكر اسم القبيلة او العشيرة التي تسكن هذا المصر او ذاك •

ان انشاء المدن في الحقيقة تجربة جديدة رائدة في حياة العرب

(١) احمد امين — فجر الاسلام ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) المبرد — الكامل ج ١ ص ١٢٢ . الجاحظ — البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) المبرد — الكامل — ج ١ ص ١٢٢ . الجاحظ — البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٠ .

(٤) الطبري : ج ٣ ص ٣٠

الاجتماعية وكانت هذه التجربة على الرغم من كل شيء موفقة في مقاصدها ناجحة في اهدافها ومراميها • على الرغم من انها تعرضت كما تعرض غيرها من التجارب الى النكوص على عقبيها في بعض الاحيان لسوء السياسة التي اتبعها بعض الخنفاء والولاة • او نتيجة لبواعث الفتنة والشقاق التي كانت تؤججها نار السياسة والتحزب والطائفية والمذهبية وغيرها •



أوراق البردي العربي من مصر اصيل لتاريخ الهيروغليفية

الكتور أحمد الشامي
دولة قطر / الدوحة

مقدمة عامة عن نبات البردي واماكن تواجده وزراعته :

لا شك ان نبات البردي الذي صنعت منه أوراق البردي عرف في مصر منذ عهد الفراعنة فالنقوش المرسومة على المعابد المصرية والتي تمثل اشكالا لهذا النبات ، والسفن التي صنعت من سيقانه والتي تركت رسوماتها على جدران معبد الدير البحري ، والوثائق الفرعونية المكتوبة على أوراق من البردي بالهيروغليفية او الهيروغليفية او الديموطيقية ، وهي الكتابات المستعملة في اللغة المصرية القديمة ، كل هذه أدلة مادية لا تقبل الشك في أن مصر عرفت هذا النبات منذ فجر التاريخ .

كانت سيقان هذا النبات تنبت طبيعيا في مستنقعات الدلتا ومياهاها الراكدة خاصة في الحجر وفي شريط مستد بالاسكندرية ، واستمرت تربية نبات البردي في مصر مدة طويلة اختلفت المصادر العلمية في تحديدها ، فالمراجع الاوروية تذكر ان نبات البردي ظل ينبت في مصر حتى منتصف القرن العاشر الميلادي (١) بينما المصادر العربية تقرر ان زراعة نبات البردي استمرت في مصر بعد ذلك التاريخ لعدة قرون ولكنها كانت قليلة ، فأبو العباسي النباتي يذكر ان نبات البردي كان ينمو في مصر حتى سنة ١٢١٦ م ، والقلقشندي يذكر ان هذا النبات ظل موجودا في زراعة مصر الى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ، ويذكر جروهمان في مقدمة كتابه

عن علم البردى ان هذا النبات ظل ينمو في دمياط وجهات قليلة اخرى حتى سنة ١٨٢٩ ، بينما يقرر Coumbe ^(٢) ان المنابع المحلية لنبات البردى في مصر بدأت تجف منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، وهو في هذا يتفق مع ما ذكره ابو العباسي النباتي ، ثم يذكر ان قلة متفرقة من هذه المنابع التي ينمو فيها نبات البردى ظلت تشاهد حتى سنة ١٥٩١ م ، ولكن منذ سنة ١٦٧٤ م انعدمت الاشارات عن وجود ذلك النبات في مصر .

والحقيقة التي أجدها اقرب ما تكون قبولا للعقل هي ان نبات البردى كانت زراعته تزداد وتقل حسب مركز مصر قوة وضعفا ، فان كانت مصر في مركز قوى ازدادت زراعة هذا النبات وتمت صناعة اوراقه التي كانت تصدر الى بلدان منطقة الشرق الادنى والى بلدان ومدن حوض البحر الابيض المتوسط باعتبار مصر مركز الاشعاع الحضاري في هذه المنطقة وهي التي تصدر مادة الكتابة الوحيدة التي عرفها العالم في هذه الفترة المبكرة من تاريخ البشرية واقصد بها اوراق البردى المصنوعة في مصر والتي كانت تشكل السلعة الرئيسية في صادرات مصر حينذاك كما يشكل القطن السلعة الأساسية لصادرات مصر حاليا .

وان كانت مصر في مركز ضعيف نتيجة لما كان يصيبها احيانا من وقوعها تحت سيطرة اجنبية او بسبب ركود حياتها الاقتصادية فان زراعة وصناعة اوراق البردى كانت تتأثر بذلك وتنكمش الى حد كبير ليس في مصر فحسب بل في حوض البحر الابيض المتوسط ومنطقة الشرق الادنى بأكملها .

ومع ان استعمال ورق البردى في الكتابة قد توقف منذ حوالي ستة قرون ، فقد اعادت مصر زراعة هذا النبات في الستينات من هذا القرن ، وشيدت معهدا لتصنيع ورق البردى من جديد ، ويقوم المعهد بتقليد بعض اللوحات الفرعونية والاسلامية المنقوشة على اوراق بردية او آثار اسلامية ويعرضها على الآلاف من زوار هذا المعهد ومعظمهم من السائحين

الأجانب ، كما ان أكاديمية الفنون المصرية تمنح درجاتها العلمية على هذا الورق المصنوع حديثا من نبات البردى •

يقول بعض المؤرخين ان البردى كان يزرع على نهر الفرات عند مدينة بابل في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وكان يتم تصنيعه في مدينة سامراء ، ويستبعد البعض الآخر ذلك القول ويدعم رأيه بأن مصر هي التي كانت تصدر ورق البردى الى العراق طوال فترة التاريخ قديما ووسيطا ، ولكننا نرجح ان العراق وبلدان أخرى قامت بمحاولات لزراعة هذا النبات وتصنيع ورقه واستعماله محليا بل وتصديره منافسة لمصر في جانب حيوي من اقتصادها الذي كان يعتمد على هذه السلعة المهمة جدا . والتي كانت هي المنبع والمصدر الوحيد لها في العالم ، ودليلنا على هذا ما ذكره الغرناطي^(٣) حيث يقول : « وفي سمرقند القراطيس التي عطلت قراطيس مصر لأهل المشرق وهي كقراطيس مصر لأهل المغرب ، وفي بلخ انها شبيهة بالعراق وخراسان والهند » •

ويذكر ابن حوقل^(٤) الذي زار بالرمو Palermo فيما بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٧٣ م أيضا انه رأى نبات البردى ينمو في جزيرة صقلية وبعض جهات أخرى في جنوب أوروبا ولكنه يقرر ان وجود نبات البردى كان هناك للزينة ولم يكن لتصنيعه ورقا للكتابة ، بينما يقرر Coumbe^(٥) ان ملوك الميروفنجيين كتبوا كل وثائقهم في القرن السابع م على ورق من البردى وظلوا يستعملونه بعد ذلك الى ان بطل استعماله تماما في عهد شارلمان وخلفائه في القرن ١٢ م . ومع هذا فان هذه البلدان التي قامت بهذه المحاولات لم تتمكن من التصدي الورق المصري لما كان يمتاز به من خصائص انفرد بها عن الورق المصنوع في هذه البلدان ، ولعل أهم هذه الخصائص تتجلى فيما اثبته الخبير العالمي لصيانة البرديات انطون فاكلمان Fackelmann من أن نبات البردى المزروع في مصر يمتاز باحتوائه على مادة لزجة متشعبة بها انسجة هذا النبات ، هذه المادة اللزجة التي اكتسبها من البيئة الجغرافية التي امتازت بها مصر ومن مياه النيل

هي التي تساعد على تماسك هذه الالياف والتصاقها عند عملية التصنيع. لأن المصري القديم كان يقوم بطرق الشرائح الطولية لسيقان هذا النبات طرقا خفيفا ثم يقابلها بشرائح اخرى مستعرضة ويكرر عملية الطرق بخفة، وكان السائل المختزن في الانسجة يقوم مقام مادة اللصق حاليا حيث يساعد على التصاق هذه الشرائح وتماسكها وقد توصل الخبير العالمي فاكلمان - الذي شرفت بالعمل معه ومع ابن أخيه Junge Fackelmann (فاكلمان الصغير) اثناء وجودي بفينا في الستينات - الى هذه النتائج بعد ما قام بزراعة نبات البردى في بيئات مختلفة في النمسا والمانيا الغربية موفرا للتجارب كل الوسائل العلمية التي تساعد على نمو هذا النبات وفعلا نبتت سيقان البردى ولكن عندما اختبرت المادة المختزنة بين الياف النبات وجدت خالية من خاصية اللزوجة التي يمتاز بها نبات البردى المزروع في مصر .

عرف العرب كذلك نبات البردى في عصر ما قبل الاسلام ، فقد ذكره بعض شعراء الجاهلية في أشعارهم مثل قول الاعشى يصف حبيبته بقوله :
« كبردية الغيل وسط الغريف »

ولكنهم اطلقوا على ورق البردى اسم القرطاس ، وجاء ذكره في القرآن الكريم بهذا الاسم في قوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبین » ، وفي قوله تعالى « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه في قراطيس تبدونها .. » (٦) .

قصة العثور على مجموعات البردى وسباق الدول الاوروبية الى اقتنائها :

ترجع قصة العثور على أوراق البردى بمجموعاته المختلفة الى سنة ١٨٢٤ م عندما عثر بعض الفلاحين في منطقة سقارة (دير ابو هرميس) على زلعة صغيرة من الفخار وجدوا بداخلها ورقتين من البردى المكتوب

باللغة العربية ، وبطريقة ما تمكن برناردو دروفيتي Bernardo Drovetti قنصل فرنسا الاسبق في مصر الذي كان مغرما بجمع الآثار المصرية من الحصول عليها ، ولم يلبث ان قدمهما الى البارون سلفستر دي ساسي Silvester de Sacy قنصل فرنسا في ذلك الوقت ، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن هنري سالت (٧) Henry Salt قنصل انجلترا في مصر من الحصول على ورقتين اخريين قام باهدائهما الى الملك لويس الثامن عشر ، وقد عكف سلفستر دي ساسي على بحث محتويات نصوص هذه الاوراق البردية التي تلبقتها أياديه ، وسرعان ما نشر عنها مقالا في مجلة العلماء Journal des Savants الصادرة في باريس سنة ١٨٢٥ م (٨) وبهذا المقال اصبح دي ساسي مؤسس علم البردي العربي دون ان يدري .

كان هذا المقال هو أول نأى علم الناس منه موضوع هذه البرديات المكتوبة باللغة العربية والتي وصلت الى اوروبا ، ومنذ ذلك الوقت تنبه المستشرقون الى أهمية اوراق البردي العربي وعكف بعضهم على دراسة نصوص هاتين البرديتين الى جانب البرديتين المهداتين الى الملك لويس الثامن عشر ، وعلى بعض ما عثر عليه بعد ذلك من برديات اخرى حتى تطورت ابحاثهم في غضون الثلث الاول من هذا القرن وأصبحت دراساتهم على اوراق البردي علما ثابتا في جامعات اوروبا كمصدر اساسي لدراسة التاريخ الاسلامي وحضارته على مر العصور في مصر .

مضت فترة زمنية طويلة نسبيا لم يعثر الفلاحون في خلالها على شيء جديد من اوراق البردي الى ان كان صيف عام ١٨٧٧ م فقد عثر الفلاحون على آكوام من ورق البردي في الخرائب المهجورة لأطلال مدينة أرسينوه ومكانها الحالي كوم فارس كما ذكرها شفاين فورت Schweinfurth وعرضت هذه الاوراق البردية للبيع فاسرع جورج ترافرز G. Travers قنصل المانيا في مصر بشراء كميات كبيرة منها خلال عامي ١٨٧٧ - ١٨٧٩ أرسلها من فوره الى القسم المصري بمتحف برلين (٩) وفي شتاء العام نفسه

عشر سكان الفيوم على مجموعة ضخمة من أوراق البردى في اطلال كوم
الحرانية ظفر Travers بمعظمها كذلك . وحصل متحف اللوفر بباريس
على قدر من هذه البرديات ، كما تمكن قنصل انجلترا في مصر روجرز
E. T. Rogers ومعه هـ . بروجش H. Brugsch من شراء بعضها
واستقرت هذه البرديات بوديليانا باكستورد ، ولم يلبث Stern
أن بذل جهده وظفر هو الآخر بما تبقى من هذه المجموعة لحساب المتحف
المصري ببرلين لسنة ١٨٨١ م . أصبحت أوراق البردى سلعة رائجة يتكسب
منها المعدمون من الفلاحين ويحرص تجار العاديات في القاهرة على اقتناء
كل ما يجدونه لدى هؤلاء المعدمين ويعوضونهم عنه البخس القليل من
المال ، ولهذا كرس بعض الفلاحين كل وقتهم للبحث عن أوراق البردى
في القرائب والاطلال المهجورة وفي أكوام السباخ ونجحوا في العثور
على مجموعات أخرى من ورق البردى في اهناسيا واخميم والاشمونين
والبهنسا وكوم اشقوه و (أشقاو) ومنف ودير القديس أرميا بالقرب
من سقاره ، وفي ادفو حيث عثر على مخطوط على شكل كتاب كامل من
ورق البردى يتضمن كتاب الانساب للسمعاني ، وكتاب الصمت ، وكتاب
الخاتم وينسب الى جامعة عبدالله بن وهب ويرجع تاريخه الى القرن
الثالث الهجري (٩ م) وكان هذا الكتاب الفريد من البردى معروضا
في متحف دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ٢١٢٢ حتى
أواخر الستينات من هذا القرن .

أخذ التنافس يشتد بين سفراء الدول الأوروبية خاصة المانيا وفرنسا
وانجلترا وإيطاليا على شراء ما يعرض من أوراق البردى في أسواق القاهرة،
ويرسلون بمندوبيهم الى أسواق مصر يجوبون محلات العاديات المختلفة
بحثا عن هذه الثروة العلمية الفريدة في نوعها ، وعلى الرغم من هذا
التنافس الذي وصل الى حد الصراع على الظفر بهذا الكنز العظيم بين
سفراء هذه الدول فقد وقف سفير النمسا بمعزل عن هذا الصراع ، واكتفى
لنفسه وبلده بموقع المتفرج منذ بداية هذا الصراع في الربع الأول من
القرن التاسع عشر حتى بلغ ذروته بعد خمسين سنة تقريبا ، وعلى الرغم

من ان النمسا دخلت هذا الميدان متأخرة جدا فقد تسكنت عن طريق ثلاثة اشخاص ان تفوز بأكبر نصيب من الغنيمة ، وان يصبح لها قصب السبق على من سبقها من الدول الاوروبية بسبب ما أحرزته من مجموعات البردى التي جعلتها على راس العزم أجمع بسا في ذلك مصر موطن البردى ، ومركز تصديره ، ففي المكتبة القيصريّة بفينا توجد اليوم أكبر وأغنى مجموعة من أوراق البردى في العالم حيث يبلغ تعدادها مائة ألف برديّة مكتوبة بأكثر من ست لغات من ضمنها حوالي عشرة آلاف برديّة باللغة العربيّة .

دراسة موجزة لمجموعات مكتبة البرتينا بجامعة فينا :

هؤلاء الرجال الثلاثة الذين كان لهم الفضل في أن تفوز النمسا بهذه المجموعات الضخمة من أوراق البردى هم تيودرجراف Theoder Graf نمساوي مقيم في الاسكندرية وكان مديرا لاحد بيوت السجاجيد الايراني الذي لم يذكر اسمه صراحة في الوثائق الموجودة بأرشيف المكتبة القيصريّة بفينا هو ذلك المتجر الايراني العظيم الذي كنت أشاهده قائما في شارع فرنسا بالاسكندرية حتى أول الخمسينات من هذا القرن ، والذي كان يعتبر مزارا للملوك والعظماء والوزراء . والرجل الثاني هو المستشرق النمساوي جوزيف كرابتشك Josef Karabacek مدير مكتبة القصر الامبراطوري في فينا الذي لعب دورا بارزا في هذه القصة وتمكن بذكائه من أن يضم اليه الارشيدوق راينر Erzherzog Rainer الذي سيقوم بدفع جميع اثمان مجموعات البردى المجلوبة من مصر لحساب فينا ، وبانضمام الارشيدوق راينر الى كرابتشك وصديقه جراف تتم دائرة الفوز للنمسا حيث حصلت على الكنز العلمي العظيم ، وتكتمل اطراف المأساة بالنسبة لمصر لانها فقدت جزءا عظيما من تراثها ، ومصدرا أصيلا من مصادر تاريخها .

كانت هناك صلة كبيرة بين ثيودرجراف وبين جوزيف كرابتشك

الذي كان هاويا لجمع المنسوجات الاثرية والسجاجيد الشرقية ذات القيمة الفنية ، ووصلت اخبار البردى العربي الى مسامع كرايتشك بعد ان وصلت عدة مجموعات منه الى برلين وباريس واكسفورد وعندئذ تحركت الغيرة في قلبه فكتب من فينا الى صديقه جراف الذي يمدده بالمنسوجات الاثرية والسجاجيد الشرقية من الاسكندرية يغريه ويدفعه للبحث عن ورق البردى الى جانب ما يرسل به من قطع النسيج القديم ، وتسكن جراف من ان يرسل مع بعض خرق النسيج القديمة مجموعة صغيرة من أوراق البردى ، وبدأ كرايتشك يهتم بها وكتب الى صديقه جراف يلفت نظره الى أهمية هذه الاجزاء الصغيرة من ورق البردى ويلج عليه ببذل أقصى جهـد للحصول على اكبر كميات منها (١٠) .

نجح ثيودر جراف في وقت قصير بما له من حاسة التاجر الخبير من الحصول على بعض مجموعات من البردى وساعدته الظروف على ذلك حيث كانت أسواق القاهرة مغمورة ببردى من الفيوم (كوم فارس) ومن اهناس (هرقليوبوليس) فاشترى حوالي عشرة آلاف بردية سافر بها بنفسه من الاسكندرية سنة ١٨٨٢ (١١) الى فينا حيث وضعها بين يدي جوزيف كرايتشك الذي تلقاها وهو لا يكاد يصدق انها بين يديه ، وعندما بدأ بفحصها وجدها في حالة سيئة فقد عبث الديدان ببعضها الى جانب ما تأكل من اطرافها ، كما ان عدة آلاف منها غطتها طبقات متحجرة من الطين وبذل كرايتشك عناية فائقة في ازالة ما علق بهذه البرديات من طين متحجر وذلك باتباع الطريقة الالمانية التي اتبعت في نظرية وفتح بردى Travers سنة ١٨٧٧ م ، وبعد جهود مضية ، وعمل مستمر مع حرص زائد حتى لا تتمزق البرديات أو تتعرض للتلف نجح كرايتشك في فرد لفائف البردى وتنظيف الكراسات المتحجرة .

ما لبث كرايتشك ان عكف على دراسة نصوص هذه المجموعة واستعان في ذلك ببعض علماء اللغات ليقف على ما تتضمنه هذه النصوص وقد ظهر بعد الفحص ان المجموعة تضم نصوصا مكتوبة بلغات ستة هي

العبرية والسامية والبهلوية واليونانية والقبطية والعربية التي بلغت وحدها حوالي ثلاث آلاف نص . وتضافرت جهود هؤلاء العلماء من الناحية العلمية مع ما وضع تحت تصرفهم من خبرات فنية وأمكن لهم تجهيز بضع مئات من البرديات التي تم فحصها وتنسيقها وعمل لها كATALOG مصنف ، وأقيم لها معرض في فيينا في السابع والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٨٣ م ، وعرفت هذه المجموعة في الاوساط العلمية باسم مجموعة ثيودرجراف أو مجموعة الفيوم الاولى (١٢) .

بهذه الصورة ، وعلى هذا النحو تكونت نواة أكبر مجموعة للمبردي في فيينا ، ما لبثت ان نمت اعدادها على مر الايام بما أضيف اليها من مشتريات جديدة ، وبما اهدى اليها من مجموعات او بما حصلت عليه من الحفائر التي قامت بها البعثات النمساوية في مصر ، وأهم ما أضيف الى مجموعة فيينا تلك المجموعة الكبيرة التي كان يمتلكها عالم الآثار المشهور Schweinfurth والتي بيعت في القاهرة سنة ١٨٨٦ واشتراها جراف كذلك لحساب فيينا . وقد اطلقت الاوساط العلمية على هذه المجموعة اسم مجموعة الفيوم الثانية (١٣) وقد بلغت مجموعة فيينا في الوقت الحاضر حوالي مائة الف بردية من ضمنها عشرة آلاف بردية باللغة العربية تسكنت اثناء اقامتي بفيينا من الاطلاع على معظمها ودراسة بعضها وتصوير البعض الآخر لعمل دراسات عليه .

ان ما تتضمنه نصوص هذه البرديات العربية على جانب كبير من الأهمية لفروع العلم المختلفة سواء ما يتصل بعلم الشريعة والحديث او ما يتصل بعلم التاريخ والادب والفلك والطب وعلوم الاغذية فهي مجموعة شاملة لفروع العلوم المختلفة ، وتغطي فترة زمنية طويلة من تاريخ مصر الاسلامية تصل الى ٧٥٠ عاما ، فأقدم وثيقة في هذه المجموعة الموجودة في مكتبة البرتنبنا حاليا يرجع تاريخها الى عهد عمر بن الخطاب فهي مدونة في سنة ٢٢ هـ ، واحديث وثيقة في هذه المجموعة يرجع تاريخها الى سنة ٧٨٠ هـ الى عهد السلطان المنصور علي بن الاشرف شعبان آخر

سلاطين الممالك في مصر ويكفي للدلالة على أهمية هذه الوثائق ان اقدم نموذجاً تحليلياً عن احدى هذه المجموعات التي بلغت في مجموعها ٩٥٠ بردية بيان عهودها التاريخية كالآتي :

١٧ بردية يرجع تاريخها الى عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وتبدأ أرقامها في سجل البرتينا من ٥٥٠ الى ٥٦٧ AP

٤١ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة الاموية وتبدأ من الرقم ٥٦٨ الى ٦٠٨ .

١٨٥ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة العباسية الاولى (١٣٢ - ٢٥٥ هـ) وتبدأ ارقامها من ٦٠٩ الى ٧٩٣ .

٩٠ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) وتبدأ بالرقم ٧٩٤ الى ٨٨٣ .

٣٣ بردية يرجع تاريخها الى العصر العباسي الثاني (٢٩٥ - ٣٣٣ هـ) وتبدأ بالرقم ٨٨٤ الى ٩١٦ .

١١٣ بردية يرجع تاريخها الى عصر الاخشيديين (٣٣٣ - ٣٥٧ هـ) وتبدأ بالرقم ٩٤٩ الى ١٠٦١ .

٢٢٤ بردية يرجع تاريخها الى عصر الفاطسيين في مصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) وتبدأ بالرقم ١٠٦٤ الى ١٢٨٧ .

٢٥ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة الايوبية (٥٦٧ - ٦٢٥ هـ) وتبدأ بالرقم ١٢٩٠ الى ١٣١٥ .

٨٤ بردية يرجع تاريخها الى عصر دولة المماليك (٦٥٧ - ٧٨٣ هـ) وتبدأ بالرقم ١٣١٦ الى ١٤٠٠ .

فاذا علمنا ان ما قرأه جوزيف كرابتشك ورصده في دليل مكتبة البرتينا لم يزد عن ١٤٠٠ وثيقة من هذا العدد الكبير الذي بلغ العشرة آلاف وثيقة التي ما زال معظمها محفوظاً ينتظر من يخرجها الى نور الحياة

ويضع نصوصه تحت أيدي العلماء والمؤرخين لا يمكن لنا ان نقول بأن تراثا اسلاميا عربيا يمكن ان يضيء الطريق ويهدي السبيل للذين تركوه في ظلمة المخازن اذا هم عنوا به فقد يكون بين نصوصه ما نصحح به فكرة علمية حائرة او نضوب به حكما تاريخيا جائرا او نعدل به جرحا خاطئا في الفقه والحديث او نقوم به اعوجاجا من عاداتنا او نصحح به مفهوما من مناهيمننا او نثبت به تقليدا حميدا من تقاليدنا العربية الاصيلية ، ثم ان هذه الوثائق البردية قبل كل شيء وبعد كل شيء سجل حافل لماضيينا المجيد ، ومشعل مضيء لفترة هامة من تاريخ الامة العربية وهي تمثل بدون شك جزءا هاما من تاريخ البشرية وحضارتها كما انها وثائق حافلة وناطقة بحياتنا الادبية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والقومية . فبعض نصوص هذه الوثائق يوضح لنا ان فكرة فتح العرب لمصر كانت تحصل طابعا آخر غير الذي قرأناه وتعلمه الكثير منا ، لأن الفاتحين العرب لم يكونوا مجرد غزاة جياع ، ولا كانوا جماعة من المغامرين من البدو راكبي الجمال كما يصفهم بعض مؤرخي الغرب ، ولكنهم كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحتهم من سيوف ونبال وهي الاسلحة التي عرفها أرقى شعوب الأرض حينذاك ، وكانوا يقاتلون ببسالة في سبيل عقيدة تشربتها نفوسهم باخلاص ، وانهم تركوا حرية العقيدة وطبقوا في حكمهم على المسلم والذمي قانون السماء .

وبعض النصوص التي تضمنتها هذه الوثائق الهامة عبارة عن رسائل افراد من عامة الشعب الى حكام أو ولاية أو تجار أو ذوي قرى وفيها تتجلى شكاوى الناس وحاجاتهم ، ومدى آلامهم ، ومعاناتهم ، وتشرح عواطفهم ، وتعطي صورة واضحة عن عاداتهم وطريقة حياتهم ومعاملتهم وأذواقهم حتى التذاكر الطبية ووصفات العلاج من الأمراض تبينها هذه الوثائق التاريخية وتعطي الباحث فكرة كاملة عن مدى ما وصل اليه العرب المبلسون من تقدم في طرق العلاج وتشخيص سليم للأمراض ولم تضمن علينا هذه الوثائق بطريقة عقود الزواج التي تعطينا شرحا لقيمة الصداق ، وتقدم نموذجا لعملية التوثيق ، وتبين عدد الشهود الذين

يشهدون بصحة هذا الزواج ، وهؤلاء كانت تتراوح اعدادهم ما بين اربعة شهود واربعين شاهدا على حسب المنزلة الاجتماعية للعروسين ، ويكفياني ان اذكر نماذج من هذه الوثائق للتدليل على ما ذكرت .

فالبردية رقم ٦٥٩ AP من هذه المجموعة يرجع تاريخها الى عهد هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) وهي اقرار مصالحة بين زوجين الرجل يدعى ابو سليمان وامراته سكيئة وقد أقر الزوج بأن ما في البيت من أثاث وخلافه يخص زوجته سكيئة وتعهده بدفع ما عليه من الصداق وقدره ثلاثون دينارا وعلى الوثيقة اقرار اربعة من الشهود ، والوثيقة رقم ٩١٣ (AP. 16859) يرجع تاريخها الى عهد الخليفة العباسي القاهر بالله

(هو ابو منصور محمد بن المعتضد آخر خلفاء الدولة العباسية الثانية حكم من ٣٢٠ الى ٣٢٢ هـ) وهي عقد زواج المدعو فلان ابن اسحق بن غيامة وزوجته عائشة بنت سعيد وكانت امرأة قائمة على امرها بنفسها والعقد موقع عليه من الشهود كذلك ، والوثيقة رقم ٩٨٦ يرجع تاريخها الى عهد الاخشيديين مدون بها ٣٩ سطرا بالخط النسخي الواضح وهو خطاب مرسل من احد الجنود الذين خرجوا في حملة عسكرية الى منطقة النيوم وهو يقص على أهله ما حدث لهم من موت الخيل والحمير نتيجة شدة العطش الذي أصاب الحملة كلها وفي آخر الوثيقة دعاء الى السلطان بدوام ملكه وهلاك اعدائه ، والبردية رقم ٦٠٤ من عهد هشام بن عبد الملك وفيها بيان لميزانية بيت احد الاغنياء والمبالغ المخصصة لنفقات اصطلب خيوله والمتبعين في نص هذه الوثيقة يخرج بصورة واضحة عن مستوى الحياة المعيشية ومقدار دخل الفرد في الحقبة الزمنية التي كتبت فيها هذه الوثيقة ، والبردية رقم ٢٠٧ هـ من عهد المأمون بن هرون الرشيد تشرح لنا مبادلة أصناف من السلع بين تاجرين من اقباط مصر وهي تعطي المؤرخ فكرة واضحة عن الجوانب الاقتصادية وأنواع السلع المتاجر فيها واثمانها ، وكيفية التبادل التجاري بين التجار ، وأهم انواع المواصلات المستعملة في النقل من بلد الى آخر والمدة الزمنية التي يستغرقها نقل هذه

البضائع ، والوسائل التي كانت متبعة في حفظ هذه المواد التجارية سواء كانت ملبوسات او أطعمة او غيرها .

والبرديتان رقم ١٧٨٨ ، ١٠١٣٦ مدوّن عليهما بعض من آيات القرآن ولا تخلو مجموعة من مجموعات البردى من مثل هذه الوثائق الدينية الهامة .

والبردية رقم ١٩٦ تعتبر فريدة في نوعها لأنها اول مصدر تاريخي عن أول رتبة وظيفية في العهد الفاطمي وهي مكتوبة بالخط القبطي ، وكذلك البرديات رقم ٤٠٦ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، التي تتضمن منشورات ثورية يرجع تاريخها الى سنة ٢٥٣ هـ ٨٦٧ م (١٤) وهو العام الذي سبق وصول احمد بن طولون الى مصر وكانت في تلك الفترة في حالة من الاضطراب الداخلي . حتى الاحصاء عرفته مصر الاسلامية قبل ان تعرفه اوروبا بزمان طويل فالبردية رقم ٥٩٩ من عهد هشام بن عبد الملك تحمل أمرا ديوانيا بعمل احصاء لأهالي بعض القرى وتقرير ثبت بالخراج الواجب ادائه ، والوثيقة ١٠٦٦ (Ach: 7710) عبارة عن ورقتين من أحد كتب الحديث حيث تروى الأحاديث النبوية مسندة الى قائلها ، وتاريخ هذه الوثيقة يرجع الى عهد المعز لدين الله الفاطمي ، وهناك بعض البرديات التي قرأها ادولف جروهان واستعان بها في دراساته لاحظت انه صحف بعض الاسماء ودونها خطأ مثل البردية رقم ٢١١/٨١٨٤ الذي قرأها في ٢٠ فبراير سنة ١٩٢١ واثبت انها رسالة من اندعو عبد الحميد ابن عمر بن شباشي وصحة الاسم كما صححته في وثائق البرتينا هو مجد الدين يحيى بن شباشي وكذلك البردية رقم ٢٥٢/٨٢٢٥ حيث صححنا اسم مرسل الوثيقة فقد اثبت جروهان (من صهر بن العرشي) وصحته كما قرأناه (من صهيب بن العرشي) .

هذه نماذج فقط من أنواع مختلفة من مجموعة بردى الارشيدوق راينر بفينا وقد عايشتها واطلعت على معظمها وقست بتصحيح عدد غير

قليل من القراءات السابقة لهذه النصوص واثبتها بنفسه في سجلات المكتبة ، وخلص القول ان مثل هذه المجموعة الفريدة من الوثائق في متيسر الحاجة الى جهد جماعي من متخصصين في تحقيق التراث لدراسة ما تحتويه من نصوص .

دراسة مجموعة Schott - Reinhardt بجامعة هايدلبرج :

تعتبر مجموعة جامعة هايدلبرج بالمانيا الغربية ثاني مجموعات البردى بعد مجموعة فينا ، من حيث القيمة العلمية والكم العددي ، اذ يبلغ تعدادها حوالي ٢٠٠٠ بردية بها نسبة كبيرة مكتوبة باللغة العربية والقليل منها مكتوب بالعبرية والقبطية والبهلوية واليونانية ، وتنسب المجموعة كلها الى عالين المائين من جامعة هايدلبرج اولهما الدكتور Reinhardt الذي تسكن من شراء المجموعة الاولى من بردى الفيوم والاشمونين واخيم لحساب الجامعة فيما بين سنة ١٨٩٧ ، ١٨٩٩ م ، ثم اشترى Reinhardt لنفسه مجموعة اخرى من ورق البردى بلغ تعدادها حوالي ١٠٠٠ بردية كان يفكر في دراستها ونشرها الا ان المنية عاجلته في سنة ١٩٠٣ م وبوصية منه آلت هذه المجموعة الى صديقه د . شوت Schott مدير الجامعة وقتذاك ويبدو ان شرط Reinhardt كان لديه من الاعباء العلمية الاخرى ما يحول بينه وبين دراسة هذه المجموعة والتفرغ لمحتويات نصوصها ، فرأى ان خير وسيلة للحفاظ على هذه الثروة العلمية التي آلت اليه من صديقه Schott هو ان يهديها الى الجامعة التي ضمتها معا في محرابها ، فعلا قام شوت Schott بتقديم المجموعة كهدية منه الى جامعة هايدلبرج في العام التالي سنة ١٩٠٤ م ، فرأت الجامعة ان تكرم غاليتها فأطلقت اسميهما معا على هذه المجموعة تحية وتقديرا لمن اشترأها وذكرى وتكريما لمن اهداها وأصبحت المجموعة تعرف في الاوساط العلمية باسم Schott-Reinhardt وقد اضاف الدكتور

ادولف جروهمان الى هذه المجموعة ٥٩ بردية عربية من الفسقاط اودعها جامعة هايدلبرج في صيف سنة ١٩٣٤م، وقد نمت اعداد مجموعة هايدلبرج نتيجة اتفاقية البردي الالمانية وبما اضيف اليها من نتائج حفريات جامعة هايدلبرج والجمعية العلمية بفرايبورج Freiburg (١٥) .

ومع ان هذه المجموعة تعتبر من حيث القيمة العلمية والكم العددي في المرتبة الثانية بعد مجموعة فينا الا انها كانت اكثر حظا وأوسع انتشارا في مداها العلي لكثرة ما قام به المستشرقون الالمان من دراسات عليها . فكارل هنري بيكر C. H. Becker الذي كان مديرا لجامعة هايدلبرج ثم وزيرا للعارف بالمانيا قام بدراسات موسعة على النصوص المتعلقة بتاريخ الخلافة ، الى جانب سلسلة من المحاضرات الانجامية في الدراسات الاسلامية استقى معلوماتها من واقع نصوص أوراق البردي بهذه المجموعة (١٦) ، كذلك قام د . بيلابل Dr. Bilabel ود . جراف Dr. Graf

بالاشتراك مع جروهمان Dr. A. Grehmann بدراسة مجموعة من نصوص هذه المجموعة ونشروا كتابا لهم يتعلق بالسحر والشعوذة عند العرب في سنة ١٩٣٤ ، كما امضى د . سايدل Dr. Seidel الرئيس الأسبق لقسم البردي بسكتبة الجامعة وقتا طويلا في اعداد دراسة موسعة على بعض نصوص هذه المجموعة ولكن القدر لم يمهله لنشر هذه الدراسة حيث توفي في حادث سقوط طائرة اثناء عودته من تركيا في نهاية سنة ١٩٥٩ (١٧) ،

كذلك قام البروفسور البرت ديتريش Prof. Dr. A. Dietrich مدير معهد الدراسات العربية والاسلامية بجامعة جوتنجن بدراسة نشرها في كتاب له عن (الطب عند العرب) من واقع برديات هذه المجموعة ، كما اخرج دراسة موسعة عن الجوانب الادبية والمعاملات بين طبقة العامة في كتاب له بعنوان (خطابات عربية Arabische Briefe) ولكن معظم نصوص هذه الدراسة كانت من اوراق بردي مجموعة هامبورج

Hamburg كذلك قامت الدكتورة كابلوني Frau Dr. Kabloni بدراسة على نصوص البرديات المدونة بالهيراطيقية في المدة ما بين سنة

١٩٦٠ / ١٩٦٥ حيث حصلت على درجة الدكتوراه بهذه الدراسة ، وفي الفترة ما بين عامي ١٩٦٢ الى نهاية سنة ١٩٦٤ قمت بدراسة مجموعة من نصوص هذه المجموعة تحت اشراف البروفسور البرت ديتريش وهي معدة حاليا للنشر كما شاركت في اعمال ترميم وصيانة البرديات بهذه الجامعة تحت اشراف البروفسور Richard Seider استاذ علم البرديات اليونانية ومدير قسم البردى بالجامعة حيث واصلت ما بدأه دكتور جروهمان من ترقيم وتصنيف لهذه المجموعة وقف به عند سنة ١٩٣٥ م .

وعلى كثرة ما نشره المستشرقون الالمان من دراسات علمية من وثائق هذه المجموعة فما زالت تضم بين جنباتها الكثير من الوثائق ذات القيمة العلمية ، من هذه الوثائق كتاب من ورق البردى عبارة عن كراستين في ٢٧ ورقة مكتوبة على الوجهين ، احدهما يتضمن جزءا من السيرة النبوية العطرة وبعض تفاصيل عن غزوات الرسول ، والثانية تختص بسيرة النبي داوود عليه السلام ، ويرجع تاريخ هاتين الكراستين الى سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ / ٧٢٩ م) ولشدة ما أصاب الكراستين من تلف كبير قضى على وضوح النص عزف الباحثون عن دراستهما ، ولكن اثناء زيارتي الثانية لقسم البرديات بجامعة هايدلبرج في صيف سنة ١٩٦٨ وجدت ان الجامعة العبرية بفلسطين المحتلة أرسلت باحدى مدرساتها المشتغلات بعلم البردى لتقوم على النص الخاص بقصة النبي داوود ولست ادري هل اتمت هذه الدكتورة ما قامت به من دراسات على هذا النص ام لا .

والبردية رقم ٥٢ في هذه المجموعة ذات قيمة دينية وفلسفية كبيرة والنص مدون على الوجهين بخط صغير متشابك ويبلغ طول هذه الوثيقة حوالي ٨٥ سم وعرضها ٣٠ سم ، والبردية رقم ١٧٣٦ خطاب مرسل من يحيى بن عبد السلام الى القاضي الامين المكين تاج الدين ويفهم من النص ان يحيى هذا يرعى اسرة القاضي وأولاده أثناء غيابه وانه على صلة قريى به ، وان القاضي رغم تصدده للقضاء فكان يتجر بماله في بعض السلع الواردة من عيذاب .

والبردية رقم ١٧٣٧ نموذج ادبي رفيع مرسل من مريد الى شيخ
الرباط نجد الدين ابو المجد الاشئى ، وهناك المئات من الوثائق المختلفة
التي تتصل بفن العمارة وهندسة البناء او عقود بيع وشراء ، بل هناك
الآلاف من البرديات المبعثرة في مجموعات اوروبا المختلفة هي عبارة عن
المصدر الاساسي لتأريخين المشتغلين بالتاريخ العربي والاسلامي عامة
ونظم الادارة والتاريخ الاقتصادي بصفة خاصة ومن أمثلة ذلك البرديتان
رقم ١١٢٣٥ ، ١١٢٣٦ الموجودتان بمعهد اللغات الشرقية بشيكاغو وقد
نشرتهما المستشرقة الامريكية نايبا ابوت Nabia Abbott ^(١٨) ويرجع
تاريخهما الى الدولة الاموية وقد عثر عليهما بالفيوم .

دراسة مجموعة القاهرة :

اذا ما انتقلنا الى مصر ام البردى في العالم ، ومصدرة العلوم
والحضارة والثقافة على مر عصورها التاريخية نجد انها لم تظفر من كنوزها
في هذا الميدان الا بالاقول القليل مما ظفرت به دول العالم الغربي ، وحتى
يومنا الحاضر لم تزد مجموعة مصر الموجودة في دار الكتب والوثائق
القومية بالقاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليا) على ألفي (٢٠٠٠)
بردية عربية ، يرجع الفضل في شراء نصفها وتكوين نواة لمجموعة مصر الى
B. Moritz (برنارد موريتز) الذي شغل منصب مدير عام دار
الكتب في الفترة من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٩١١ م ، ثم نمت المجموعة
وزادت اعدادها نتيجة لما اضيف اليها من بردى الفيوم والاشمونين
والبهنسا وكوم اشقاو وأدفو والدلتا وفي الستينات من هذا القرن ترك
أحد الأجانب المغرمين بجمع اوراق البردى ويدعى جورج ميخاليدس وكان
مقيما في الاسكندرية ترك مجموعة قيمة ونادرة من ورق البردى العربي ،
وطبقا للقانون الخاص بعدم السماح بخروج آثار مصر للدول الاجنبية
فقد تحفظت ادارة الآثار المصرية على هذه المجموعة لدى القضاء للفصل
في النزاع القائم بينها وبين ورثة جورج ميخاليدس ، ولست ادري اذا ما

كانت هذه المجموعة ضمت الى مجموعة دار الكتب ام ان ورثة هذا
الأجنبي تمكنوا بوسيلة ما من استعادتها والخروج بها ، واذا كان ما سمعته
بنفسي من البروفسور R. Seider عن وصول مجموعة كبيرة من
ورق البردى من مصر الى جامعة كولون Köln في غناب نكسة
١٩٦٧ صحيحا ، فاني ارجح ان اصحاب هذه المجموعة تمكنوا بوسائلهم
الخاصة من تسريبها الى المانيا الغربية منتهزين الحالة السيئة التي كانت
عليها مصر نتيجة للهزيمة المرة التي اصابتها خاصة وان هناك حالة مماثلة
قام بها ثيودرجراف سنة ١٨٨٢ م حيث خرج بمجموعة الفيوم الاولى
وكمية من أندر أنواع السجاجيد الشرقية منتهزا ضرب الاسكندرية
واحتلال مصر بواسطة القوات الانجليزية ، وما زالت هذه السجاجيد
معرضة في متحف الفن الشرقي بالحي التاسع في فينا كما شاهدتها
بنفسي (١٩) .

وتأتي مجموعة القاهرة في المرتبة العلمية والكم العددي مساوية
لمجموعة هايدلبرج لانها تضم نصوصا على جانب كبير من الأهمية العلمية
والقيمة الأثرية ، فقد قام الدكتور موريتز الذي أشرف على تكوين
المجموعة بنشر بعض نصوص هذه البرديات واستعان بها في مؤلفه عن
تاريخ الخط العربي (٢٠) وفي مقاله عن الكتابة العربية الذي نشره بدائرة
المعارف الاسلامية سنة ١٩١٠ (٢١) كما قام L. Caetani بنشر بعض
النصوص من هذه المجموعة في المجلد الخامس من المجموعة المعروفة
باسم حوليات الاسلام Annali dell' Islam (٢٢) ، كذلك قام
كارل هنري بيكر C. H. Becker باعادة دراسة مجموعة البردى
الخاصة بعهد قرّة بن شريك والتي كان موريتز قد نشر صورها فقط من
قبل ، وقدم بيكر دراسة تحليلية لهذه النصوص مع ترجمة كاملة بالالمانية
وخرج من دراسته بتقرير مفصل عن حالة مصر الاقتصادية والمالية في تلك
الفترة التاريخية والحقيقة المرة التي لا اكنها هي الدهشة
التي اصابني حينما شاهدت اصول هذه البرديات سنة ١٩٦٢

في مجموعة هايدلبرج ، ولم أتوصل الى اجابة تشفي غليلي ، ترى هل تسكن Becker من الحصول على هذه الوثائق الهامة اثناء زيارته لمصر في فترة رئاسة Moritz لدار الكتب ، ام ان موريتز نفسه استولى عليها وخرج بها من مصر عند مغادرتها قبيل الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ م ؟

والحقيقة التي ينبغي على ان اذكرها هي ان الدكتور ادولف جروهمان A. Grohmann تحمل العبء الأكبر في القيام بدراسة وافية لأهم نصوص هذه المجموعة ، وقد استغرقت دراسته لهذه النصوص مدة تزيد عن الأربعين عاما حيث بدأها سنة ١٩٢٥ م وفي سنة ١٩٣٤ م تسكن من نشر المجلد الأول محتويا على ٧٢ نصا في دراسة وافية عن البروتوكول والوثائق القانونية ، وفي سنة ١٩٣٦ م اتبعه بالمجلد الثاني متضمنا ٧٣ نصا مستكملا بها دراسة الوثائق القانونية . وفي سنة ١٩٣٩ م نشر المجلد الثالث متضمنا ٦٩ نصا في دراسة مستفيضة عن تاريخ النظم الادارية في مصر وقد أكمل هذه الدراسة في المجلد الرابع بعد انتهاء فترة الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٥٣ مستعينا بنصوص ٧٤ بردية ، ثم نشر المجلد الخامس والسادس يضمان نصوص ١٤١ بردية تنصب كلها على دراسة تاريخ الاقتصاد المصري من واقع امكاثبات الحكومية ، وبتكليف من دار الكتب والوثائق القومية قام المرحوم الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسين ومعه آخر بترجمة هذه المجلدات الستة الى اللغة العربية .

وفي الفترة التي اسند الي فيها رئاسة قسم البردى والوثائق بدار الكتب (من مارس ١٩٦٥ الى نوفمبر سنة ١٩٦٦) تمت الاتصالات بين الدكتور جروهمان وبينني على ان أقوم بالاشراف على تصحيح طبعة المجلد السابع ومقابلته على الاصول الموجودة بدار الكتب ، ويضم هذا المجلد حوالي ٧٠ نصا تختص بنظام الخراج في مصر (٢٣) وهناك اصول ثلاث

مجلدات هي الثامن والتاسع والعاشر وتقوم دراسة نصوصها على الادب واسلوب الكتابة وقد أعدها الدكتور جروهمان وجهازها للنشر ، ولكن ظروفه الصحية التي عايشتها معه في النمسا منعتة من استكمال عمله المجليل هذا ، وقد قام الدكتور عبد العزيز الدالي مدير مكتبة جامعة عين شمس بعمل دراسات ادبية ولغوية على هذه النصوص التي أعدها دكتور جروهمان من قبل وحصل بهذه الدراسة على درجة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة القاهرة في صيف سنة ١٩٦٦ م ، ولكن لا تزال هذه المجلدات الثلاثة الأخيرة تنتظر من يقوم بمراجعة اصولها التي أعدها جروهمان من قبل وتقديمها الى الطبع .

هذه عجالة سريعة لدراسة مركزه عن أهم ثلاث مجموعات من أوراق البردي في العالم قدمتها اليوم مع بيان الطريقة التي تم بها تكوين هذه المجموعات ، والسباق الذي دخلته دول اوربا لكي تفوز كل منها بذخائر تراثنا العلمي من وثائق البردي لأن علماء الغرب قدروا ما لهذه الوثائق الاصلية من أهمية علمية تمكنهم من معرفة تاريخنا وطريقة حياتنا وعاداتنا ومقومات مفاهيمنا ، بل وقفوا منها على جانب كبير من تشريعنا ونظمنا السياسية والاقتصادية بما يحتويها من جوانب مالية وادارية في فترات التاريخ المختلفة ، كما اعطتهم هذه الوثائق صورة واضحة عن معالم الثقافة العربية وعلوم العرب من ادب وثري وشعري وعلوم الطب وقوانين الأغذية وطريقة تركيب كثير من أنواع الادوية التي ما زالت مستعملة في يومنا هذا ويرجع اصلها الى نباتات واعشاب تنبت اساسا في البيئة العربية ، ولم يكن هذا هو كل ما احتوته نصوص وثائق البردي بين جنباتها بل وجد من بينها أوراق مدون عليها آيات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وبواسطة هذه الوثائق تمكنت مجموعة من المستشرقين من عمل دراسات ومقارنات على اسلوب الكتابة العربية

قديما وحديثا وبحثوا في النسخ والمنسوخ من هذه الآيات معتمدين في كل أبحاثهم على هذه المصادر العربية الإسلامية الأصلية التي لا يتطرق إليها الشك أو يعتورها التزوير (٧٤) .



الهوامش والملاحظات

(١) هذا الرأي ذكره سترابون ونقله عنه معظم المستشرقين الذين تناولوا وثائق البردي بالدراسة منهم جوزيف كرايتشك في مقدمته المحفوظة ببرنسييف مكتبه البرتينا ثم لحا كارل هنري بيكر نحوه وتابعه في ذلك البرت ديشريسن وادولف جروهمان .

Adolf Grohmann: Corpus Papyrorum Raineri Archiducis Austriae, III. Series Arabica. B. I, Teil, I-Allgemeine Einführung in die Arabischen Papyri, Wien 1924.

Josef Karabacek: Der Papyrusfund von el-Fajum Wien 1883.

Carl Wessely: Studien zur Palaeographie und Papyruskunde

Encyclopedia Americana; Vol. 21, p. 270 ff. (٢)

(٣) الفرناطي - ابو احمد الاندلسي : تحفة الإلياب ص ١٩٩ وما بعدها . المطبعة الوطنية باريس سنة ١٩٢٥ .

Encyclopedia Britanica; Vol. 17, p. 297 بحث للمستشرق

البريطاني بليني بعنوان : «Later Cultivation»

Encyclopedia Americana, Vol. 21, p. 270 ff. (٥)

(٦) القرآن الكريم - سورة الانعام (٦) الآية ٧ ، ٩١ .

Giovanni d'Athanasii; A Brief account of the researches and discoveries in upper Egypt made under the Direction of Henry Salt, London 1836. (٧)

Silvester de Sacy; Journal des Savants, Paris 1825, pp. 462-473. (٨)
462-473.

Oesterreichische Monatsschrift für den Orient, B. XI, 1885, S. 161 (٩)
A. Grohmann: Einführung U. Chrestomathie, S. 21, 43.

وقد اطلق ف. أ. ح . كنيون في كلمة الافتتاح التي القاها في المؤتمر الدولي الخامس لعلم البردي في اكسفورد (٣١ اغسطس سنة ١٩٣٧) على عام ١٨٧٧ عام الكاردينالية بالنسبة لعلم البردي العربي ، وهو يقصد بذلك تعميم هذا العلم ووصوله الى الذروة نتيجة الكثرة الهائلة لموجودات هذه الوثائق .

(١٠) ظلت هذه المكاتبات بين كرابتشك ونيودرجراف في طي الكتمان لا يدري المؤرخون أو المستقلون بعلم البردي عنها شيئا حتى تمكن الدكتور هربرت هونجر من نشرها في كتاب بعنوان :

Herbert Hunger; Mitteilungen aus der papyrus sammlung der
Osterreichischen National-bibliothek «Papyrus Erzherzog
Rainer» Wien 1962.

نحن بسبيل ترجمته الآن .

(١١) يبدو لي ان نيودرجراف انتهر فرصة ضرب الاسكندرية في يوليو ١٨٨٢ واحتلال البريطانيين لها وخرج بهذا الكنز العظيم من مصر في هذا الوقت العصيب ، بل اخذ معه مجموعة من اندر السجاجيد الشرقية لم تشاهد فيها لها مثيلا من قبل ، وما زالت بعض هذه السجاجيد معروضة في متحف الفن الشرقي بالحي التاسع بفينا .

(١٢) راجع مجلة متحف الفنون والصناعات بالمكتبة الامبراطورية بفينا ابريل سنة ١٨٨٣ صفحة ٣٩٤ وما بعدها « مجموعة بردي الفيوم - نيودرجراف

Monatsschrift für Kunst und Kunstgewerbe: Mitteilungen des
Kaiserlichen Osterreichischen Museums für Kunst und Industrie.
Führer durch Josef Karabacek, die Papyrus Erzherzog Rainer,
Wien 1894.

Die Papyrus fund von el-Fajum --- Der Zweite Fajumer (١٣)
Fund. Vgl. G. Schweinfurth; Reise in das Depressions gebiet im Um-
kreise des Fajum im Januar 1886 S-98 ff.

Mitteilungen aus der Sammlung der Papyrus Erzher Rainer. (١٤)

(١٥) راجع أرشيف جامعة هايدلبرج (قسم البرديات) سنة ١٩١٤
حيث اودعت هذه الاتفاقية بها .

C. H. Becker: Veröffentlichungen aus des Heidelberger (١٦)
Papyrus- sammlung III; Papyri schott-Ranhardt, I,
Heidelberg 1906

» » Arabische Papyri des Aphroditofundes «Zeitschrift
für Assyriologie und Verwandte Gebiete» B. XX; 1906
S. 68 - 104.

» » Neue arabische Papyri des Aphroditofundes, Der Islam,
II, 1911, S. 245 - 268.

(١٧) قامت الآنسة Enge - Lora التي كانت تعمل في ترميم وصيانة

البرديات بهذا القسم بتسليم كل ما يتعلق بهذه الدراسات الى اهل د .
سابدل ، وهناك محاولات وجهدي يذل من جانب د . ريشارد سايدر الذي
اصبح سديرا لهذا القسم واستاذا بالجامعة لعلم البردى اليوناني للحصول
على هذه الدراسات ولكنه لم ينجح حتى الآن .

Na'ia Abbott; Zeitschrift der deutschen Morgenland ischen (١٨)
esellschaft, XCII, 1938, S. 88 ff.

The Kurrah Papyrie from Aphrodito in the oriental Institute,
Chicago 1938.

» » ; The Monasteries of the Fayyum, The Oriental Insti-
tute of the University of Chicago, Chicago 1937.

(١٨) اقامت في فينا حوالي ست سنوات من نوفمبر سنة ١٩٦٦ الى
نهاية سبتمبر سنة ١٩٧٢ زرت خلالها معظم معاهد النمسا التعليمية
ومتاحفها التاريخية والفنية ، كما قضيت وقتا كافيا في قسم البرديات
والوثائق بمجموعة البرتيننا وانتهز هذه الفرصة لاقدام جزيل الشكر الى
السيدة الدكتورة لوبن شتاين Frau Dr. Loebenstein مديرة هذا القسم
وكذلك Herr (Junge) Fackelmann على ما قدماه لي من معاونـة
فعالة . وكذلك استاذي البروفسور جوتشالك Prof. Dr. H. Gottschalk
على كبير نصائحه .

B. Moritz; Arabic Palaeography; a Collection of Arabic texts (٢٠)
from the first century of the Hidjra till the year 1000,
Cairo 1905.

Enzyklopadie des Islam, B. I, S. 67 ff. Leiden 1910 (٢١)

Annali dell' Islam, vol. V, Paris 1924 (٢٢)

A. Grohmann; Arabic Papyri in the Egyptian Library (٢٣)
1934, II. 1936; III 1939, IV, 1963, V, 1956, VI, 1960,
VII, 1966.

وقد قامت دار الكتب والوثائق المصرية بترجمة المجلدات الستة الاولى
الى اللغة العربية .

(٢٤) راجع مقالنا عن تراثنا العربى في اوروبا بمجلة النشرة الصادرة
في بون المانيا الغربية العدد ٢١ ، ٢٢ يوليو اغسطس سنة ١٩٧١ .

مراجع البحث

أولاً : المراجع العربية :

- ١ - ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ق ١٠ م)
كتاب صورة الأرض - مكتبة الحياة ، بيروت (بدون)
- ٢ - ابن الفقيه الهمزاني : أبو بكر أحمد بن محمد
مختصر كتاب البلدان - بريل - لندن سنة ١٣٠٢ هـ
- ٣ - أبو العباس النباتي :
كتاب الأغذية « مقتبساً من مقدمة علم البردي لجروهمان
فيما سنة ١٩٢٤ ، ص ٦٣ ، ط سنة ١٩٥٥ »
- ٤ - دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ، دار المعرفة - بيروت ط الثالثة
سنة ١٩٧٤ .
- ٥ - دائرة المعارف ، المعام بطرس البستاني ج ٥ ط تهران (بدون)
- ٦ - دراساتي الشخصية علي مجموعات يدي فينا ، وهایدلبرج ،
والقاهرة .
- ٧ - القرناطي : أبو أحمد الاندلسي
تحفة الالباب - المطبعة الوطنية - باريس سنة ١٩٢٥
- ٨ - القرآن الكريم
- ٩ - القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي
صبي الاعشى في صناعة الإنشاء ، نسخة مصورة عالي الطبعة
الاميرية المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر
سنة ١٩٦٣ القاهرة
- ١٠ - المقدسي : أبو عبدالله محمد بن أحمد
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط الثانية ، بريل -
لندن ١٩٠٦
- ١١ - اليعقوبي : أحمد بن اسحق بن جعفر
تاريخ اليعقوبي . دار صادر - بيروت سنة ١٩٦١ .

1. Arolf Grohmann; Allgemeine Einführung in die. Arabischen Papyri. Wien 1924.
2. » » ; Einführung und Chrestonathie Zur Arabischen Papyruskunde. Praha 1955.
3. » » ; Arabic papyri in the Egyptian Library, 7 Volumes, 1934 - 1966/1967.
4. Bernard Moritz; Arabic Palaeography; a collection of arabic texts from the first century of the Hidjra till the year 1000, «Khedivial Library» Cairo 1905.
5. Carl H. Becker; Veröffentlichungen aus der Heidelberger Papyrussammlung, III; Papyri Schott-Rienhardt I, Heidelberg 1906.
6. » » ; Neue Arabische Papyri des Aphroditofundes, Der Islam, II, 1911.
7. » » ; Arabische Papyrie des Aphroditofundes. Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete, B. XX, 1966.
8. Carl Wessely; Studien zur Palaeographic und papyruskunde «übertragen von A. Grohmann; Einführung, S. 35.
9. Encyclopedia Americana; Vol. 21, 1973, Americana corporation - New York.
10. » » Britanica; vol. 17. 1973, William Benton Publisher, Chicago - London - Geneva.
11. Enzyklopadie des Islam; B. I, Leiden, 1967.
12. Giovanni d'Athanasi; A Brief account of the researches and discoveries in upper Egypt made under the Direction of Henry Salt - London 1836.

13. Herbert Hunger; Mitteilungen aus der Papyrussammlung der Österreichischen National - bibliothek «Papyrus Erzherzog - Rainer » Wien 1962.
14. G. Schweinfurth; Reise in das Depressionsgebiete im Umkreise des Fajum im Januar 1886.
15. Josef von Karabacek; Der Papyrusfund von el-Fajum, Wien 1883.
16. » » » ; Die papyrus Erzheszog Rainer, Wien 1894.
17. » » » ; Mitteilungen aus der Sammlung der papyrus Erzherzog Raines. Wien 1894.
18. OMO; Österreichische Monatsschrift für den Orient, B. XI, 1885.
19. Silvester de Sacy; Journal des Savants, Paris 1825.
20. Theodor Graf; Monatsschrift für Kunstgewerbe. Wien 1894.
21. Nabia Abbott; Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen gesellschaft. CXII, 1938.
22. The Monasteries of the Fayyum, the Oriental Institute of the University of Chicago, Chicago 1937.

سرية نخلة إهدى سرايا الرسول الهامة

عبد الجبار منسي العبيدي
طليحة التريخ / فرع التاريخ
جامعة بغداد

كلمة السرية لغة تعني قطعة من الجيش ما بين ٥ - ٣٠٠ (١) ، أو هي من الخيل نحو اربعمائة ، أو قطعة من الجيش على وزن فعيلة بمعنى فاعلة وجمعها سرايا (٢) . واصل التسمية مأخوذة من أنها تسري ليلا في خفية، أي تتحرك في تكتم وتستتر لئلا يندر بها العدو (٣) . وأما افرادها فهم من خلاصة العسكر وخيارهم مأخوذ من الشيء السري أي النفيص (٤) .

أما سرايا الرسول (ص) فهي الحملات أو البعثات أو المفارز التي بعث بها النبي (ص) للاستطلاع أو القتال دون ان يشترك في معظمها ، أي لم يخرج فيها بنفسه ، وأولها سرية حمزة بن عبد المطلب وآخرها سرية أسامة بن زيد الى بني مذحج باليمن (٥) ، وكانت جملة بعثته وسراياه سبعا واربعين سرية (٦) ، وقد يطلق أحيانا على السرية غزوه ولكن ذلك قليل ، فالغزوة هي التي اشترك فيها الرسول بنفسه ، وهي تسع فقط ، بدر القتال وأحد والمريسع والخندق وقريظة وخيبر والفتح (فتح مكة) وحنين والطائف (٧) .

ومن ضمن هذه السرايا ، سرية عبدالله بن جحش الاسدي ورفاقه الثمانية (٨) الذين سيأتي ذكرهم فيما بعد ، وهذه السرايا كانت أشبه بدوريات أو مفارز استطلاعية قام بها الرسول للاستكشاف والتعرف على الطرق والمسالك المحيطة بالمنطقة (المدينة) والمؤدية الى مكة ، واختبار مدى قوة القبائل المحيطة بالمنطقة . ويبدو لنا ان هذه السرايا بدأت

فكرتها لديه صلى الله عليه وسلم مع فكرة مقاومة قريش ولادراك مدى استعدادهم للقتال او اعتزامهم على خوض غماره وضرب خطوط تجارتهم الى الشام ، وتجارتهما الى الشام تعني مورد الحياة الرئيسي لها ماديا ومعنويا (٩) .

وهكذا بدأت السرايا الاولى كسرية حمزة وعبيد بن الحارث وغيرهما ، ولكن اغلب هذه السرايا لم تصطدم بقوافل قريش او حتى في حالة الاصطدام ، لم يحدث قتال ولم يهرق دم (١٠) ، لأن هذه السرايا لم يقصد بها القتال في اغلب الأحيان ولأنها غير قادرة عليه ، وحتى او ارادته فهي ضعيفة لا تقوى على الاصطدام ، ولا تصلح لقتال هجومي مطلقا ، لا سيما وان قوافل قريش كانت كبيرة وقد اخذت لها الحيلة في حراستها منذ هجرة الرسول الى المدينة ، وخاصة الطرق الساحلية .

والاكثر ترجيحا ان لا يكون القصد من هذه السرايا او المفارز نهب تجارة قريش ، استخلاصا لأموال المهاجرين المتروكة في مكة ، بل تهديد طرقها وضرب تجارتها ووضعها في موضع الامتحان ، وقد كان لهذه السرايا تأثير واضح على موقف المسلمين حيث انتزعوا زمام المبادرة في القتال (١١) . وبهذه السرايا اصبحت قوافل قريش عرضة للمهاجمة، وحتى الطرق الساحلية المحروسة من قبل قريش اصبحت لا تبعد عن المدينة سوى ثمانين ميلا . ولكن هذه السرايا كانت تعود غالبا قبل نجدة مكة لقوافلها (١٢) .

لقد كانت هناك اسباب ودوافع دفعت الرسول (ص) الى تجهيز هذه السرية فبعد ان هاجر الرسول من مكة الى المدينة حيث نظم امورها كي يسود السلام مجتمع المدينة . كان طبيعيا بعد ذلك كله ان يعمل على تحقيق رسالته في الحياة ، وهو تبليغ الرسالة ، فاتجه بفكره الى قريش وما كانت تتخذه من اجراءات لمقاومة نشر الدعوة ، ثم ما ترتب على هجرة المسلمين من حرمانهم من زيارة البيت الحرام ، وهو واجب ديني مقدس

عندهم ، فلا بد والحالة هذه من عمل ايجابي يقوم به المسلمون ازاء كفار قريش ليفهموهم على الأقل ان مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين ، ولم يكن هذا التفاهم ممكنا ، ما لم تقدر قريش قوة المهاجرين من ابنائها ، وذلك بالضغط عليها اقتصاديا بقطع او تهديد طرق تجارتها ، ولذا عمد محمد (ص) بعد احد عشر شهرا من مقامه في يثرب على تأليف سراياه^(١٣) ، لتقوم هذه السرايا بأعمال عسكرية مسلحة على الطريق الساحلي الذي يوصل الشام بمكة ، كما حاول في الوقت نفسه موادعة القبائل المقيمة على هذا الطريق والتحالف معها تحالفا يزيد من ضغطه على قريش كي تسرع في التفاهم معه ، وكان الرسول (ص) كان يرى ببصيرته ان وراء المسلمين كفاحا طويلا شاقا قبل ان يستعوا بنعيم حريتهم الدينية .

لقد كانت الظروف التي هاجر فيها الرسول (ص) ظروفًا حربية أوجدها زعماء مكة أنفسهم عندما أهدروا دمه وخفروا ذمته^(١٤) ، فهذا يعني الحرب ولا شيء سواها ، فطبيعي والحالة هذه ، ان يعمل كل من الفريقين - مكة والمدينة - عسكريا وسياسيا واقتصاديا الواحدة ضد الاخرى ، فاستعمال السلاح والتهديد والغزو والترصد ، ومعرفة كل جانب ما يدور في الجانب الآخر واضعاف شوكلته بأية وسيلة ممكنة ، لهو من الامور البديهية ، فلا يلام فريق اعلنت عليه الحرب وصمم اعداؤه على الفتك به أينما وجدوه ، اذا ما تربص بقريش الدوائر ورسم الخطط لكسر شوكتهم ومنع اذاهم . وهذا ما حصل فعلا بالنسبة لاهداف السرايا والتي من ضمنها سرية عبدالله بن جحش الاسدي الى نخلة^(١٥) ، فسرايا الرسول ألقت من أجل الترصد ومعرفة الاخبار والاستطلاع أحيانا والتظاهر بالقوة والتهديد أحيانا اخرى^(١٦) ، ضد المشركين . فهي معارك جانبية أملت على المسلمين طبيعة الظروف العسكرية القائمة بينهم وبين اعدائهم .

لقد كانت الفترة التي تلت هجرة الرسول (ص) حتى معركة بدر الكبرى حوالي تسع عشرة شهرا^(١٧) ، وفي هذه الفترة الزمنية لم يحدث أي صدام دام بين مكة والمدينة ، اللهم الا ما حدث في السرية التي

قادها عبدالله بن جحش الاسدي والتي كانت بمثابة القليل لاشعال نار الحرب بين الرسول (ص) وخصومه بدليل حدوث معركة بدر مباشرة بعدها بشهرين (١٨) .

والحقيقة ان النظرة التاريخية لاهداف هذه السرايا قصد بها على ما يبدو امور عديدة هي :

اولا - هدف استطلاعي ، وذلك باعداد قوات رمزية تطوف ما بين مكة والمدينة مهمتها كشفية استطلاعية حتى تكون المدينة في مأسن من أي هجوم مباغت من جانب قريش .

ثانيا - العمل على الاقتراب من قريش في عقر دارها واشعارها بقوة الخصم لها .

ثالثا - كما يبدو ، وهو ان الرسول (ص) كان يفكر دائما في اشغال المهاجرين من انصاره الذين ربما يصيبهم الملل والسأم من البقاء في المدينة بلا عمل تاركين ما يملكونه في مكة ويشعرهم بأهمية الهجرة والدعوة معا ووجوب العمل المستمر على انجاحها وتصميمه الأكيد على ذلك ، وفي هذا يجب ان يكون الاستعداد الدائم للحرب النظامية وهذا أكثر اجهادا من القتال نفسه ، وفي هذا كسب معنوي للرسول (ص) وجماعته ، ولهذا الفرع المستمر صداه في مكة وهذه غاية الرسول (ص) من هذا العمل .

ولا بد لنا من الاشارة الى ان هناك دوافع اخرى لهذه السرية بالذات ، منها تهديد تجارة قريش وقد نجح الرسول (ص) في ذلك ، اذ ارغمت أكثر القوافل التجارية على تجنب الطرق المسلوكة منذ ابعاد العصور وراحت تتنكب في سبل وعرة عبر الصحراء حينا ومساحلة البحر مع الرقابة الشديدة حينا آخر ، وفي هذا خسارة لقريش من مال وجهد

ووقت (١٩) . وقد يبدو ان هناك شيئا آخر له من الاهمية نصيب ، وهو ارباب اليهود الذين يقيموا في المدينة واشعارهم بأن ما يفعله المسلمون خارج المدينة يمكن ان يكون داخل المدينة ، ولو ان اليهود لم يفكروا قط مضارحته العداء في بداية الهجرة خوفا على تجارتهم ومركزهم المالي ، لذا حاولوا ان يعملوا ضده بصورة غير مباشرة كالدس وايقاظ الاحقاد القدسية بين الاوس والخزرج ، وقد ظهر ذلك جليا واضحا بعد معركة بدر ثم ما تطور اليه بعد أحد (٢٠) . ناهيك عن قصده (ص) تدريب هؤلاء المجاهدين على القتال واكسابهم الخبرة والسيطرة على عادة الغزو والسطو عند العرب (٢١) ، وايجاد نوع من توازن القوى بين مكة والمدينة وذلك بالعمل على تأكيد سيطرة المدينة على المنطقة الشمالية ، في الوقت الذي تسيطر قريش على المنطقة الجنوبية ، وقد تكون هناك رغبة في الكسب المادي للدولة التي كانت بلا شك بحاجة ماسة للمال لادارة شؤونها ومجابهة الاحتمالات المالية المترتبة عليها مستقبلا .

تلك هي الأسباب والدوافع التي املت على الرسول (ص) تجهيز السرايا بعد ان قام في المدينة وبعد ان لمس ان قريشا لا تصغي لصوت الحجة والدعوة الى الاسلام ، حتى كانت بيعة العقبة الكبرى التي كانت بمثابة مفترق طريق في سياسة الرسول (ص) ، فلقد اذن محمد (ص) لمسلمي مكة بالهجرة الى المدينة تمهيدا لانتقاله اليها واتخاذها قاعدة للعمل الحاسم ضد قريش ، واذن الله لمحمد بالقتال دفاعا عن الدعوة الجديدة (٢٢) .

وتنفذا لهذه السياسة كانت سرية عبدالله بن جحش الاسدي في رجب من السنة الثانية للهجرة (٢٣) ، مع ثمانية (٢٤) من المهاجرين ليس فيهم أحد من الانصار (٢٥) ، بل كانوا جميعا من المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق ولكل منهم قصته في احتمال الاذى ، وقد عرفوا باخلاصهم وتفانيهم من أجل الرسول (ص) ودعوته الى التي آمنوا به طوعا وعن اقتناع وتحملوا من قريش الكثير ، يضاف الى ذلك رغبتهم

الملحة في ايداء قريش بأية وسيلة كانت ، وخشية من احتمال اضطراره قتال قريش ، الف هذه السرية من المهاجرين فقط وفقا لنص بيعة العقبة الكبرى مع الانصار الذين لم يبايعوه على حرب هجومية خارج المدينة (٢٦) . والاكثر احتمالا ان الرسول (ص) كان يدرك ما لهذه السرية من مهمة وخطورة بالغة ، لذا كان لا يريد اشراك شخص لا يتحمل مسؤولية موته فيما بعد ، بالاضافة الى ظروف أهل المدينة واستقرار حياتهم بخلاف المهاجرين الذين كانوا في قريش عدوهم الأول سالب حريتهم وأموالهم وديارهم وكل ما لهم من سلطة ونفوذ في مكة .

هؤلاء المهاجرين الثمانية هم : سعد بن ابي وقاص : واقد بن عبدالله ، عتبة بن غزوان ، عامر بن ربيعة ، ابو حذيفة بن عتبة ، خالد ابن البكير . سهيل ابن بيضاء ، وعكاشة بن محصن ، بينما الطبري يستبعد خالد بن البكير ويضع محله عمار بن ياسر ، ويقول عن عامر بن ربيعة عامر ابن فهيرة ، وقائدهم عبدالله بن جحش الاسدي (٢٧) .

اما قائد السرية فهو ابو محمد عبدالله بن جحش بن رباب بن يعمر من بني اسد واهله امية بنت عبد المطلب عمه رسول الله (ص) ، وهو حليف لبني عبد شمس وقيل حليف لحرب بن امية ، وقد سبق الى الاسلام قبل دخول النبي دار الارقم بن ابي الارقم وهاجر الى الحبشة والمدينة ، واخته زينب بنت جحش زوجة رسول الله (ص) وهو الذي شهد بدرًا وقتل يوم أحد وعمره نيف واربعون سنة ودفن مع حمزة عم النبي في قبر واحد (٢٨) .

اما الثمانية الآخرون الذين اشتركوا في السرية فهم :

١ - سعد بن ابي وقاص ، واسم ابي وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف ، واهله حمزة بنت سفيان بن امية بن عبد شمس ، اسلم وعمره سبع عشرة سنة ، وهو أحد الذين شهد لهم الرسول (ص) بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى بعد خلافة عمر ، شهد بدرًا وأحدًا

والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) وهو من أقارب رسول الله حيث يجتمع معه في عبد مناف وهو قائد القادسية وفاتح المدائن وباني الكوفة ، وقد استماله معاوية بن ابي سفيان اليه ضد الامام علي (ع) فأبى ذلك وتوفي ودفن في العقيق على بعد سبعة أميال من المدينة سنة ٥٤ هـ ، ٥٥ هجرية وكان آخر المهاجرين موتاً . وقد استخدمه الرسول (ص) ضمن الذين كان يعتمد عليهم في نلس الأخبار (٢٦) .

٢ - واقد بن عبدالله بن عبد مناف من بني تميم حليف بني عدي بن كعب وهو الذي بعثه الرسول (ص) في هذه السرية ، اسلم قبل دخول النبي دار الارقم ، وهو أول رجل قاتل من المسلمين ، وعمر بن الحضرمي أول مقتول على يده ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله (ص) وتوفي في عهد عمر بن الخطاب (٣٠) .

٣ - عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب حليف بني نوفل بن عبد مناف وهو سابع سبعة في الاسلام وقد هاجر الى الحبشة وعمره اربعون سنة ثم هاجر الى المدينة مع المقداد اثناء التقاء سرية عبيد بن الحارث مع عكرمة بن ابي جهل ، وقيل انه مات سنة ١٧ هـ بسعدن بني سليم ، وقال المدائني انه مات بالربذة وهو ابن سبع وخمسين سنة ، وقد عين أميراً على البصرة في عهد عمر بن الخطاب (٣١) .

٤ - عامر بن ربيعة بن كعب بن مالك العنزي ، وهو من عنز وائل أخو بكر وتغلب ابني وائل ، وهو حليف آل الخطاب ، اسلم بسكة . وهاجر الى الحبشة والمدينة ، وامراته ليلى بنت ابي حشمة ، وقيل ان ليلى اول امرأة هاجرت الى المدينة ، وهو من الذين شهدوا بدرًا وسائر المشاهد مع رسول الله (ص) وتوفي سنة ٣٣ هـ (٣٢) .

٥ - ابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي ،

وامه فاطمة بنت صفوان بن اميه ، وهو من السابقين في الاسلام ،
وهاجر الى الحبشة والمدينة وقتل يوم اليمامة وعمره خمس وثلاثون
وقد أسلم قبل دخول النبي (ص) دار الارقم ، ويقال ان اسمه
مهشم وقيل هيثم وقيل هاشم وقد مات ابوه كافرا بمكة (٣٣) .

٦ - خالد بن البكير بن عيد يا ليل حليف بني عدي بن كعب من السابقين
في الاسلام شهد بدرًا واستشهد يوم الرجيع سنة ٤ هـ وهو ابن اربع
وثلاثون سنة ، وكان جده حليف لآل الخطاب (٣٤) .

٧ - سهيل بن البيضاء ، والبيضاء أمه وأبوه وهيب بن ربيعة بن هلال بن
مالك ويقال ان امه هي دعد بنت جحدم بن الحارث بن فهر وهو
ابن عمها ، اسلم بمكة ولم يستخف باسلامه أبدا وهاجر الى
المدينة وشهد مع النبي بعض المشاهد ، ومات بعد وفاة الرسول (٣٥) .

٨ - عكاشة بن محصن بن مرثان بن قيس بن خزيمة ويكنى بأبي محصن ،
شهد بدرًا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) ومن الذين
بعث بهم رسول الله (ص) الى الغمرة (٣٦) في اربعين رجلا ، وقتل
في خلافة ابي بكر وعمره احدى واربعون سنة وهو من زملاء
عبدالله بن جحش في سرية نخلة (٣٧) .

من دراسة حياة هؤلاء الرجال يبدو لنا جليا ان اختيارهم من قبل
الرسول (ص) لم يكن مصادفة او اعتباطا ، بل بطريق الاختيار والمعرفة
الأكيدة من حيث الايمان والولاء للدعوة والبذل والتضحية والفداء في
سبيلها ، وبهذا الخصوص يقول الواقدي (٣٨) : ان الرسول (ص) عندما
دعا عبدالله بن جحش لتكليفه بأمر السرية كان اتفاقه مسبقا مع هؤلاء
الرجال الذين يعرف معدنهم واخلاصهم ، وكان يدرك تماما ما يفعل وهو
الحريص الاول على مصلحة الدعوة ، والماهر الخبير بمن يستخدم لها ،
وناحية اخرى تبرز في دراستهم وهي ان اغلب هؤلاء الرجال من قبيلة

واحدة وحلفاء فيما بينهم قبلها (٣٩) وقائدهم ينتمي بالنسب الى رسول الله عن طريق الام (٤٠) .

اما بخصوص تعليمات الرسول لقائد السرية فقد ذكر الواقدي، عندما دعا رسول الله (ص) عبدالله بن جحش وكلفه بالمهمة طلب منه ان يأتيه مع الصبح الباكر ومعه سلاحه ، وعند اللقاء به وجد عنده جماعة من الرجال سبقوه لمقر الرسول (ص) (٤١) ، وهناك تسلم منه الكتاب الذي هو عبارة عن صحيفة من أديم خولاني (٤٢) ، وأمره ان لا يفتح الكتاب حتى مسيرة ليلتين على ان يسلك النجدية (٤٣) ، ولم يفتح الكتاب حتى وصل الى بئر ابن ضميرة (٤٤) في نفس المكان الذي حدده الرسول لفتح الكتاب ، وبعد فتحه للكتاب وجد فيه :

« اذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من اخبارهم (٤٥) » ، يبدو أن الرجل قد نفذ أوامر الرسول تماما ، فعندما فتح الكتاب في المكان المعين له من الرسول (ص) ، اخبر رفاقه بما في الكتاب ثم قال لهم :

— ان رسول الله نهاني ان استكره احدا منكم ، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معي ، ومن كره ذلك فليرجع ، لكن الجميع قد استجابوا له (٤٦) . ولو أن هذه الاستجابة لم تكن وليدة ساعة فتح الكتاب ، لأن ابن جحش لم يكن على اتفاق مسبق معهم ، بل الذي يظهر ان الرسول كان قد اتفق على المهمة ونوع العمل الذي سيقومون به (٤٧) . ويظهر لنا أيضا ان قائد السرية كان يريد بمخاطبته لهم ساعة فتح الكتاب اثارة حوافز المهمة في صدور هؤلاء الرجال وهذا أمر أدركه الرسول (ص) كان يعرف من هم هؤلاء الرجال وما مقياس عقيدتهم واستعدادهم للتضحية في سبيل المهمة ، ويظهر لنا ان ترك الخيار لهم في هذا الموطن كان لزيادة الثقة والرضا وليقوموا على عملهم بشهامة ونبل وتضحية ، كما أن عامل التخير لخوض المخاطرة بالرغبة والتطوع أنفع من الأوامر والسلطان .

ومن تعليمات الرسول (ص) لقائد السرية يبرز لنا عامل هام لا بد من الإشارة اليه ، وهو سرية توجيه جماعة الكشف والاستطلاع وذلك للاحتفاظ بسرية الامر الذي وكل اليه ، وليجهل كل فرد في المدينة انى ابن يقصد عبدالله بن جحش ، فلا يكتب بهذا لقرشي لأن الرسول نفسه كان يعمل بهذا المبدأ ، مبدأ الحصول على المعلومات ^(٤٨) ، وهنا تظهر لنا أهمية العناية باستقصاء المعلومات من الاستكشاف واستجواب الاسرى والاحتفاظ بسرية الأوامر والترتيبات للمعركة .

ويظهر ان القسم الهام من هذه الرسالة المختومة كان يتعلق بسريتها وهدفها معاً ، فلم يكتب الرسول بتلك السرية الى قائد الحملة التي ضمنها تلك الرسالة والتي لم يعرف محتوياتها سوى الرسول وكاتبه ابن ابي وواحد او اثنين من مستشاريه الثقة ، وأمر ان تسلك الحملة طريق نجد باتجاه الشرق مع ان هدفها كان ناحية الجنوب ، وقد قام بلا شك بذلك لكي لا يعطي فرصة لجهاز التجسس المكي من ان يعرف هدف المسلمين . وعلى أية حال كان لزاماً على الرسول اتخاذ تلك الاحتياطات الهامة حيث تقع نخلة اقرب من مكة منها الى المدينة ^(٤٩) . فلو حدث ان تسربت أخبار عنها لكان مصيرها الفشل حتماً وهذا ما كان يتوخاه ^(٥٠) .

هل خالفت السرية أوامر الرسول ؟

يبدو لنا من دراسة نص الكتاب الذي سلم لعبدالله بن جحش ان الرسول لم يأمر بالقتال ، بل امرهم بالترصد ومعرفة الاخبار ^(٥١) . حيث لم تذكر كلمة قتال في كتابه . ثم هناك تأنيبه لهم على فعلتهم وقتالهم وايقاف العير والاسيرين وعدم التصرف بهم مما يدل على عدم الرضا عن العمل ^(٥٢) ، ويظهر هنا ان كلمة ترصد يقصد بها اخذ الحذر والحيلة وليس ايقاع القافلة في الكمين ، وهنا لا تلقى المسؤولية على الرسول بسبب من اريق دمه في ذلك الشهر الحرام ، ولكن ليس هناك من شك في ان الرسول ارسل رجاله المهاجمين في مهمة من المؤكد ان بعض القتلى سيقعون فيها منهم أو من الاعداء وليس لدينا ما يؤكد بأن الرسول

(ص) كان يعلم بالتأكيد بأن تلك القافلة ستمر من هذه المنطقة (نخلة) ولكن من الممكن ان الرسول كان قد وضع في الحسبان بأن قافلة تمر بين مكة والطائف لا تكون مزودة بحراسة شديدة ، وذلك بسبب الامان انسبي لذلك الطريق الذي تسلكه القوافل الى سورية والذي يحتم عليها ان تمر بالقرب من المدينة والاحتمال الاكثر ترجيحاً ان الرسول (ص) اعتمد على الاحتمالات العامة وليس على معلومات محددة واضحة (٥٣) . لا بد لنا ايضا من دراسة الظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة بالرسول وجماعته والحكم على هذا التصرف . فالمشكلة هنا مقاتلة قريش في الأشهر الحرم ، ففي مثل هذه الاشهر لا يحدث قتال ولا يجوز فيها اراقة الدماء (٥٤) . فهل للنبي ان يتقبل هذا العرف على انه قانون ، وهل له ان يتبع تقاليد الجاهلية في القتال باعتباره عربياً يجب ان يخضع للعرف الذي تداولته القرون ، ويبدو أن الرسول أخذ بهذا المبدأ باعتباره ان الله لم يبدل في هذا العرف ولم يأت من الله ما يشير الى الغائه لانه لم يرتح لهذا التصرف ، فهو لم يعثهم حسب أوامره - للقتل أصلاً بل لتقصي أخبار قريش ، وما أمرهم ان يقتلوا أو يأسروا أحداً في الشهر الحرام .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان النقص للقانون القبلي آثار عاصفة من الاستنكار في المدينة نفسها (٥٥) ، فما كان من الرسول الا ان أظهر عدم رضاه من عمل اصحابه الذي تم وفقاً لرغباته بلا خوف وعزاء الى سوء فهم لاوامره ولم يجرؤ على اعلان شرعية الحرب في الاشهر الحرم الا بعد نزول الآية الكريمة « يسألونك عن الشهر الحرام ... » ، ويظهر ان موقف الرسول لم يمكنه بعد او لم يكن من القوة بحيث يجاهر بقتال قريش في مثل هذه الأشهر المحرمة لأنه ما زال في دور الاعداد والتكوين للقوة المسلحة المناهضة لقريش القوية آنذاك (٥٦) .

لذا وبعد نزول الآية التي أشرنا اليها حدث تطور تشريعي أحل قتال العدو في أي زمان ومكان ما دام العدو مصمماً على الفتك بالمسلمين

ودعوتهم واتساع الهوة بين المعسكرين • وصمم المسلمون على ان لا يتركوا فرصة تسنح لهم للايقاع بعدوهم الا اغتسموها (٥٧) ، كما ادرك قادة مكة ان المسلمين مصممون على محاسبتهم عسكريا على كل ما ارتكبوه بحقهم من سيئات ، ومن جهة اخرى ادركت قريش بثاقب بصيرتها ان تجارتها مع الشام وهي العنود النقري لحياتها أصبحت مهددة تهديدا خطيرا بعد تركيز الرسول في يثرب (٥٨) التي تتحكم في طريق القوافل الرئيسي بين مكة والشام ، وهذه هي احدى النتائج التي كانت تخشاها مكة من افلات محمد من قبضتها قبل الهجرة للمدينة • ان النظرة الواقعية لمخالفة عبدالله بن جحش لأوامر الرسول تبرر له ما حدث فالذي يظهر لنا من دراسة أحداث السرية ان الرجل كان في موقف لا يسكن معه ان يفعل غير الذي فعل ، لأن دخول القافلة للحرم المكي ، وهي ليست ببعيدة عنه (٥٩) سوف يجعلها في مأمن من القتال ويمنعهم من مهاجمتها بأية طريقة كانت ، أم انهم ظنوا ان الشهر الحرام قد انتهى ويبدأ شهر شعبان الذي يحل فيه القتال ذلك أمر غير مقبول ، وان الرسول كان يعلم ان الكمين سوف يحدث خلال ذلك الشهر وما قيل عدا ذلك فهو ضرب من التخمين •

اهمية اختيار نخلة وما نتج عن هذا الاختيار :

لقد وصف جغرافيو العرب الارض التي بين مكة والمدينة بأنها وعرة موحشة ، لا يصادف فيها المسافر ما يخفف عنه السفر ويتخللها طريقان احدهما شرقي محاذ لبلاد نجد ، والآخر غربي محاذ لساحل البحر (٦٠) • أما الطريق الذي سلكه الرسول وصاحبه من جبل ثور (٦١) الى المدينة فهو الطريق من أسفل مكة ثم مضى الى الساحل حتى عارض الطريق أسفل عسفان (٦٢) وتبعد عن مكة ستة وثلاثين ميلا أسفل آمج (٦٣) ثم سلك الخرار (٦٤) ثم الجداجد (٦٥) ثم وادي العقيق (٦٦) ، المؤدى الى المدينة • ومن دراسة هذه الرحلة الشاقة من مكة الى المدينة نشاهد ان الرسول سلك الطريق الساحلي مع التعرجات والالتواءات هنا وهناك

خشية كشف أمره ، وقد مكنته هذه الرحلة من معرفة الطرق وأهميتها بالنسبة لخطط المستقبل ناهيك عن ان الرسول كان التاجر الذي يتردد على الشام ، صاحب الخبرة في هذه الطرق التجارية . وقبل دراسة سبب اختيار نخلة لا بد لنا من معرفة هذه المنطقة بالذات . يذكر الهمداني^(٦٧) ، صفة جزيرة العرب ، ان جبل السراة الذي يصل ما بين اقصى اليمن والشام ليس بجبل واحد ، ان هي جبال متصلة على نسق واحد عرضها اربعة ايام في جميع طولها وتقطعها الاودية ، منها وادي نخلة وفيه الموز والخضر والمياه الغزيرة التي تأتيه من الجنوب ، ويظهر ان مواضع العبادة هي مكة وايلياء واللات بأعلى وادي نخلة . وان الفرع^(٦٨) قرية من قرى وادي نخلة ، وهذا الوادي يمتد من الحرة^(٦٩) الواقعة شمال عشيرة^(٧٠) غربا حتى يجتمع بوادي نخلة اليمانية ثم يكونان واديا يدعى مرء الظهران^(٧١) ويصب في البحر الاحمر جنوب مدينة جدة^(٧٢) وفيها بستان ابن عامر . ويقال ان الحجاج الذين يأتون من البحرين وعمان يجتمعون بالبوابة^(٧٣) أعلى منطقة نخلة . اذ لا بد لهم قبل ذلك من المرور بمكان الاحرام^(٧٤) وهذا يعني ان منطقة نخلة نفسها أرض لا يجوز فيها القتال وهذا قد يفسر لنا سبب حلق عكاشة بن محصن رأسه تسويها لقافلة ابن الحضرمي قبل قتله كي لا تفكر القافلة بأن هؤلاء جاؤا لمهاجمتها^(٧٥) ، ووادي نخلة يقع بين مكة والطائف والذاهب اليه يسلك النجدية ، لذا نرى الرسول يوصي قائد السرية بسلوك هذا الطريق ، ومدينة مكة تقع بين شعاب الجبال وطولها من المعللة الى السفلة نحو ميلين وهذا يدل على ان نخلة من ضمنها^(٧٦) . ان المسافة بين مكة وبستان ابن عامر في وادي نخلة مرحلة واحدة^(٧٧) ، أي فرسخ واحد ، وهذا يؤيد انها جزء من مكة ، ووادي نخلة من الاودية الخصبة التربة والمتلىء زراعة .

ومن دراسة موضع نخلة والطريق المؤدي اليها ، يظهر لنا ان هدف الرسول من اختيار هذا الموقع يعود لعدة اسباب ، منها انها ممر للقوافل الذاهبة الى مكة واقرب نقطة اليها وهي منطقة ليست في حسيبان

قريش من حيث التهديد ولاشعار قريش بقوة وخطر المدينة بالإضافة الى أهمية هذا الموقع واستراتيجيته من الدفاع والهجوم ضد المدينة .

تخلف سعد وعتبة عن السرية :

تجمع اغلب المصادر التاريخية على تخلف سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان عن سرية عبدالله بن جحش الى نخلة (٧٨) ، وقد كانت بداية هذا التخلف من معدن (٧٩) منطقة بحران فوق الفرع وتجمع اغلب تلك المصادر على ان هذا التخلف كان بسبب فقدانهم راحله ضلت الطريق (٨٠) ، ويبدو أن جماعة السرية كانوا كل اثنين يركبان بعيرا بالتناوب ، وان سعد وعتبة كانا على راحلة واحدة تعود لعتبة (٨١) . ولما ضلت تلك الراحلة الطريق ظلا يتعقبانها ويفتشان عنها الامر الذي أدى الى تخلفهما عن السرية ، ويبدو ان قائد السرية لم يعر للامر أهمية ، لا سيما وانه اعلمهم مقدما بعدم اهتمامه بمن يرغب في العودة او التأخر حين خيرهم في الرجوع الى المدينة أو في السير معه الى نهاية المهمة (٨٢) .

ويبدو لنا من دراسة ظروف هذه السرية ان ترددا قد حدث عندما تليت رسالة الرسول (ص) عليهم ، رغم استجابتهم جميعا في بداية الامر وهذا التردد قد يعود الى شعورهم بخطورة تلك المهمة التي ارسلوا من اجلها ، وقد يكون من الأرجح ان شكا قد ساورهم بأن تلك العملية حرام ، او ما الى ذلك من تصورات اخرى ، فالعربي عندما يفور دمه ويوجد في وسط الخطر فهو جسور مقدم الى حد الاندفاع ، ولكن في لحظات الهدوء والاسترخاء يحاول قدر استطاعته تجنب الخطر (٨٣) . وقد يفسر هذا طلب النبي (ص) من قائد السرية بأن يعيد الى المدينة أي رجل لا تكون رغبته كلية في الذهاب وتنفيذ تلك العملية ، لذا فان رواية التخلف لسعد وعتبة جديرة بالدراسة والاهتمام .

لقد بين الرجلان عند رجوعهما الى المدينة بعد بضعة ايام بأن

راحلتها قد فقدت (تاهت) في الصحراء ، وقد سبب ذلك انقطاعهما عن جسارة السرية عندما حاولوا البحث واللقاء بهم^(٨٤) . وقد يشك في صحة هذه الرواية لأن الحقيقة انهما قضيا وقتا طويلا في ديار بني سليم^(٨٥) ، وهي قبيلة ينتمي اليها عتبة بن غزوان ، وان الرسول قد طالب بعودتهما اثناء عملية تبادل الاسرى ، لأن الرسول (ص) لا يعرف مكان سعد وعتبة ، لذا طلب من المشتركين التريث في الحل النهائي لحين عودة صاحبيه سعد وعتبة خوفا من أن يكونا اسيرين أو ما زالا في الطريق وهما في خطر الاعتقال^(٨٦) . لكن لم يتوفر لدينا أي دليل على ان الرجلين كانا اسيرين لدى قريش ، والاكثر احتمالا ان التخلف قد حدث عمدا بسبب شكوك كثيرة راودتهما اثناء قراءة الكتاب أو انهما كانا على اتفاق مسبق بالتردد عن هذه المهمة ، ويؤيد هذا ان عملية فقدان الراحلة لم يكن سببا معقولا للتخلف ان كان هناك فقدان للراحلة كانت قريبة من هدف السرية ، ولم نجد ما يشير الى ان فقدان الراحلة قد تم في المنطقة الصحراوية البعيدة ، ناهيك عن انهما قد خرجا من المليحة^(٨٧) ، على شكل نوبة^(٨٨) من الناس وهذا يدل على انهما كانا عند تلك الجماعة وعند قدومهما للمدينة وجدا نفرا من قريش قد قدموا في فداء اصحابهم . ولكن الرسول (ص) لم يقبل حتى قدومهما وعندئذ تمت المفاداة^(٨٩) . وقد تكون هناك قصص وضعت لتشويه سمعة الرجلين لكن هذا الاحتمال على ما يبدو ضعيف .

ماذا حدث في نخلة ؟

لا بد من الاشارة الى بداية الرحلة المليئة بالاعطال حيث بدأت بالمكان والزمان الذي فتح فيه قائد السرية كتاب الرسول السري ولا بد من تحديد هذا المكان لمعرفة المسافة بينه وبين الهدف (نخلة) ، ويذكر الواقدي^(٩٠) ، ان عبدالله ابن جحش قد سلك النجدية ، وقد فتح الرسالة بالقرب من بئر بن ضميره ، ثم توجه الى نخلة فوصلها مع بقية الرهط ، وهناك شاهدوا عيرا لقريش تحمل خمرا وزيبيا وأدما وتجارة فيها عمر بن

الحضرمي وانحكم بن كيسان وعثمان بن عبدالله وأخوه نوفل (٩١) ،
فلما رأهم القوم هابوهم أي احترموهم أو خافوهم حتى اقترب منهم
عكاشة بن محصن بعد أن حلق رأسه فائلمانوا (٩٢) ، وقالوا لا بأس
عليكم منهم (٩٣) ، وبعد هذا التردد في مهاجمتهم ذلوا والله لئن تركتموهم
هذه الليلة ليدخلن الحرم فليستنعن به منكم ولئن قتلتموهم في الشهر
الحرام (٩٤) ، وجرت مناقشة فيما يخص أمر الهجوم أم لا ؟ ويبدو أن الأمر
قد استقر بينهم بضرورة الهجوم على القافلة وأخذ تجارتها وأبلها ورجالها
أن أمكن ، ويبدو أن حلق (٩٥) عكاشة لرأسه لإبعاد الشبهات عنهم
والتظاهر بأنهم حجاج إلى البيت ، ولكن لم أجد رغم بحثي المتواصل
في العادات العربية القديمة عن حلق الرأس ما يبرر هذا سوى ما يذكره
اليقوي (٩٦) بهذا الخصوص ولربما كان حلق الرأس لسبب آخر ، وقد
تكون هناك عادة عربية كهذا الحلق لا نعرفها ولا نعرف ما يحيط بها من
ظروف . وعلى أية حال انتهى الأمر بالهجوم عليهم حيث رمى وأخذ بن
عبدالله بن عمر بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبدالله
والحكم بن كيسان وأفلت القوم نوفل (٩٧) ، وعاد ابن جحش وأصحابه
بالعير والأسيرين إلى المدينة على الرغم من وصول أنباء تلك الغارة إلى
أعداء الرسول .

هناك ثلاث احتمالات لدينا لا بد من مناقشتها ، أولها وجود اتفاق
مسبق وسري بين الرسول وقائد السرية بالقتال ، إلا أن نص الكتاب
وصراحته لا يؤيد هذا الاحتمال ، والاحتمال الآخر أن عبدالله بن جحش
خالف أمر الرسول وقاتل بتصرف عن نفسه ، ويبدو أن هذا الرأي فيه
احتمال القبول بسبب امتناع الرسول عن أخذ العير والأسيرين وغضبه
وتعنيفه لأفراد السرية . والاحتمال الثالث أن قائد السرية وجماعته كانوا
مجبزين على القتال بسبب الظروف التي أحاطت بهم عند مرور القافلة
وكشف أمرهم وظروف قرب المكان من مكة وبعده عن المدينة ، إلا أن
الأمر الأكثر ترجيحاً هو الاحتمال الثالث .

اما بالنسبة لموقف الرسول من تصرفات قائد السرية وجماعته فقد بينا سابقا نص كتاب التكليف ، وقصد الرسول من هذا الكتاب الذي اشتمل على الترصد ومعرفة الاخبار (٩٨) الا ان قريشا استغلت الفرصة فأخذت تشهر بالرسول والمسلمين قائلة استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال كما اغتنم كل اعداء المسلمين في المدينة كاليهود الفرصة فتفاءلوا أي فرحوا بهذا التصرف من قبل المسلمين على أمل ان تصبح هذه القضية بداية لنهاية الرسول وأصحابه (٩٩) . والسؤال هنا : لو ان الرسول قصد انتهاك حرمة هذا الشهر المقدس عندهم ، فهل سيجلب هذا الانتهاك الخزي والعار له ولجماعته وما قيمة هذا الارتباط بالقانون الجاهلي ما دام الرسول رافضا لكل ما آمنت به قريش في جاهليتها ، وكيف نفسر تردده في قبول الغنيمة والخمس وهل بهذا التصرف نستطيع ان نعتبر ان الرسول قد تخلى عن رفاقه أو أنه كان خائفا من قريش . ان الامر الاكثر احتمالا وقبولا هو أن التأجيل من البت في تلك القضية هو لشعوره العميق بضرورة دراسة ما قد يترتب على هذا الانتهاك من نتائج في المدينة ولا سيما وان الكثيرين من أهل المدينة من المسلمين كانوا خائفين من أن أمرا سيئا سيحل بهم نتيجة لهذا الانتهاك ، وما قد يقع من تأثيرات على المجتمع كله ان هم قبلوا بهذه الغنيمة (١٠٠) .

ويبدو من الأمر والدراسة وتردد الرسول في هذا الموقف العصيب الذي يتحمل مسؤوليته هو أكثر من أي شخص آخر باعتباره الأمر الناهي للامور آنذاك يبدو أن مسألة انتهاك حرمة الأشهر الحرم كانت مسألة صعبة للغاية في ذلك الوقت ، وهذا يفهم من المناقشة التي جرت بين أعضاء السرية قبل الهجوم حول اباحة القتال في الشهر الحرام أم لا (١٠١) ؟ وان هذا التحريم هو تقليد سابق سارت عليه العرب منذ الجاهلية الاولى (١٠٢) ، وهذا ما يفسر الدهشة التي انتابت الرسول لرد الفعل الذي أحدثته تلك الغارة بين اهالي المدينة .

وتبرز لنا ناحية لا بد من مناقشتها ، فقد يكون تردد الرسول في

البت في أمر الغنيمة والاسيرين عائد الى ان الرسول (ص) لم يكن لديه أي تشريع يبحث في شؤون الغنيمة والاسرى وكذلك قد يكون تردده منتظرا نزول تشريع من عند الله بهذا الشأن ، وهذا ما حدث حيث نزلت آية الشهر الحرام (يسألونك عن الشهر الحرام ١٠٠٠) (١٠٣) ، وبعد ذلك أصبح لديه تشريع حول القتال في الشهر الحرام ومدى السماح به ولكن الغنيمة والاسرى لم ينزل فيهما شيء ، ومن الآية يتضح لدينا تبرئه أصحاب الرسول من اتهم التي وجهت اليهم من قبل المشركين وهو خرق حرمة الشهر الحرام ، ومن هذه اللحظة الغى وقف القتال في الاشهر الحرام ، وهذا نلاحظ ان الرسول قد قاتل بعد بدر في الاشهر الحرم (١٠٤) . اما فيما يخص الغنائم وتقسيمها فلم يشرع فيها بآية قرآنية الا بعد بدر وهي (١٠٥) :

« واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خيمه ورسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » .

موقف اهل المدينة من الجيوش :

من أهل المدينة ؟ هم القبائل والجماعات التي سكنت مدينة يثرب (١٠٦) ، الاوس والخزرج الشعب القوي الصاب العود واليهود من بني قريظة والنضير الذين سكنوا المدينة زمنا طويلا . ولأهل المدينة ديانات سماوية كاليهودية مثلا ، وكانوا يؤمنون بالبعث والحساب (١٠٧) . مما جعلهم أقدر على تفهم الدعوة المحمدية من أهل مكة الوثنيين ، وعلى هذا الاساس نستطيع ان نجعل أهل المدينة بالانصار من الاوس والخزرج والمهاجرين الذين هاجروا من مكة الى المدينة ، ثم المنافقين من الأوس والخزرج واليهود وبعض الجماعات الاخرى (١٠٨) .

من هذا التقسيم لهذه الفئات نلاحظ ان هناك فئات لم تدخل الدين الجديد ، ولكن موقفها لم يكن عدائيا ، الا أنه لا يفسر انهم بجانب

الدعوة ، وقد يكون لنمو قوة المسلمين في المدينة أثره في عدم الجهر بالمعارضة من قبل هؤلاء ، الا ان صورة حياة المواعدة التي نشأت بين المسلمين واهل المدينة أخذت تزداد بالتدريج ولكنها لم تصل الى حد الاعتقاد الكامل بالدعوة . ويفسر هذا الموقف سرية الاعمال التي قام بها الرسول ، وطلبه عدم فتح كتاب السرية خوفا من ان يبلغوا قريشا بوجه أصحابه فيترصدوا لهم بدلا من أن يترصدوا لها (١٠٩) ، ولذا عندما حدثت الغارة لعبدالله بن جحش في الشهر الحرام (رجب) حدثت ردود فعل شديدة لدى أهل المدينة من تلك الغارة (١١٠) . مما جعلت الرسول يغير من موقفه تماما ويعنف أصحاب السرية ، ولعل مرد ذلك الى أن أهل المدينة أكثر تمسكا بمعتقداتهم الدينية القديمة من أهل مكة . أضف الى ذلك ما ساورهم من شكوك الخوف والعقاب في المستقبل نتيجة هذا التصرف ، ناهيك عن عامل التحريض والاشاعات من قبل المنافقين منهم .

الخمس واصل التسمية :

يقول الواقدي كان في الجاهلية المربع (١١١) ، ويبدو أن هذا التقليد كان موجودا عند العرب منذ العصر الجاهلي ، والمعروف ان القبائل العربية كانت تدين بسبب الغزو للحصول على الغنائم ، وكثيرا ما لعب الغزو دورا هاما في الانتقال بين القبائل في الجزيرة العربية ، والذي جر الى ويلات وكوارث جسيمة ، الا ان الواقدي يذكر ان عبدالله بن جحش بعد عودته من نخلة قد خمس ما حصل عليه من غنائم ، أي اخرج الخمس للرسول والباقي يوزع على اصحاب السرية ، لذا قيل انه أول من خمس في الاسلام . وقد يكون هذا انى رغبة قائد السرية في مكافأة جباة ماديها ورغبة هذه الجماعة في تلك المكافأة ، لا سيما وان العربي متشبع بفكرة الغزو والسلب والحصول على الغنائم في ذلك الوقت ، ولذا كان هذا التخمين قبل نزول آية الخمس . آية الانفال (١١٢) : « واعملوا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » ، والتفسير هنا : ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسته وللرسول « أي أربعة أخماس لمن افاء الله عليهم وخمس لله ولرسوله (١١٣) .

ويبدو واضحا ان قائد السرية وهو العربي العارف بتقاليد العرب وعاداتهم قد أخذ هذا التقليد من الجاهلية ولم يكن ابتكارا منه لكنه خالف الطريقة بجعله خمسا بدلا من المربع .

نزول آية القتال :

ان النص القرآني الذي نزل به الوحي على رسول الله بعد هذه الحادثة هو :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » (١١٤) .

لا شك ان التفسير لهذه الآية الكريمة يبين ان انتهاك حرمة الأشهر الحرم أمر في غاية الخطورة ولكنها تذكر المسلمين بأن الجرائم التي ارتكبتها قريش اكثر خطورة ، فالاستنتاج هنا انه لا بد وان العقاب سيحل بقريش وليس بالمسلمين ، فكلمة كبير التي وردت في الآية تحمل معنى الاتم أيضا ولكن الآية لا تستبعد القتال في المستقبل بل تحمل بشير خير للذي حدث في الماضي وهذا تبرئة لساحة عبدالله بن جحش وجساعته ، ورغم هذا النص الا ان الرسول لم يعاود القتال في الأشهر الحرم ، عدا ما حدث في الأعوام : السادس والسابع والثامن والتاسع الهجري (١١٥) .

الا ان العلماء والمفسرين يرون ان منع الاقتتال في هذه الاشهر قد أبطل (١١٦) ومن الواضح ان عبدالله بن جحش وأصحابه قد انتهكوا حرمة الأشهر الحرم الا ان الرسول (ص) لم يكن باستطاعته ان يجد المبرر الكافي لهذا الانتهاك وحتى لو سلمنا جدلا بأن الرسول لم تكن لديه المعرفة التامة بشأن الاقتتال في الاشهر الحرم ، لكنه كان لزاما عليه ان يقدر معرفة قطاع كبير من اتباعه لحرمة هذه الاشهر وان يأخذ الحيطة والحذر من التأثير غير المباشر « كان قاصدا الهجوم في هذا الشهر » الذي كان لربما سيضعف من سلطته البشرية ولكن مهما يكن من أمر وحتى لو ان الرسول كان قاصدا الهجوم في هذا الشهر ومهما كانت نظرة العرب كان المقصود الكفار الملحدين من أهل مكة •

وبعد نزول هذه الآية استبشر الرسول والمسلمون ، فقبض الرسول العير والأسيرين ثم تمت عملية مبادلتهم بعد ان وصل سعد وعتبة بسبب تأخرهما عن السرية • والأسيران هما : الحكم بن كيسان الذي اسلم وقتل في موقعة بدر معونة (١١٧) ، وعثمان بن عبدالله الذي التحق بمكة ومات فيها كافرا (١١٨) •

ويقول ابن هشام في السيرة معلقا على هذه الآية الكريمة (١١٩) أي ان كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله ، مع الكفر به وعن المسجد الحرام واخراجكم منه واتم أهله وهذا أكبر عند الله من قتل من قتلتم فيه • والفتنة أكبر من القتل ، أي كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه الى الكفر بعد ايمانه فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون على أخبث من ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين وحينئذ فرح اولئك المجاهدون وفرح معهم المسلمون بذلك التنزيل الالهي الذي يقر ان العدوان يدفع بالعدوان ما دام المعتدون لم يراعوا الحرمات •

وكان نزول هذه الآية الكريمة تزكية لعمل عبدالله بن جحش وأصحابه وتقرير لمشروعية عملهم ، وقيل هذه أول غنيمة غنمها المسلمون

وعمر بن الحضرمي أول من قتله المسلمون وعثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان أول من أسرهم المسلمون (١٢٠) •

ولقد طمع عبدالله بن جحش وأصحابه في الأجر بعد أن برأت ساحتهم فقالوا يا رسول الله انطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين فانزل الله فيهم قوله تعالى : « أن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » (١٢١) ، وبذلك وعدهم الله عز وجل في ذلك أعظم الرجاء وأن هؤلاء هم خيار هذه الأمة وأن الله جعلهم أهل رجاء (١٢٢) •

نتائج السرية وتعليق عام :

بعد أن انتهينا من التحدث عن هذه السرية من حيث الدوافع والمشاركين فيها وما رافقتها من أحداث أدت إلى تفسيرات كثيرة وكثيرة كادت أن تضعف من الدعوة واندفاعها في ذلك الوقت ، لا نستطيع أن نختم هذه الصفحات دون أن نقف متمهلين إزاء ناحية مهمة من حياة الرسول وخاصة في الفترة الأولى من دعوته سواء في مكة أو المدينة تلك هي ناحية السيطرة والمهارة التامتين في وضع الخطط وأهدافها وتوجيه الحملات العسكرية في ذلك الوقت •

ولا بد من الإشارة إلى التخطيط والاصول التي اتبعتها في قيادة الجند وهم قلة من الرجال أقوى ما فيهم قلوبهم المليئة بالإيمان ، والحقيقة التي لا شك فيها أن الدعوة الإسلامية من بدايتها قد احتاجت للقتال لفسح الطريق لنشر الدعوة ، ولم يكن الجهاد إلا عاملا لهذه الدعوة • ويبدو

أن الرسول قد شارك مشاركة فعلية عمليا وعقليا ونظريا في سبيل نجاحها وقد غامر بنفسه كثيرا في سبيلها ، وقد ظهرت براعته في ناحية تظهر فيها مدى قيادته للرجال وزعامته لهم والزمالة ضرورة لازمة • ومما لا شك

فيه اننا اذا استعرضنا التسجيل الذي جاء في كتب السيرة فاننا نجد كثيرا من الخطط العسكرية قد اتبعت وأول هذه الخطط تقوية الروح المعنوية وهي بطبيعة الحال عامل هام ومؤثر في الحروب ، والصورة الاخرى ادراكه لأهمية الاستطلاع والكشف عن تجميعات العدو ونيات قادته ورجاله وكل البعث والسرايا التي بعث بها واشترك فيها كانت على ما يبدو للكشف والاستطلاع قوة العدو ، وامكانية الاحتكاك به ، وتبدو الحكمة العسكرية في تخيره للاماكن التي يوجه اليها سراياه وتغيره للاماكن مرة بعد اخرى ولهذا نستطيع ان نقول انه بواسطة هذه السرايا كان الرسول على علم تام بنيات اعدائه وتديبرهم للقتال ، وفي هذه السرايا وخاصة سرية نخلة نجد شيئا هاما هو سرية توجيه جماعة الكشف والاستطلاع وهذا ما تفعله الجيوش العسكرية وقد بعث الرسول (ص) عبدالله بن جحش قبل اربعة عشر قرنا تقريبا ومعه كتاب يجب ان لا ينظر فيه حتى يسير يومين وذلك ليجعل كل فرد في المدينة الى اين يقصد عبدالله بن جحش فلا يكتب بهذا لقريش .

ثم لا بد من الاشارة الى ادراكه العمل وأهميته على خطوط المواصلات والتموين والتجارة ، وأول ما يبدي هذه الحقيقة نراه واضحا من السرايا التي بعث بها الرسول (ص) فهو بحكم موقع المدينة الجغرافي كان يقف على الطريق بين مكة والشام وهو خط مواصلات قريش وتموينها ، وبهذا استطاع ان يهدد أهم مصدر من مصادر رزقها وتجاريتها وقوتها المادية .

ولقد كان الرسول دوما يحتفظ بالفرض ويبحث دائما عن العدو الاساسي وضربه الضربة الحاسمة ، فلقد شغلت قريش كل تفكيره ، ولم يتركها لحظة واحدة هادئة تفكر او تعمل على خداعه ومفاجأته ، ونلاحظ هنا ان نقاطا هامة لا بد من ذكرها نتيجة دراسة هذه السرية :

أولاً : كانت سرية نخلة السبب المباشر لغزوة بدر الكبرى حيث كانت أول أول مرة يهجم فيها المسلمون على المشركين بالقتل والأسر والنهب كما أن الحملات العسكرية للسرايا كان لها تأثير على موقف المسلمين حيث انتزعوا زمام المبادرة في القتال وأصبحت قريش في موقع الدفاع بدلاً من الهجوم •

ثانياً : ومما لا شك فيه أن الرسول كان يدرك تمام الإدراك لما لهذه السرايا من تأثير في تدريب الرجال على القتال والاستعداد للمستقبل المنتظر كما أنها كانت دافعا للمسلمين بشدة في وجه الكفار ومقاتلتهم كأنهم الند للند وفي مستوى واحد وليسوا أقل منهم قوة وخبرة في القتال وكذلك فإن الغنيمة التي نالها المشتركون في السرية دفعت المسلمين للذهاب مع الرسول لأخذ القافلة التي كانت مع أبي سفيان قبل بدر ، مما أدى إلى أن يكون جيش الرسول يوم بدر أكبر بكثير من السرايا التي خرجت قبل ذلك الجيش مما أفسح المجال أمام هذا الجيش أن ينتصر في بدر •

ثالثاً : هناك غرض هام للرسول (ص) هو إضعاف قريش مادياً ومعنوياً وكر حدة المكيين ومعنوياتهم ، ولقد أدرك القرشيون ذلك ، ولكن من الصعب علينا أن نتصور كم كان طموح محمد (ص) آنذاك ، ناهيك عن أن الكسب المادي لعب دوراً هاماً في مساعدة الدولة ، وأن التنظيم الجديد كان بحاجة للمال لمساعدته في إدارة المسؤوليات المترتبة عليه •

رابعاً : لقد استطاع المسلمون أن يعرفوا من يؤيدهم من أهل المدينة ومن يقف ضدهم حتى ولو بالدعاية وليس بالقتال ، وكان لهذا أثره في المستقبل في غزوة الخندق حيث استطاع الرسول أن يعرف من الذي

يقف الى جانبه اثناء الحصار ومن يقف على الحياد ، ومن من المحتمل ان يساعد اعداءه ضده •

خامسا : كان المصدى الذي نشأ عن خرق الاشهر الحرم نتيجة عكسية بالنسبة لقريش فقد اطلعت القبائل العربية على أسباب ذلك الخرق وعرفت ان هناك أصحاب حق يطالبون ببلدهم وأموالهم في مكة • وتعرفوا على الأسباب التي دفعت هؤلاء المسلمين للخروج من بلدهم وترك أموالهم وعيالهم لكفار قريش تتسامع الناس بالدين الجديد وتساءلوا عن امكانية انتشاره وعن امكانية كونه الدين السليم •

سادسا : ايقاف عادة من عادات الجاهلية وهي التوقف عن القتال في الاشهر الحرم ، وذلك بعد نزول الآية للقتال في الشهر الحرام ، وكانت هذه بداية نزع عادات الجاهلية التي تأصلت في النفوس وخاصة في نفوس المسلمين ثم تلاها [غيرها من] العادات كالخمر والميسر والانصاب والازلام •

سابعا : توسعت سيطرة المسلمين في الجزيرة العربية حتى وصلوا الى حدود حرم مكة ، وهذا يعني تهديد قريش في عقر دارها ، وتحول المسلمون من حالة الدفاع الى حالة الهجوم • ثم ظهور ظاهرة الضبط العسكري والتقييد بالأوامر وهذه صفة لم يألفها العرب المقاتلون سابقا •

وكلمة أخيرة لا بد من الاشارة اليها وهي ان الدعوة الجديدة كانت مفترق طريق بين مكة والمدينة حيث جعلت الفريقين يتناظران بأسا وقوة ، فقد أصبح المسلمون يفكرون جديا في استخلاص ما فقدوه في مكة وتغيير الوضع جذريا هناك ، ذلك ان قريشا حاولت اثاره شبه الجزيرة كلها على محمد (ص) وأصحابه لأنهم قاتلوا في الشهر الحرام حتى لقد أيقن محمد انه لم يبق في مصالحتهم او الاتفاق معهم رجاء •

كما أوضحت لنا أحداث هذه السرية بكل جلاء حرص المسلمين على التمسك بتعاليم دينهم وعدم الخروج عنها ولو كان في ذلك كسب وغنيمة وهذا ما يفسر لنا امتناع الرسول من أخذ العير والاسيرين من ناحية وتعنيف بقية المسلمين لعبدالله بن جحش وأصحابه من ناحية أخرى .



الفهرست

- ١ - مجمع اللغة - الوسيط ٤٣١/١ ، الجزء الاول ، عبد السلام هارون ١٩٦٠ م .
- ٢ - الرافعي - المصباح المنير ٣٧٤/١ ، المطبعة الاميرية . القاهرة ١٩٢٨ .
بطرس البستاني - محيط المحيط ٩٥٤/١ طبع سنة ١٨٦٧ م .
- ٣ - ابن منظور - لسان العرب - المجلد ٣٨٣/١٤ . بيروت - لبنان .
- ٤ - نفس المصدر والصفحة .
- ٥ - ابن اسحق - سيرة النبي - المجلد ٤/٣ ص ١٠٢٨ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ابن حجر الاصابة ٣٥٣/١ القاهرة ١٩٣٩ .
- ٦ - الواقدي - المغازي ٧/١ ، بينما يذكر ابن سعد بأن جملة بعوث الرسول وسراياه كانت ثمانية وثلاثين فقط .
- ابن سعد - الطبقات - المجلد الثاني / ٥ - ٦ دار صادر . بيروت ١٩٥٧ م .
- ٧ - نفس المصدر والصفحة .
- الواقدي - المغازي - ٧/١ مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦ .
- ٨ - الواقدي - المغازي ١٩/١ ، ابن هشام - السيرة - المجلد الاول (٦٠ - ٥ - ٦) .
- الطبري - تاريخ ٤١٠/٢ ، ابن اسحق - السيرة - المجلد الثاني - ٤٣٥
- ٩ - و ت - محمد في المدينة ص ٤ .
حيث يقول و ت ان السيد الرسول كان يريد كسر حدة المكين وضرب تجارتهم وتهديدهم اقتصاديا ومعنويا . نفس الصفحة .
- ١٠ - اليعقوبي - تاريخ ٦٩/٢ ، ويشير هنا الى سرية حمزة على ساحل البحر ولقائها بأبي جهل وتدخل مجدي بن عمرو بينهم وانصرف القوم بعضهم عن بعض ولم يكن قتال .
- ١١ - و ت - محمد في المدينة ص ٢ .
- ١٢ - نفس المصدر والصفحة .
- ١٣ - ابن اسحق - السيرة - المجلد ١ - ٢٧/٢ ، ويذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى - المجلد الثاني / ٦ « ان السرايا بدأت بعد

- سبعة أشهر من الهجرة ، ويؤيد الطبري عن الواقدي هذا
التاريخ « الطبري - تاريخ ٤٠٢/٢ .
الواقدي - المغازي ٢/١ .
- ١٤ - ابن اسحق - السيرة - المجلد الثاني / ٣٣٢ . ابن قسيم الجوزية -
زاد المعاد ج ٢ / ٥٢ - ٥٣ .
- ١٥ - نخلة - وادي لهذيل على ليلتين من مكة ، وهناك نخلة الشامية وهي
وادي فيه بستان ابن عامر وعنده يجتمع النخلتين اليمانية
والشامية وهما من بطن مر ، ياقوت معجم البلدان - المجلد
الخامس / ٢٧٧ .
- ١٦ - نص كتاب الرسول : « اذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل
نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من اخبارها »
محمد حميد الله - الوثائق السياسية - وثيقة رقم ٣ - ٤٩ ،
اليقوي - تاريخ ٦٩/٢ - ٧٠ .
- ١٧ - اليقوي - تاريخ ٤٥/٢ .
- ١٨ - الواقدي - المغازي ٢/١ .
- ١٩ - و ت - محمد في المدينة ص ٢ .
- ٢٠ - اليقوي - تاريخ ٤٩/٢ .
- ٢١ - و ت - محمد في المدينة ص ٢ .
- ٢٢ - اذن الله لمحمد بالقتال لائتتى عشرة ليلة من صفر في السنة الثانية
للهجرة ، وكانت اول آية انزلت في القتال : « اذن للذين يقاتلون
بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » وقد نزلت في المدينة
في الوقت الاليق للقتال لانه لو فرض الجهاد على المسلمين وهم
قلة في مكة لما قامت للمسلمين قائمة .
سورة الحج - الآية رقم ٣٩ ، عبد الباقي - المعجم المفهرس
صفحة رقم ٢٥ .
- ابن كثير - تفسير القرآن الكريم العظيم ج ٣ - ٢٢٤١ .
- ٢٣ - الطبري - تاريخ ٤١٠ / ٢ ، البلاذري - الانساب ٣٧١ / ١ ،
الواقدي ، المغازي ١ / ١٣ ، ابن كثير ، السيرة ٢ / ٣٧٠ ،
ابن سعد ، الطبقات ٢ / ١٠ .
- ٢٤ - هنا تختلف الروايات في عددهم ما بين ٨ - ١٢ . انظر اليقوي -
تاريخ ٢ / ٢٦٩ ، الطبري - تاريخ ٢ / ٤١٠ ، ابن الاثير -
الكامل ١١٣/٢ ، الواقدي - المغازي ١٩/١ .

- ٢٥ - نفس المصادر والصفحات .
- ٢٦ - محمد حميد الله - الوثائق السياسية - راجع ٣٩ - ٤٧ نص دستور المدينة .
- ٢٧ - الطبري - تاريخ ٢/ ٤١٥ - ٤١٠ ؛ ابن كثير السيرة ٢/ ٣٧٠ - ٣٧١ .
هذين المصدرين فقط هما اللذان اوردا ذكر عمار بن ياسر من بين الرهط . الواقدي - المغازي ١/ ١٩ .
- ٢٨ - ابن عبد البر ، الاستيعاب ٢/ ٢٦٤ ؛ ابن سعد - الطبقات ٣/ ٨٩ - ٩٠ .
- ٢٩ - ابن الاثير - اسد الغابة ج ٢ / ٢٩٠ - ٢٩٣ .
ابن سعد - الطبقات - ج ٣ / ١٣٧ - ١٣٨ .
- ٣٠ - ابن الاثير ، اسد الغابة ج ٥ / ٧٩ - ٨٠ .
ابن سعد - الطبقات ج ٣ / ٣٩٠ .
- ٣١ - ابن حجر - الإصابة ، المجلد ٣/ ١١٣ - ١١٦ .
ابن الاثير - اسد الغابة ، المجلد ٣/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .
ابن سعد - الطبقات ، المجلد ٣/ ٩٨ - ٩٩ .
- ٣٢ - ابن الاثير - اسد الغابة ج ٢ / ٨٠ - ٨١ .
ابن سعد - الطبقات ج ٢/ ٢٨٦ - ٢٨٧ .
- ٣٣ - ابن الاثير - اسد الغابة ج ٥ / ١٧٠ - ١٧١ .
ابن سعد - الطبقات ج ٣ / ٨٤ - ٨٥ .
- ٣٤ - ابن حجر - الإصابة ج ١ / ٤٠١ .
ابن الاثير - اسد الغابة ج ٢ / ٨٥ .
ابن سعد - الطبقات ج ٣ / ٣٨٩ .
- ٣٥ - ابن حجر - الإصابة ج ٢ / ١٠٩ - ١١٠ .
ابن سعد - الطبقات ج ٤ / ٢١٣ .
- ٣٦ - الفمرة : منهل من مناهل طريق مكة ومنزل من منازلها بين تهامة ونجد ، وقال ابن الفقيه : هي من اعمال المدينة على طريق نجد .
ياقوت - معجم البلدان - المجلد الرابع - ٢١٢ .
- ٣٧ - ابن سعد - الطبقات - ج ٣ / ٩٢ - ٩٣ .
ابن حجر - الإصابة ج ٢ / ٢٦٤ .
- ٣٨ - الواقدي - المغازي ج ١ / ١٣ .
- ٣٩ - الواقدي - المغازي ج ١ - ١٥٢ وما بعدها .
- ٤٠ - ابن عبد البر - الاستيعاب ج ٢ / ٢٦٤ .

- ٤١ - قال ياقوت : خولان من مخاليف اليمن ، وخولان قرية كانت بقرب دمشق . فلعل الاديب الخولاني منسوب اليها . الاديب : الجلد .
ياقوت - معجم البلدان ج ٣ ص ٤٩٦ .
- ٤٢ - النجدية : من اعمال اليمامة وهو وادي اليمامة .
ياقوت - معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، الواقدي :
المغازي ج ١ ص ١٣ .
- ٤٣ - بشر ابن ضميرة : لم اجد في اي معجم او قاموس ما يشير اليه سوى
ياقوت يقول : ان ضميران وادي بنجد من بطن قو .
ياقوت : معجم البلدان مجلد ٣ ص ٤٦٣ .
- ٤٤ - محمد حميد الله : الوثائق السياسية ، وثيقة ٣ / ٤٩ .
- ٤٥ - ابن هشام : السيرة ، مجلد ١ ص ٦٠١ - ٦٠٥ ، الطبري - تاريخ
ج ٢ ص ٤١٠ - ٤١٥ .
- ٤٦ - الواقدي : المغازي ج ١ ص ١٣ .
- ٤٧ - يقول الواقدي : بعث رسول الله (ص) اصحاب الرجيع عيوننا الى مكة
ليخبروه خبر قريش .
الواقدي : المغازي ج ١ / ٣٥٤ .
- ٤٨ - نخلة : موضع على ليلمة من مكة وهي التي ينسب اليها بطن نخلة وهي
التي ورد فيها الحديث ليلة الجن .
البكري : معجم ما استعجم ، المجلد الثالث ص ١٣٠٤ - ١٣٠٥ .
- ٤٩ - وات : محمد في المدينة ص ٦ .
الواقدي : المغازي ج ١ ص ١٣ .
- ٥٠ - انظر نص الكتاب - محمد حميد الله - الوثائق السياسية وثيقة
رقم ٣ ص ٤٩ ، ويقول الواقدي : « ما امرتكم بالقتال في الشهر
الحرام » . الواقدي : المغازي ج ١ ص ١٦ ، ابن الاثير : اسد
القابة ج ٥ ص ٧٩ - ٨٠ .
- ٥١ - الطبري : تاريخ ج ٢ ص ٤١١ ، الواقدي : المغازي ١ / ١٦ .
- ٥٢ - وات : محمد في المدينة ص ٧ .
- ٥٣ - اربعة اشهر اتفق العرب على تحريم القتال فيها هي : المحرم ورجب
وذو القعدة وذو الحجة ، ولشهر رجب حرمة خاصة عندهم
وخاصة عند قبائل مضر ، وان هذا التحريم كان حسب
اعتقادهم مرده الى الالهة التي امرت به فهو تحريم بأمر الالهة ،
وهذا لا يكون بالطبع الا بوجود شريعة فيها حلال وحرام

وبوجود نواه ومباحات ، وهم يعظمون هذا الشهر ويقيمون
الولائم عند ظهور هلاله وأغلبهم يؤدون العمرة في شهر رجب .
جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٥ / ٢٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٢٩ ، ٣٣٠ .
الألوسي : بلوغ الأرب ج ٣ / ٧١ .

٥٤ - يقول وات ان المدينة كانت أكثر تمسكا بالتقاليد الجاهلية القديمة من
مكة بسبب وجود الديانات القديمة فيها . وت / ص ٨ .

٥٥ - بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ط ٤ / ٤٩ .

٥٦ - قاتل الرسول المشركين بعد بدر في الأشهر الحرم ، لكن السرايا التي
قاتلت في الأشهر الحرم بعد بدر ليس لها تأثير رجعي على
شرعية سرية عبدالله ابن جحش . الواقدي : المفازي ج ١
ص ٥ ، ٦ ، ٧ .
كتاب وت / ٩ .

٥٧ - يشرب : أول من سكنها يشرب بن سام بن نوح وسميت باسمه ،
وسميت كذلك مدينة الرسول لنزول الرسول فيها ، وتسمى
كذلك عليه .

يا قوت : معجم البلدان - مجلد ٥ / ص ٤٣٠ .

٥٨ - نخلة : موضع على ليلة من مكة . والحرم المكي قريب منها ، وهي من
مشمطات مكة في الوقت الحاضر .
البكري : معجم ما استعجم ، المجلد الثالث ١٣٠٤ - ١٣٠٥ .
الأصفهاني : بلاد العرب / ٣٢ .

٥٩ - اختلفت الروايات حول تاريخ الهجوم ، فالمسلمون يقولون في آخر
ليلة من جمادي الآخرة وأول ليلة من رجب ، لكن الأرجح انه
كان في رجب بدليل قول الرسول ما امرتكم بالقتال في الشهر
الحرام ، ويؤكد ذلك أيضا من نص المحاورة التي حدثت بين
رجال السرية قبل الهجوم .

الواقدي : المفازي ج ١ / ١٦ .

ابن كثير : السيرة ج ٢ / ٣٧١ - ٣٧٢ .

ابن هشام : السيرة ج ١ / ٦٠١ - ٦٠٥ .

٦٠ - ابن هشام : السيرة ج ١ / ١٤٠ - ١٠٨ .

٦١ - ثور : هو ثور الحمل ، وهو جبل بمكة الذي فيه غار النبي ، ويقال
ان اهل المدينة لا يعرفون جبلا اسمه ثور ، وانما ثور بمكة .
البكري : معجم ما استعجم ، ج ١ / ٣٤٨ - ٣٤٩ .

٦٢ - عسفان : قرية لبني المصطلق من خزاعة فيها كثرة الآبار ، وهي التي صلى فيها الرسول صلاه الخوف ، وهي فريبه من مططه مر الظهران .

البكري : معجم ما استعجم ج ٣ ص ٩٤٢ - ٩٤٣ .

٦٣ - أمج - والأمج تعني العطش - بلد من اعراض المدينة قرب منطقة بني سليم .

ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٧ .

٦٤ - الخرار : ماء لبني ضمره ، ويقال وادي الحجاز ، يصب على الجحفة ، اليه انتهت سرية سعد بن ابي وقاص ، وقيل موضع غدير خم يقال له الخرار .

٦٥ - الجدادجد : ارض مستوية صلبة تقع في طريق الهجرة الى المدينة ، ويقال انها منطقة برا قديمة . ياقوت معجم البلدان ج ٢ / ٢٧ .

٦٦ - وادي العقيق : وادي بناحية المدينة فيه عيون ونخل .

ياقوت : معجم البلدان - المجلد ٤ / ١٢٩ .

٦٧ - الهمداني ، كتاب صفة جزيرة العرب / ٦٧ ، ١٢٧ - كحالة جغرافية شبه جزيرة العرب ص ١٠ .

٦٨ - الفرع : قرية من قرى وادي نجلة جنوب المدينة بينها وبين المدينة ثمانية وهي عدة قرى اهلة بالسكان والطرق القديمة من المدينة الى مكة انما هي اعلى الفرع . ياقوت معجم البلدان مجلد ٤ / ٢٥٢ .

٦٩ - احلرة : وهي احدي قرى المدينة وهي الشرقية وفيها وقعت موقعة الحرة المشهورة أيام يزيد بن معاوية .

ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٢ ص ٢٤٩ تحت مادة حرة واقم .

٧٠ - عشيرة : من ناحية ينبع بين مكة والمدينة .

ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٦ / ١٨١ .

٧١ - مر الظهران : موضع على مرحلة من مكة وهو وادي فيه عيون كثيرة ونخل . ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٥ / ١٠٤ .

٧٢ - جدة : بلد على ساحل بحر اليمن ، وهي فرضة مكة ، بينها وبين مكة ثلاث ليال . ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ / ١١٤ .

٧٣ - الاصفهاني ، بلاد العرب / ٣٧٥ .

٧٤ - نفس المصدر والصفحة .

٧٥ - لم أجد رغم بحثي في العادات العربية القديمة عن عادة حلق الرأس سوى ما ذكره اليعقوبي بهذا الخصوص ، « انهم اذا نسكوا لم يخرؤا شعثا ولا ظفرا » وقد تكون هناك عادة عربية لحلق الرأس لا نعرفها . اليعقوبي - تاريخ - ج ١ / ٢٥٦ .

- ٧٦ - ابن حنوقل ، صورة الارض / ٣٠ .
- ٧٧ - المرحلة من ٦ - ٧ فراسخ . من مكة الى بستان ابن عامر مرحلة وحدة . من مكة الى المدينة عشرة مراحل .
المقدسي ، احسن التقاسيم / ١٠٦ .
- ٧٨ - ابن هشام ، السيرة ، المجلد الاول / ٦٠١ ، الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٧ . الطبري - تاريخ ، ج ٢ / ٤١٠ - ٤١١ ، ابن اسحق ، السيرة ٢ ص ٤٣٦ .
- ٧٩ - معدن : والمقصود هنا معدن بني سليم وهو معدن فرات وهو من اعمال المدينة على طريق نجد . ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ١٥٤ .
- ٨٠ - الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٦ - ١٧ ، الطبري ، تاريخ ج ٢ / ٤١١ .
- ٨١ - الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٧ .
- ٨٢ - ابن هشام ، السيرة ج ١ ص ٦٠١ - ٦٠٥ ، الطبري ، تاريخ ج ١ ص ٤١١ . الواقدي ، المغازي ج ١ / ١٤ .
- ٨٣ - وات ، محمد في المدينة ص ٦ .
- ٨٤ - الواقدي ، المغازي . ج ١ ص ١٧ .
- ٨٥ - منطقة بني سليم في منطقة بحران ، والرسول غزا بنفسه بني سليم في بحران . الواقدي ، المغازي ج ١ / ٣ ، ٨ .
- ٨٦ - الواقدي ، المغازي ، ج ١ / ١٦ ، الطبري ، تاريخ ج ٢ / ٤١٤ - ٤١٥ .
- ٨٧ - المليحة : اسم لبل في غربي سلمى احد جبلي طي ، وبه آبار كثيرة وملح وقيل مليحة موضع من بلاد تميم . ياقوت ، معجم البلدان ٥ / ١٩٦ - ١٩٧ .
- ٨٨ - نوبة ، الجماعة ج ٣ ص ٧٣٧ .
لسان العرب ، ج ٣ / ٧٣٧ .
- ٨٩ - الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٧ .
- ٩٠ - الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٣ ، البلاذري ج ١ ص ٣٧١ - ٣٧٢ .
- ٩١ - بئر ابن ضميرة ، اشير اليها سابقا ص من البحث .
- ٩٢ - ابن هشام ، السيرة ج ١ ص ٦٠١ ، الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ .
٤١٥ ، ابن كثير ، السيرة ج ٢ / ٣٦٧ ، الذي ذكر ان اسم الحضرمي هو عبد الله بن عباد الصدف .
- ٩٣ - الواقدي - المغازي ، ج ١ / ١٤ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٢ / ٤١٠ - ٤١٢ .

- ٩٤ - البلاذري ، الانساب ج ١ / ٣٧١ - ٣٧٢ : ابن كثير . السيرة ج ٢ / ٣٧٠ - ٣٧١ .
- ٩٥ - الواقدي ، المغازي ج ١ / ١٤ ، ابن كثير . السيرة ج ٢ / ٣٦٨ - ٣٦٩ .
- ٩٦ - يقول اليعقوبي : « كانوا يشدون على انفسهم في دينهم ، فاذا انسكوا لم يسلاوا سمنا ولم يدخروا لنا ، ولم يحزوا شعرا ولا ظفرا » .
- اليعقوبي . تاريخ ، ج ١ / ٢٥٦ .
- ٩٧ - الثلاثة ، هم : عثمان بن عبد الله بن المغيرة واخوه نوفل والحكم بن كيسان حول هشام بن المغيرة . ابن هشام ، السيرة ج ٢ / ٦٠١ ، الطبري تاريخ ج ٢ / ٤١٠ - ٤١٥ .
- ٩٨ - محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٣ ص ٤٩ .
- ٩٩ - الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٦ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، المجلد الثاني ١١٣ - ١١٥ ، ابن هشام ، السيرة ج ٢ / ٦٠١ - ٦٠٥ . البلاذري ، الانساب - ج ١ ص ٣٧١ - ٣٧٢ .
- ١٠٠ - يقول الواقدي : عند عودتهم من السرية كانت المدينة تفور فور الرجل . الواقدي . المغازي ج ١ ص ١٦ .
- ١٠١ - الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٤ ، الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ - ٤١٥ .
- ١٠٢ - وات ، محمد في المدينة ص ٨٨ .
- ١٠٣ - آية رقم ٢١٧ من سورة البقرة ، المعجم المفهرس .
- ١٠٤ - الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ٦٠٥ . هناك يسبح سرايا قتالت في الاشهر الحرم بعد بدر ، ولكن لم يكن لها تأثير رجعي على سرية نخلة .
- ١٠٥ - آية رقم ٤١ من سورة الانفال ، المعجم المفهرس ص ٧٧٠ .
- ١٠٦ - ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ٢٣٠ . ذكرنا عن المدينة في موضوع المخالفة .
- ١٠٧ - توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ٤٢٠ ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين .
- ١٠٨ - نفس المصدر والصفحة .
- ١٠٩ - ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٣٨ .
- ١١٠ - نفس المصدر ، ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٣ .
- وات ، محمد في المدينة ، ص ٨ . الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٦ .

- ١١١ - المربع : يقصد به ربع الغنيمة الذي كان يأخذه رئيس القبيلة في الجاهلية . الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٧ .
القاموس المحيط ، ج ٣/٢٥ . البلاذري . الانساب ، ج ١/١٧٢ .
- ١١٢ - سورة الانفال . آية رقم ٤١ ، المعجم المفهرس ص ٧٧٠ .
- ١١٣ - ابن هشام ، السيرة ، المجلد الاول ص ٦٠٥ .
- ١١٤ - عبد الباقي ، المعجم المفهرس ، آية رقم ٢١٧ ، سورة البقرة .
- ١١٥ - الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ٦٠٥ : ٧ .
- ١١٦ - وات . محمد في المدينة ، ص ٩ .
- ١١٧ - ذكر ياقوت الحموي عن ابن اسحق « ان بشر معونة بين ارض بني عامر وحرّة بني سليم ، وقال كلا البلدين منها قريب ، الا انها الى حرّة بني سليم اقرب . وقيل بشر معونة ماء ابني عامر بن صعصعة » وقال الواقدي : بشر معونة في ارض بني سليم وارض بني كلاب ، وعندها كانت قصة الرجيع .
ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الاول ٣٠٢ .
- ١١٨ - ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٦٩ .
الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ - ٤٢٥ .
الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٥ .
- ١١٩ - ابن هشام ، السيرة ، المجلد الاول ص ٦٠٤ .
- ١٢٠ - ابن هشام ، السيرة ج ٢ ص ٦٠٥ .
- ١٢١ - رواه ابن كثير عن ابن اسحق ، السيرة ج ٢ ص ٣٦٧ .
- ١٢٢ - ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٦٩ ، ابن هشام . السيرة .
ج الاول ص ٦٠٥ .

أبو الريحان البيروني

دراسة حول نسبه وشخصية

بقلم الدكتور همدان سرتي
ماسة القاهرة

البيروني أحد عمالقة علماء العصر الذهبي للحضارة العربية ، عاش في الفترة من عام ٣٦٢ هـ حتى عام ٤٤٣ هـ (٩٧٣ - ١٠٥١ م) ، وخلف وراءه تراثا عربيا ضخما ، فلا عجب ان يصفه المستشرق الألماني ادوارد سخاو - الذي حقق له بعضا من مؤلفاته - بأنه « أكبر عقلية ظهرت في التاريخ » .

هذا وقد وصفه مقدم كتابه « الصيدنة في الطب » (١) قائلا :

« مما جمعه الحكيم الأجل ، الامام العلامة ، أفضل علماء المتقدمين والمتأخرين ، وأعظم فضلاء الرياضيين من الاسلاميين ومن قبلهم من الماضيين ، الاستاذ ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني » ولقد لقب البيروني أيضا ببرهان الحق » .

يروى عنه شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري الحكيم (٢) أنه لم يكن ليترك من يده قلم ، أو يرفع بصره عن كتاب ، أو يسمح لفكره أن ينشغل عن حل المسائل والمشكلات الا في يومين اثنين من العام هما يوم النيروز ويوم المهرجان ، وفيهما كان يؤمن ضروريات معيشته ، ويقال

(١) طبعة مؤسسة همدان الوطنية بکراتشي بباكستان، سنة ١٩٧٣ م.

(٢) صاحب كتابي « اخبار الحكماء » ، « نزهة الارواح وروضة الافراح » .

ان البيروني كان حتى قبل وفاته بلحظات يستخبر عن مسألة في الهندسة •
حقا ان عبقرية البيروني عبقرية جامعة ستظل خالدة عبر العصور
والأزمان ، وانك لتطالع تصانيفه فتجد فيها من الغزارة والشمول والمتعة
والجدة والابتكار ، وكأننا توقفت عقارب الساعة منذ الف عام او يزيد •
ولقد اهتمت الاوساط العلمية في العالم أجمع شرقية وغربية بتراث
البيروني • فعقدت مؤتمرات كثيرة لتخليد أعماله وذكره وصدرت
مجلدات تضم دراسات عن تصانيفه ، منها المجلد التذكاري الذي اصدرته
عام ١٩٥٠ اكااديمية العلوم السوفيتية ، والمجلد التذكاري الذي اصدرته
الجمعية الايرانية في كلكتا بالهند عام ١٩٥١ . ولعل أحدث مؤتمر
عُقد بمناسبة مرور الف سنة على مولد البيروني هو المؤتمر الدولي
الذي عقد في باكستان في الفترة من ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) حتى ١٢
كانون الاول (ديسمبر) من عام ١٩٧٣ ، وبذلك تحت رعاية حكومة
باكستان بالتعاون مع هيئة اليونسكو •

لا عجب أن يحظى ابو الريحان البيروني بهذا الاهتمام البالغ
والتكريم الكبير ، ولقد أطلق الاتحاد السوفياتي اسمه على البلدة التي
بها ولد ، وتقع حانيا في جنوب روسيا ، كما أقيم له تمثال في متحف جامعة
موسكو ، وسُميت جامعة طشقند بأوزبكستان باسمه تخليدا له
وتعظيما وتقديرا •

ولقد جمع البيروني المعارف التي توصل اليها المصريون والروم
والرومان ، والهنود والسيان ، والفرس والعبرانيون حتى العصر الذي
فيه عاش ، متبعا في ابحاثه ودراساته المنحى العلمي الذي تتبعه اليوم ،
فجاءت أعماله اضافة حقيقية لتراث الانسانية جمعاء ••

كان البيروني يصرّح دوما بأنه لا يعرف حقيقة نسبه ، وهو الذي
أنشد في هذا المعنى يقول :

« وذاكرا في قوافي شعره حسبي ولست والله حقا عارفا نسبي

اذ لست أعرف جدي حق معرفة وكيف اعرف جدي اذ جهلت أبي »

وانه وان كان هناك تنازع بين كثير من الدول على نسبة البيروني ، اذ كل دولة تنسبه الى نفسها ، فان النسبة المنصفة له وللشراء الموسوعي الذي خلفه وراءه هي نسبته الى الانسان الذي شرّفه الله وخلقه على صورته ، نسبته الى الانسان الذي فضّله الله على سائر مخلوقات الأرض وعلّمه الأسماء ، فصارت له حضارة بها يعرف ويتميز .

ترجمة البيروني

ويذكر البيروني عن نفسه أنه ولد في خوارزم شاه يوم الخميس ثالث ذي الحجة من العام الهجري ٣٦٢ الموافق الرابع من ايلول (سبتمبر) سنة ٩٧٣ م . ولم يوضح السبب في تسميته بالبيروني .

ولقد تعلم البيروني - بحكم نشأته في خوارزم - اللغة الخوارزمية وهي إحدى لهجات اللغة الفارسية ، وقد كان البيروني ملماً بلغات كثيرة كما يظهر ذلك في إنتاجه الضخم ، فالى جانب الفارسية والعربية كان البيروني على دراية باللغات السنسكريتية ، والسريانية واليونانية والعبرية، وكان البيروني مسلماً سني المذهب .

أمضى البيروني نشأته الاولى في خوارزم حيث عكف على الدرس والتحصيل لا سيما في مجال العلوم الطبيعية ، وما أن أتمَّ مرحلة التحصيل هذه حتى انتحق ببلاط الامير مأمون بن مأمون في خوارزم ، وكان البيروني محاطاً بالاحبال والتكريم لعلمه وفضله ، وبقي في بلاط الامير حتى اجتاحت خوارزم تغيرات سياسية غير مواتية اضطر على أثرها سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) الى الهجرة الى جرجان حيث عكف على التأليف فأنهى كتابه : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (٣) مهدياً اياه السي

(٣) كتاب يبحث في التقاويم والشهور عند مختلف الامم ، وقد تمّ تأليفه سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) .

حاكم جرجان قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي .

وفي حوالي عام ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) قتل البيروني راجعا الى خوارزم ، وصار مستشارا في بلاط الامير مأمون لما كان قد وصل اليه في ذلك الوقت من المنزلة العلمية المرموقة . وأثناء اقامته هذه والتي امتدت لبضع سنين وضع البيروني كتابا ضمنه تاريخ خوارزم وتقاليدها وآثارها والأحداث التي عاصرها وكان شاهدا عليها .

وفي ربيع العام الهجري ٤٠٨ (١٠١٨ م) انتقل البيروني الى مدينة « غزنة » بناء على دعوة وجهها اليه السلطان محمود الغزنوي ^(٤) ، فكان دوما محل تقدير السلطان كما انه رافقه في أسفاره ورحلاته الى الهند ، وفي هذه الفترة اهتم البيروني بدراسة اللغة السنسكريتية ، كذا علوم الهند وأديانها ، وكان في كل ما قام بدراسته ذا فكر مفتوح ويعد البيروني اول من اشتغل بالدراسة المقارنة للاديان من علماء المسلمين خاصة وربما من علماء العالم عامة ، وقد خرج البيروني من دراساته هذه بكتابه : « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة » ، وقد قام المستشرق كارل ادوارد سخاو ^(٥) بتحقيقه ونشره عام ١٩١٩ م .

وعندما اعتلى مسعود بن السلطان محمود الغزنوي العرش عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) أهدى اليه البيروني كتابه العظيم : « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » ، فما كان من السلطان مسعود الا ان خصص معاشا للبيروني ليعينه على تكريس بقية عمره للتأليف والدراسات العلمية ، ويروى ان السلطان مسعود سیر الى البيروني حمل فيل من العملات الفضية مكافأة له على كتابه « القانون المسعودي » ، بيد أن

(٤) هو يمين الدولة سلطان محمود بن ناصر الدين سبكتكين ، امتدت فترة حكمه من عام ٩٧٠ حتى عام ١٠٣٠ م .

(٥) G. Edward Sachau : عاش في الفترة من سنة ١٨٤٥ حتى سنة ١٩٣٠ م .

البيروني - حسب ذات الرواية - قد رد هذا الحمل الى خزانة السلطنة شاكرًا ومعتذرًا عن قبولها ، وهذا السلوك هو ولا شك من شيم العلماء الصادقين •

ولقد عاصر البيروني تغيرات سياسية عصفت بآسيا الوسطى وافغانستان وايران وغيرها من البلدان المجاورة ، فانعكست بطبيعة الحال على مراحل حياته كذا على اهتماماته ودراساته ، فقد بدأ البيروني نشاطه الفكري في مجالي الرياضيات والفلك ، ثم ما لبث ان تحوّل اهتمامه الى دراسة التاريخ وحضارات الامم السابقة ، كما أنه اتجه في الفترة الأخيرة من حياته الى علم الضوء والطب والصيدنة والبيولوجيا وعلم التطور كذا الى دراسة الأحجار والفلزات •

امتد العمر بأبي الريحان البيروني حتى تعدى سن الثمانين (٨١ سنة هجرية أو حوالي ٧٨ سنة ميلادية) ، ويؤكد ذلك ما ذكره في مقدمة مصنفه : « كتاب الصيدنة في الطب » حيث يقول (٦) :

« وجميع ما أوردته فمحصل مما ذكرت ، والمتروك ما لم يحصل لي منه ، لئلا يحملني الجهل به على نقله من بابه الى باب آخر ، الانافة على الثمانين أفسدت من المتخيلة قوتها العمليتين ، أعني المدمع والمسمع » •

انطفأت الشعلة المتوهجة حين توقفت حياة البيروني حوالي سنة ٤٤٣ هـ - (١٠٥١ م) ، ولا يعرف على وجه التحقيق مثواه الأخير ، الا ان نور علم البيروني لم يخب أبدا بالرغم من مرور مئات السنين على وفاته •

(٦) « كتاب الصيدنة في الطب » للبيروني، تحقيق الحكيم محمد سعيد والدكتور رانا احسان الهي - طبعة مؤسسة همدرد الوطنية ، كراتشي سنة ١٩٧٣ م ، الصفحة ١٥ •

بدأ البيروني نشاطه العلمي مساعدا لأحد علماء النبات من اليونانيين ، حيث كان يجمع له البذور والنباتات والأزهار ، وكان البيروني دئم السؤال لاستاذة عما يجمع ، وقد تكون هذه المناسبة من الأسباب التي جعلت البيروني يهتم بدراسة اللغة اليونانية ودراسة علم النبات ، وأدت به في أخريات حياته الى وضع كتابه « الصيدنة في الطب » الذي أورد فيه مسميات الأعشاب والأدوية باللغة اليونانية الى جانب العربية وعدة لغات اخرى . وقد تتلمذ البيروني بعد ذلك على الحكيم عبد الصمد بن عبد الصمد الذي قتله فيما بعد السلطان محمود بن سبكتكين بعد اتهامه اياه بالخروج عن الدين ، ولقد صارت بين البيروني وبين استاذة عبد الصمد الفة ومودة وثيقتين ، وجمعهما حب العلم والمعرفة .

وما أن أتم البيروني العقد الثاني من عمره وسافر الى جرجان حتى التقى بالطبيب المنجم أبي سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني (٧) عالم الرياضيات والفلك فتأثر به أيما تأثر ، ويعد ابو سهل هذا الاستاذ الاول للبيروني ، كذلك أخذ البيروني العلم على يد أبي نصر منصور بن علي بن عراق (٨) مولى أمير المؤمنين القادر بالله (٩) ، وكان ابو نصر هذا قد تتلمذ بدوره على ابي الوفاء البوزجاني (١٠) العالم الرياضي والفلكي الشهير .

ولقد عاصر البيروني الشيخ الرئيس ابن سينا وكانت بينهما منازرات ومراسلات كثيرة ، كما جمعتهم زمالة مجمع العلوم الذي أسسه أمير

(٧) توفي عام ٣٨٩/٣٩٠ هـ (٩٩٩/١٠٠٠ م) .

(٨) توفي قبل عام ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .

(٩) امتدت خلافته من عام ٣٨١ هـ (٩٩١ م) حتى عام ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) .

(١٠) عاش في الفترة : ٣٢٨ - ٣٨٨ هـ (٩٤٠ - ٩٩٨ م) .

خوارزم مأمون بن مأمون ، وكان يزاملهما أيضا في نفس المجسع المؤرخ
العربي ابن مسكويه (١١) صاحب كتاب « تجارب الأمم » •

النتازع على نسبته

ان الدرجة العلية المرموقة التي وصل اليها البيروني بأعماله الخالدة
قد جعلت دولا كثيرة تسعى جاهدة الى فضل نسبته اليها ، فلا عجب أن
نرى كلا من جمهورية اوزبكستان (بالاتحاد السوفيتي) وايران
وباكستان وتركيا تسوق الدلائل والبراهين على أحقيتها في اتماء
البيروني اليها ، ونعرض فيما يلي لبعض ما ذكرته المصادر التاريخية عن
نسبة البيروني •

(١) الاتجاه الاول

يقول بعض المؤرخين العرب من أمثال ظهير الدين البيهقي ، وابن ابي
أصيبعة وأحمد بن علي القلقشندي ، ان البيروني ينتسب الى « يرون »
على أنها مدينة في السند ، وقد نحي منحاهم ابو القاسم ابن حوقل (١٢)
في كتابه « المسالك والممالك » ، واسماعيل بن علي ابو الفدا (١٣) في
كتابه « تقويم البلدان » . وحاجي خليفة (١٤) في كتابه « كشف الظنون
عن أسامي الكتب والفنون » •

يقول الامام ظهير الدين علي بن زيد البيهقي في كتابه « تنمة صوان
الحكمة » (١٥) الذي أتم تأليفه سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) :

(١١) توفي سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) •

(١٢) توفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) •

(١٣) توفي سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) •

(١٤) توفي سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٧ م) •

(١٥) طبعة البنجاب — سنة ١٩٣٥ م ، صفحة ٦٣ •

« أبو ریحان البيروني من أجل المهندسين ، وقد سار في بلاد الهند أربعين سنة وصنّف كتباً كثيرة ، رأيت أكثرها بخطه .

ويرون التي هي منشؤه ومولده بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب ، ولا عرو فان الدرّ ساكن الهند ... » .

ويذكر ابن أبي أصيبعة ^(١٦) في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » ^(١٧) :

« هو الاستاذ ابو الريحان بن احمد البيروني ، منسوب الى يرون ، وهي مدينة في السند » .

ويقول القلقشندي ^(١٨) في كتابه « صبح الأعشى في كتابة الانشا » ^(١٩) ومنها البيرون .

قال في « الشباب » : بكسر الباء الموحدة ، ويسكون الباء آخر الحروف ، وضم الراء المهملة ، وبعدها واو ، ونون في الآخر ، وهي مدينة من أعمال الديبل بينها وبين المنصورة ، واقعة في الاقليم الثاني من الأقاليم السبعة : قال في « القانون » ^(٢٠) : حيث الطول اربع وتسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة .

قال ابن سعيد : وهي من فرض بلاد السند التي عليها خليجهم المالح الخارج من بحر فارس .

(١٦) عاش في الفترة : ٦٠٠ - ٦٦٨ هـ (١٢٠٣ - ١٢٦٩ م) .

(١٧) طبعة مصر سنة ١٨٨٢ م ، صفحة ٣٠ .

(١٨) عاش في الفترة : ٧٥٦ - ٨٢١ هـ (١٣٥٥ - ١٤١٨ م) .

(١٩) طبعة مصر ، الجزء الخامس ، صفحة ٦٤ .

(٢٠) لعله يشير الى كتاب « القانون المسعودي » للبيروني .

قال في « العزيزي » ، وأهلها مسلمون ، ومنها الى المنصورة خمسة عشرة فرسخا (٢١) .

قال ابن سعيد : واليها ينسب أبو الريحان البيروني ، يعني صاحب « القانون » في أطول البلاد وعروضها .

ومنها المولتان .. وهي مدينة من السند فيما ذكره أبو الريحان البيروني ، وإن كان ابن حوفل جعلها من الهند ، وعليه جرى في « مسالك الأبصار » ، لأن البيروني أقعد بذلك منه ، لأن السند بلاده ، فهو بها أخبر ، واقعة في الاقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

(ب) الاتجاه الثاني :

نرى جماعة أخرى من المؤرخين العرب ان البيروني صفة مشتقة من كلمة « يرون » ، وتعني في اللغة الفارسية خارج ، فتكون كلمة بيروني بمعنى من خارج أو ما نسميه « براني » ، باعتبار ان البيروني ولد بخوارزم وأقام في « خيوة » أو في « كاث » من ضواحي خوارزم ، فاعتبر من خارج البلد ، ولكن نسبه تكون في هذه الحالة أصلا اني خوارزم ، ومن هنا كانت حجة الفرس في نسبة أبي الريحان اليهم باعتبار أن منشأه في خوارزم وإن أقام خارجها .

ويتجه بعض المؤرخين الى ان البيروني ينحدر من اسرة غير مشهورة كانت تشتغل بالتجارة ، ولعلها كانت تقيم خارج مدينة خوارزم كي تتخلص من الضرائب التي تفرض على البضائع عند مرورها الى داخل المدينة ، وإن هذه الإقامة خارج المدينة قد تكون السبب في تسميته بالبيروني .

يقول عبدالكريم السمعاني (٢٢) في « كتاب الانساب » (٢٣) :

(٢١) الفرسخ = ١٢٠٠٠ ذراعا شرعيا ، أي حوالي ستة كيلومترات .

(٢٢) توفي سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) .

(٢٣) طبعة لندن ، صفحة ٩٨ .

« البيروني بكسره الباء الموحدة ، وسكون الياء آخر الحروف ،
وضمه الراء ، بعده الواو ، وفي آخرها النون .

هذا نسبة الى خارج خوارزم ، فان بها من يكون خارج البلد نفسها
يقال له فلان بيروني » .

ويقول ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت الحموي (٢٤) في كتابه
« معجم الأدباء » :

« محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي ، وهذه النسبة
معناها البراني ، لأن بيرون — وبالفارسية — معناه برا .

وسألت بعض الفضلاء من ذلك ، فزعم أن مقامه بخوارزم كان قليلا ،
وأهل خوارزم يسمون الغريب بعد الاسم ، كأنه لما طالت غربته عنهم صار
غريبا ، وأظنه يراد به ، إلا أنه من أهل الرستاق (٢٥) ، يعني انه من
خارج البلد » .

فان صح هذا الوصف اتسب البيروني الى خوارزم ، ومن ثم تتنازع
على نسبته بلاد فارس باعتبار ما مضى ، وجمهورية أوزبكستان في الاتحاد
السوفيتي باعتبار الوضع الراهن ، حيث ان مدينة « كييف » عاصمة هذه
الجمهورية تقوم على مدينة خوارزم القديمة .

وهناك من يعترض على هذا القول بدعوى ان علماء كثيرين ومعروفين
قد عاشوا حول خوارزم أو في ضواحيها بيد أنهم لم ينعتوا بكلمة
« بيروني » بمعنى براني ، اذ أن الوحيد الذي كان يتصف بهذا النعت
هو أبو الريحان ، ومثيروا هذا الاعتراض يؤيدون في الاغلب — نسبة

(٢٤) هو ياقوت الرومي ، عاش في الفترة : ٥٧٤ — ٦٢٦ هـ (١١٧٨ —
١٢٢٩ م) .

(٢٥) كلمة « رستاق » تعني في اللغة الفارسية قرية .

البيروني الى ما جاء ذكره على لسان بعض المؤرخين خاصة بمدينة تدعى « بيرون » ، كما تقدم تفصيله ، الا أنه لم يتأكد بعد بالدليل الواقعي حقيقة وجود مثل هذه المدينة في الموقع الذي أشارت اليه بعض الروايات التاريخية .

(ج) الاتجاه الثالث :

لما كانت عمليات التنقيب لم تسفر حتى يومنا هذا عن وجود ما وصف بمدينة « بيرون » على بعد خمسة عشر فرسخا (٢٦) من المدينة القديمة « المنصورة » ، فقد ظهر اتجاه ثالث مؤداه ان كلمة بيرون قد تكون وصلت اليها محرفة في التنقيط ، وأنه ربما كانت صحتها كلمة « نيرون » ، وهي مدينة ذكرها الادريسي (٢٧) ، وكانت موجودة في نفس الموقع الذي تقوم عليه حاليا مدينة « حيدر آباد » . وانه ان صح هذا الحدس لانتسب أبو الريحان البيروني لبلاد الباكستان .

(د) الاتجاه الرابع :

وهناك رواية اخرى جاءت على لسان جون برجز في كتابه عن قيام السلطة الاسلامية في الهند (٢٨) ، حيث ذكر كنية البيروني بصورة مختلفة من حيث التنقيط وان كانت محتفظة بنفس شكل الحروف ، فبدلا من « أبو الريحان » كتب اللفظ « أنوريخان » (Anvury Khan Khawarizmy) وبذلك أضفى على البيروني صفة تركستانية ، الا ان كلمة الخوارزمي تعيده الى نسبته الى خوارزم .

(٢٦) اي حوالي تسعين كيلومترا .

(٢٧) هو أبو عبدالله المعروف بالشريف الادريسي : عاش في الفترة : ٤٩٣ - ٥٦٥ هـ (١١٠٠ - ١١٧٠ م) ، وهو صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الافاق) .

John Briggs: «History of the Rise of Mohammeden (٢٨)
Power in India», Calcutta 1829, volume 1, page 113.

هذا ولا يخلو الأمر من اتجاه الأثر إلى نسبة البيروني إليهم باعتبار نفوذهم السابق على آسيا الوسطى .

شخصية البيروني وأخلاقه :

يتميز البيروني بشخصية علمية حقا بكل ما لهذه الشخصية من السمات الفاضلة التي نعرفها اليوم ، فقد كان البيروني يخضع كل ما يصل إليه من علوم ومعارف إلى التفكير العميق المتحرر تماما من أي تعصب أو انقياد ، ولقد دفعه حبه الشديد للوقوف على حقائق الأمور وكنهها إلى الاشتغال المتواصل بالبحث ، لا تشيه عن عزمه عقبة ، ولا ينال من حماسه عائق .

مارس البيروني النقد البناء لأعمال من سبقه من العلماء والمفكرين ، كما لم يتوان عن النقد الذاتي لأعماله ، وكان مخلصا شديد الاخلاص لعلمه ، شجاعا في الحق . فانه عندما كان غير متفهم للموضوع الذي كان يتصدى له ، أو كان ملما به بعض الامام فحسب . فانه ما كان لينحرج البتة في التصريح بهذا النقص ، طالبا العفو عن هذا الجهل ، وواعدا القارئ - حتى بالرغم من تقدم البيروني في السن - بتقصي دقائق الموضوع ونشر نتائج دراسته عند تكاملها ، وهذا هو على وجه التحديد سلوك من يعي مسؤولية العالم الباحث الذي يحس احساس عميقا بكامل مسؤوليته الأدبية والخلقية ، ويقدر الامانة العلمية حق قدرها .

هذا ولم يكن البيروني ليبخل بما تجمع لديه من علم ومعرفة في أمر من الأمور حتى ولو كانت حصيلة فيه ضحلة ، وكأنما كان يؤمن بالحكمة القائلة بأن العلم يزكو بنشره .

ويستشهد البيروني في مقدمة كتابه عن الهند (٢٩) بأي الذكر

(٢٩) كتاب البيروني : « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة » ، طبعة لندن سنة ١٩١٠ م . صفحة ٤ .

الحكيم ، وذلك في معرض حديثه عن تقديس الحق ، والسعي الدائب وراءه ، والدفع القوي عنه :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » •

(سورة النساء : الآية ١٣٥)

ويقول البيروني في مقدمة كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » :
« وابتدىء فأقول ان أقرب الأسباب الى ما سألت هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية ، لأن أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم •

ولا سبيل الى التوصل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات ، وانقياس بها يشاهد من المحسوسات ، سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل ، المستعملين لذلك ، وتصيير ما هم فيه أسئاً بعضهم لبعض ، بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق . والأسباب المنعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك » •

ويقول البيروني أيضا في مقدمة كتابه « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » :

« واهم أسلك فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين من طالع أعمالهم واستعمل زيجاتهم على مطايا التريديد الى قضايا التقليد ، باقتصارهم على الأوضاع الزيجية ، وتعميتهم خير ما زاولوه من عمل : وطبهم عنهم كيفية ما أصوله من أصل ، حتى أحوجوا المتأخر عنهم في بعضها الى استئناف التعليل ، وفي بعضها الى تكشف الانتقاد والتضليل ، اذ كان خلد

ففيها كل سهو بدر منهم لسبب انسلاخه عن الحجة ، وقلة اهداء مستعملها
بعدهم الى المحجة •

وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان أن يعمل في صناعته من :
تقبّل اجتهاد من تقدمه بالمنة ،

وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة ، وخاصة فيما يمتنع ادراك
صميم الحقيقة ، فيه من مقادير الحركات ، وتخليد ما يلوح له فيها ،
تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده •

وقرنت بكل عمل في كل باب من علله ، وذكر ما توليت من عمله ، ما
يبعد به المتأمل عن تقليدي فيه ، ويفتح له باب الاستصواب لما أصبت
فيه ، أو الاصلاح لما زلت عنه أو سهوت في حسابه •



خلاصة

ان الشخصيات العظيمة في التاريخ لا شك انها مبعث شرف وفخر للامم التي اليها تنتمي ، فلا عجب أن نرى الأمم العريقة تحفو بعظماؤها وتحرص على تأكيد نسبتهم اليها . من هذه الشخصيات انفة التي عاشت في القرن الرابع الهجري ابو الريحان البيروني . الذي خلف وراءه ما ينوف على مائة وثمانين تصنيفا في ألوان العلوم والمعارف المختلفة ، ولقد أدت ظروف نشأة البيروني وتنقلاته وتغير التبعية السياسية لبلدان اني فيها أقام الى قيام تنازع بين هذه الدول عليه ، وحرصها على اقامة الدليل على احقيتها باتسائه اليها ، وسعيها الى انشاء مراكز علمية واقامة تماثيل تحمل اسمه ، وعقد مؤتمرات ومهرجانات لتخيد ذكراه . ولقد أوردنا في هذا البحث الاتجاهات المختلفة حول نسبة البيروني . ذلك العملاق الذي كان يتمتع بشخصية علمية مرموقة ، تؤثر الحق وترحب بالنقد . وتتفانى في طلب العلم والمعرفة . شخصية عظيمة حقاً جعلت البيروني أهلاً لكل تقدير واجلال ، وهدفاً للتنازع على الاتساء .

ومهما يكن من أمر الروايات المتعددة والاجتهادات المتباينة في نسبة البيروني ، فما من شك في انه الى الحضارة الاسلامية العربية ينتمي وينتسب ، ففي كنفها نشأ وعلا . ومن نبعها نهل وارتوى . والى علمائها جلس وتعلم ، وعنهم أخذ وتكلم ، ومعهم تباحث وتراسل ، فهو منهم وبهم . والحضارة العربية به أولى وأحق : مهما تعددت أسباب النزعات الاقليمية في نسبته اليها ، ومهما تباينت الدعاوى التي تساق تأكيدا لها : فهو أبداً العالم العربي برهان الحق الاستاذ أبو الريحان البيروني أحد أقطاب العصر الذهبي للحضارة العربية .

مصادر البحث

- (١) كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » لابي الريحان البيروني ، نشره ادوارد سخاو في ليبزج عام ١٨٧٨ م . وترجمه الى الانجليزية ادوارد سخاو ونشره في لندن عام ١٨٧٩ م .
طبعة سخاو الثانية مع شروح : ليبزج ، عام ١٩٢٣ .
- (٢) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة » لابي الريحان البيروني .
المعروف ايضا بالعنوان المختصر : تاريخ الهند)
نشره ادوارد سخاو في لندن عام ١٨٨٧ م ،
ونشره مترجما الى الانجليزية في جزئين عام ١٨٨٨ م ، كما ظهرت طبعة جديدة منه في لندن عام ١٩١٠ م ،
وطبعته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند عام ١٩٥٧ م .
وظهرت طبعة نيودلهي (شاند وشركاه) عام ١٩٦٤ م .
- (٣) كتاب « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » لابي الريحان البيروني .
دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن بالهند ، الجزء الاول عام ١٩٥٤ م ، والجزء الثاني عام ١٩٥٥ م ، والجزء الثالث عام ١٩٥٦ م .
- (٤) كتاب « الصيدنة في الطب » لابي الريحان البيروني .
تحقيق الحكيم محمد سعيد والدكتور رانا احسان الهي .
مؤسسة همدرود الوطنية ، كراتشي بالباكستان عام ١٩٧٣ م (صدر بمناسبة مرور ألف عام على مولد البيروني ، والاحتفال الدولي الذي اقيم بكراتشي في ديسمبر عام ١٩٧٣ م بهذه المناسبة) .
- (٥) كتاب « تاريخ حكماء الاسلام » لظهير الدين ابي الحسن البيهقي .
تحقيق محمد كرد علي - مطبعة الترقى بدمشق : سنة ١٩٤٦ م .
كتاب « تمة صوان الحكمة » لظهير الدين ابي الحسن البيهقي .
لتحقيق محمد شفيق ، طبعة لاهور ، سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) .
- (٦) كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن ابي أصيبعة .
طبعة القاهرة بتحقيق اوجست مولر ، سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) .
- (٧) كتاب « صبح الاعشى في كتابة الانشا » لاحمد بن علي القلقشندي .
مطبعة بولاق ، القاهرة ، سنة ١٩٠٥ م .

(٨) كتاب « تقويم البلدان » لعماد الدين اسماعيل ابي الفداء ،
طبعة باريس سنة ١٨٤٠ م بتحقيق دي سلان وريشود - اعادت طبعه
بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .

(٩) كتاب « المسالك والممالك » لابي القاسم ابن حوقل ،
طبعة لندن ، سنة ١٨٧٠ - ١٨٩٣ م .

(١٠) كتاب « كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون » لمصطفى بن عبدالله
الشهير بكاتب جلبي ، وبحاجي خليفة .
طبعة مصر - سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م) .

(١١) كتاب « الانساب » لعبد الكريم بن ابي بكر السمعاني .
طبعة لندن - لندن سنة ١٩١٢ م (سلسلة جب التذكارية) ، تقديم
د.س. مارجوليوث . اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .

(١٢) كتاب « معجم الادباء » او « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » ،
لشهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (او الرومي)
طبعة لندن (منشورات جب التذكارية - المجموعة السادسة) ،
السنوات ١٩٢٣ - ١٩٢٦ م . تحقيق د . س . مارجوليوث في ٧
اجزاء - اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .
طبعة القاهرة : تحقيق احمد فريد رفاعي ، السنوات ١٩٣٦ -
١٩٣٨ م .

(١٣) كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » لابي عبدالله المعروف
بالشريف الادريسي .
طبعة لندن بتحقيق دي جوجي . عام ١٨٨٦ م .
طبعة روما : سنة ١٩٥٢ م .

1.4) «History of the Rise of Mohammeden
Power in India,»
By John Briggs.
Calcutta, 1829.

الحركة الباطنية في شمال فارس وأثرها السياسي والمذهبي

الدكتورة فضيلة عبد الأمير السامي
قسم التاريخ، كلية الآداب
جامعة بغداد

الباطنية أو الاسماعيلية كما هو معروف حركة سياسية مذهبية تعتقد بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد . ولقد مرت هذه الدعوة بمرحلتين حتى استقامت على عودها . ففي المرحلة الاولى بدأت سرية كمادة جميع الحركات المناهضة للحكم حيث كان الدعاة يتخفون في ظل الحكم العباسي المسيطر آنذاك وهم في صومعتهم في سلمية يعطون التعليمات والمبادئ لمريديهم وهؤلاء بدورهم ينقلونها الى الناس ليجسوا بها انصارا ومؤيدين لهم ، ولكن هذه الحركة لم تستمر سرية هكذا اذ انتقلت الى المرحلة الثانية وهي العلنية بعد ان توطدت واستقرت فظهر الفاطميون على المسرح السياسي في مصر وشمال افريقية ، فنافسوا بذلك الخلافة العباسية منافسة كبيرة ، وذاع صيتهم وعلا في الآفاق . اذ انتشرت دعوتهم فشملت مناطق خارج مصر والشام والعراق وبلاد فارس . ففي العراق كان القرامطة وهم فرع من الاسماعيلية ، وفي بلاد فارس أي في المنطقة الشمالية بالذات في اصفهان وما يجاورها على وجه الاخص نشأت هذه الحركة التي هي مدار البحث بطورها الجديد وبفضل شخصية مهمة فيها لعبت دورا بارزا على تركيزها وتوسيعها في تلك الديار ، وهذه الشخصية ونحن بصدها شخصية الحسن الصباح الذي ظهر في أواخر

القرن الخامس للهجرة ، فأكمل بذلك ما بدأه الاسماعيليون من قبل .

ولقد ساعدت الظروف على ظهوره في هذا القرن بالذات اذ كان السلاجقة يحكمون المنطقة الممتدة بين بلاد فارس والعراق وبلاد الشام والآذون . ومع سعة مننقتهم لَدَنهم كان ينقصهم الضبط وقوة الارادة ، اضافة الى الضائقة الاقتصادية التي كانت مخيمة على المجتمع آنذاك ، حيث كثرت الضرائب وزاد الغلاء ، وعم الفقر في البلاد . ومن هنا تؤكد ان اغلب الثورات لا تقوم الا بدافع العوز والضييق الاقتصادي المرير .

ولقد كان التمزق المؤقت الذي حصل في الدولة السلجوقية (١) والاختلافات السياسية ، والتنافر على السلطة أبعد الاثر في تلك الحركة . كما ان بعد بلاد فارس عن مركز الخلافة العباسية ، ثم وجود التشيع فيها (٢) وانتشاره ساعد على قيام هذه الحركة الباطنية اذ قويت شوكتهم في عام ٤٩٤ هـ (٣) .

وقبل ان نخوض في بحثنا هذا عن كيفية بدء هذه الحركة وانتشارها يجب ان نعرف ونلم شيئا عن حياة الرجل الذي قاد الدعوة وتزعمها ، وعن صفاته والمؤثرات الخارجية التي لعبت دورا كبيرا في دفعه لتولي الزعامة للحركة الاسماعيلية ، وموطنه الاصلي مدينة مرو (٤) في بلاد ايران . اما نسبه فيعود الى الامام علي بن ابي طالب (٥) وقيل اصله من اليمن وينسب الى ملوك حمير القدماء (٦) كان قد نزح الى بلاد فارس من مدينة

(١) لويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة ص ١٤ .

(٢) طه شرف : الدولة النزارية ص ١٣ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٤٠٠ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢١ ، تلبيس ابليس ص ١٠٧ .

(٥) احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٧ .

(٦) دائرة المعارف الاسلامية (مادة الحسن) .

الكوفة ، ولكن نظام الملك ينفرد في رأيه ان أهل ضوس قالوا ان اجداده كانوا يفلحون الأرض في ديارهم (١) .

اما اسمه كاملا فهو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن الصباح الحميري ، ولكن تاريخ مولده فهو مجهول فقد قيل انه ولد عام ٣٤٨ هـ أو في عام ٤٤٥ هـ أو ٤٣٢ هـ . وعلى أية حال فانه ولد في حدود القرن الرابع الهجري كما هو متفق عليه فحمله والده وعمره اثني عشر سنة إلى بلاد فارس متجولا بين ربوعها حيث وصل بلاد فارس في مرو وتوطن بها .

ومما لا ريب فيه ان والده اهتم بتربيته تربية عالية حيث درسه العلوم المعروفة في زمانه ، وأوكل تثقيفه كما ذكر الموفق النيسابوري في مدينة نيسابور اذ اهتم بنأديه كثيرا . ولما كبر تولى الكتابة للرئيس عبد الرزاق بن سلام (٢) كما اشتهر بالغنى والثروة .

والواقع ان الحسن يعد من أكبر الشخصيات العلمية التي عرفتھا الدعوة الاسماعيلية ، اضافة الى خبرته السياسية والعسكرية ، حيث قدم للدعوة خدمات عديدة وضحي من أجلها في فترة تجاوزت الخامسة والثلاثين عاما ، وفي ظل الدولة السلجوقية بالذات . فخدم سلاطينها في البداية ، وأصبح أثيرا لدى السلطان السلجوقي ملكشاه فقربه وأكرمه . أما صفاته فكانت السيرة الحسنة النقية والشهامة . ويذكر ابن الاثير (٣) انه كان عالما بالهندسة والحساب وعلم النجوم اضافة الى السحر وتنفيذ الافكار (٤) وربما كان لا تنمائه وهو حدث للدعوة (٥) رسخت اخلاصه

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ١٠٧ .

(٣) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣١٦ .

(٤) غالب : اعلام الاسماعيلية ص ٢٨ .

(٥) براون : تاريخ الادب في ايران ص ٢٤٨ .

لها ، كما كان الداعي الاسماعيلي الامير ضراب و ابا نجم السراج ومؤمن لهم أكبر الاثر عليه ، حيث اصبح معتنقا المذهب الاسماعيلي بعد ان كان يدين بالمذهب الاثني عشري . وعلى ذكر اغلى المصادر فقد تثقف مع نظام الملك وزير السلطان ملكشاه ومع الشاعر المتصوف عمر الخيام ، حيث تزاملوا وتوثقت أواصر الصلة بينهم وكان نظام الملك يكرمه افضله (١) حيث ألحقه بخدمة السلطان ملكشاه فسمّا شأنه وازداد ماله (٢) .

ويجب ان لا ننسى اثر الداعي الاسماعيلي احمد بن عطاش عليه اذ كانت الدعوة الاسماعيلية منشرة في بلاد فارس وكان لها دعاة بارزون وعلى رأسهم ابن عطاش الذي لعب دورا كبيرا في حياة الحسن الصباح وكان هذا ، كما يقول ابن الجوزي (٣) طبيبا أخذ ابوه في ايام طغرل بك لأجل مذهبه فاراد قتله فأظهر التوبة ومضى الى الري وصاحب النيسابوري وهو متقدمهم هناك ، وصاهره وصنف رسالة في الدعاء الى هذا المذهب سهاها العقيقة . ومات في سواد الري فمضى ولده الى هذه القلعة .

ومما نلاحظه ان الحسن توجه اليه بعد ان اصطدم بالسلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك فاجتمع بابن عطاش فرحب به ، والواقع ان ابن عطاش يعد من الدعاة المبرزين في الحركة الاسماعيلية سياسيا ومذهبيا ، فقد كان يقوم بالدعوة في اصفهان واذريجان حيث توجه الى الري ثم استولى على حصن دزكوه المجاورة لاصفهان ويسمى حاليا شاهدز فحكمها قرابة اثني عشرة سنة .

اما كيف اصبحت القلعة في يد ابن عطاش فتروي المصادر وأهمها لابن جوزي (٤) في روايته التي مردها ان حافظا تركيا صادقه نجار

(١) القزويني آثار البلاد ص ٣٠١ .

(٢) عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٤٥ .

(٣) المنتظم : ج ٩ ص ١٥٠ .

(٤) نفس المصدر ص ١٢١ - ١٢٢ .

باطني واهدى له جارية وفرسا ومركبا ، فوثق به واستنابه في حفل المفاتيح فاستدعى النجار ثلاثين رجلا من اصحاب ابن عطاش وعمل دعوة ودعا اليها التركي وأصحابه وسقاهم الخمر فلما سكروا دفع الثلاثين بالجبال اليه وسلم اليه القلعة ، فقتلوا جساعة من اصحاب التركي وسلم وحده فهرب وصارت القلعة بحكم ابن عطاش .

اما بناء هذه القلعة فكما ذكر ان جلال الدولة ملكشاه هو الذي بناها . وهناك رواية طريفة حول سبب بنائها فتقول انه ورد على السلطان ملكشاه بعض متقدمي الروم وأظهر الاسلام فخرج معه في بعض الايام للصيد فهرب منه كلب معروف بجودة العدو الى الجبل ، فصعد السلطان وراءه وطاف في الجبل حتى وجده فقال له ابن الرومي : لو كان هذا الجبل عندنا لبنينا عليه قلعة ينتفع عليها ، ويبقى ذكرها فثبت هذا الكلام في قلبه فبناها وانفق عليها الف الف ومائتي الف دينار (١) .

وبعد بنائها عين عليها السلطان ملكشاه احد دعائه المسمى دزدارا الذي بقي يحكمها طيلة حياته . وبعد وفاته أزيل الدزدارا وانتقلت القلعة الى شخص ديلمي يسمى زيار في عهد خليفة ملكشاه ومالكة اصبهان بعده (خاتون) ثم تملكها من بعده شخص خوزي (أي من خوزستان) . ويرد ابن الاثير (٢) ان احمد بن عطاش داعي الباطنية اتصل به . وكان احمد هذا قد جمع اعدادا كبيرة من الباطنية حيث ألبسوه تاجا ، وجمعوا له اموالا وقدموه عليهم ، لأن اباه كان مقدما فيهم . وقد وثق به الدزدارا وقلده الامور . ومع ذلك نجد ان ابن عطاش سرعان ما يستولي على القلعة ويجعلها تحت سطوته حتى سقوطها بيد الساطان محمد ملكشاه الذي اهتم بأمر الباطنية ورعاها فنزل بهذه القلعة وحاصرها

(١) انظر ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣١٦ .

سنة كاملة حتى اذعنوا له بعد ان قتل رئيسها احمد بن عطاش مع ابنه الذي نفل رأسه بعدئذ مع رأس ابنه الى بغداد عام ٥٠٠ هـ (١) .

اما علاقته بالحسن بن الصباح فمسا لا شك فيه ان ابن عطاش كان ذا اثر كبير على توجيه الحسن نحو الدعوة فكان الحسن من خيرة تلاميذه اذ حينما قدم الحسن اليه من الري اعجب به كثيرا حيث ارسله الى اصفهان ينشر الدعوة فيها موكلًا لابن عطاش (٢) لأنه اتخذه فيما بعد مساعدا له وداعيا اسماعيليا موثقا به في تلك الديار .

علاقة الحسن بالوزير السلجوقي نظام الملك

اما علاقة الحسن بالوزير نظام الملك فكما يروى ان الحسن كان من اقران نظام الملك (٣) وزير السلطان الب ارسلان السلجوقي وابنه ملكشاه واللدان يعدان من كبار ملوك السلاجقة قاطبة وأشهرهم آنذاك كما ان نظام الملك كان يكرمه ويقدره . ويعد نظام الملك من اولاد الدهاقين في بلاد فارس (٤) وقد اهتم بالعلم فأنشأ المدارس والكليات والرباطات والمساجد والمارستانات باسم السلطان ملكشاه حيث كان مفضلا لديه (٥) .

ويروي لويس (٦) ان نظام الملك والحسن بن الصباح وعمر الخيام كانوا تلاميذ لاستاذ واحد فتعاهدوا على ابقاء الزمالة فيما بعد ، وقد رضي نظام الملك على ما تعاهدوا عليه اذ منح بعد تسنسه الوزارة عمر الخيام راتباً سنوياً ضخماً طيلة حياته . اما الحسن فقد عرض عليه

(١) المصدر السابق .

(٢) براون : تاريخ الادب في ايران ص ٢٤٩ .

(٣) سيد امير علي : روح الاسلام ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٤) ونظام الملك هو الحسن بن اسحاق بن العباس الوزير ابو علي

الطوسي المولود عام ٤٨٠ هـ في مدينة طوس .

(٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٩٨ .

(٦) الدعوة الاسلامية الجديدة ص ٥٣ .

أحدى الولايات الإسلامية لكنه رفض وطلب أن يدخل في خدمة السلطان.
فاختلف الزميلان وحصل التنافس بينهما •

أما أسباب هذا الخلاف فهناك روايات متضاربة بصدد فقد قيل
أن الحسن كان قد تقرب إلى السلطان ملكشاه فرحب به واعتمد عليه
وأصبح يستشيريه مما أثار ضغينة الوزير نظام الملك (١) • ولكن هناك
رواية مردها أن نظام الملك كان قد أساء الحسن إليه من قبل لما كان
يعقده من اجتماعات مع دعاة الباطنية (٢) الموفدين من مصر • ورواية تقول
أن الحسن كان مرشحا للوزارة ولهذا اختلف معه نظام الملك وتآمر
عليه وتسكن بطريق الدس أن يحط من شأنه لدى السلطان السلجوقي ،
غير أن هناك من يقول أن الاختلاف المذهبي بينها يعد سببا للخلاف •
ومهما تضاربت الروايات فالنتيجة أن السلطان انقلب وتغير على الحسن
وطرده من ملكه ثم من خارج البلاد أيضا فتوجه بعدها إلى مصر مركز
الدعوة الفاطمية •

أما نظام الملك فإنه بقي حاقدا على الباطنية جميعا ولم يعيش بعد
عزل الحسن طويلا إذ توجه السلطان ملكشاه من أصفهان إلى بغداد

(١) يقول مصطفى غالب أن السلطان أوعز إلى الحسن أن ينظم
سجلا عاما للموازنة في الدولة في مدة أقصاها أربعون يوما فتآمر نظام
الملك مع أحد غلمان الحسن فقلبوا السجل بعد أنجازه بالمدة المحددة رأسا
على عقب ، ولما عرض السجل على السلطان طلب من الحسن حساب إحدى
الولايات فضاقت صدر السلطان عندما اغتنم نظام الملك الفرصة ودس على
الحسن فأمر السلطان بالقبض عليه فتمكن من الفرار وتوجه إلى الري •
أعلام الإسماعيلية ص ٢٢٣ •

(٢) يروي ابن الأثير أن رئيس الري أبو مسلم صهر نظام الملك اتهم
الحسن بدخول جماعة من دعاة المصريين عليه فخافه ابن الصباح وكان نظام
الملك يكرمه وقال له يوما من طريق الفراسة : عن قريب يصل هذا الرجل
ضعفاء العوام • فلما هرب الحسن من أبي مسلم طلبه فلم يدركه •
الكامل ج ١ ص ٣١٦ •

معولا على قصد مصر لتملكها فلما وصل الى همدان وثب رجل ديلبي من الباطنية على وزيره « خواجه بزرگ نظام الملك » فقتله وهرب ساعته فلم يوجد له أثر (١) .

ومما لا شك فيه ان نظام الملك كان يوصف بالعدل والاحسان ، وقد أسف السلطان وتآلم جدا عليه . والواقع ان مقتله جاء على رجل باطني يدعى طاهر أو هو كما قيل ابن واعظ سبق ان شغل عدة مناصب دينية ارسله الحسن خصيصة لقتله (٢) وقو تزيا بزي أحد المساكين فأخرج خنجرا من طيابة ملابسه طعنه بها طعنة قاتلة .

ولقد حدد مقتله حسب اغلب الروايات عام ٤٨٥ هـ (٣) ثم حاول في عام ٥٠٠ هـ ابن نظام الملك فخر الملك ووزيره السلطان سنجر ان يثار لأبيه فهاجم قلاع الاسماعيلية ولكن الحسن ارسل اليه احد فدائيته فطعنه بطعنة خنجر .

وهكذا يعد مقتل نظام الملك اول حادثة اغتيال لشخصية سياسية لعبت دورها في الدولة السلجوقية حيث استفحل امرهم فيما بعد في اصفهان لا سيما بعد وفاة السلطان ملكشاه ونظام الملك وزيره . حيث اصبح فاتحة لعهد جديد اخذ الباطنيون بموجبه ينشرون الارهاب والعمل السري والعلني .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

(٢) ينفي براون بقوله ان تاج الملك الذي خلفه في الوزارة كان المحرض الحقيقي في ارتكاب هذه الجريمة التي ظنها البداية ستساعده على تثبيت مكانته وتقوية نفوذه ، ولكنها أدت في الحقيقة الى قتله هو بعد اربعة شهور من قتل نظام الملك قتله جماعة من اتباع نظام الملك سنة ٤٨٦ هـ تاريخ الادب في ايران ص ٢٤٩ .

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٣٦ .

رحلة الحسن الى مصر واسبابها

من الملاحظ ان الحسن بعد طرده من البلاط السلجوقي توجه قاصدا مركز الدعوة الباطنية في مصر ، اما الأسباب التي دفعته للتوجه الى مصر دون غيرها فتتضارب الآراء حولها فهناك من يرى ان اخلاص الحسن للدولة وتفانيه لها دفعته الى السفر الى القاهرة ليطلع على اصول المذهب الاسماعيلي ويتبحر فيه . وهنا من يرى ان الحسن بعدما اخفق في تحقيق اطماعه في بلاط السلطان ملكشاه رحل الى بلاط الخلافة في القاهرة حيث اطلع على اسرار المحفل الاكبر . كما ان من يرى ان ابن عطاش رئيس الدعوة في فارس هو الذي حرض الحسن على الذهاب الى مصر ليستزيد من علوم المذهب الاسماعيلي ويقضي شئون الدعوة العملية من ينبوعها الاساسي ، كما ان رأيا يرى ان ابن عطاش أمره بالذهاب ليحضى بمقابلة الامام المستنصر . وقيل ان السلطان في الري اتهمه بايواء العللاء المصريين حيث هرب لينجو من القاء القبض عليه متوجها الى مصر . ولكن الواقع يؤكد ان الحسن لم يدخل الى مصر الا للاطلاع على اصول المذهب الباطني من ينبوعها . ومما يؤكد ذلك دخوله دار الحكمة متفقا فيها ومتعمقا في دراسة المذهب الاسماعيلي وغيره من مجالس الدعوة في القاهرة لكون المذهب يعتمد على السرية المطلقة .

وقبل ذهاب الحسن الى مصر تجول في بلاد فارس مجتازا طريق اذربيجان وميفارقين^(١) ، وبزي تاجر ينشر الدعوة فيها ثم مر في طريقه بالموصل وسنجار وسورية وهو خلال ذلك يلقي المحاضرات بين الناس . وحينما وصل حدود مصر سمع به أهاليها فاستقبله العامة باشتياق كبير اضافة الى رجال البلاد وذلك عام ٤٦١ هـ . وكان من مستقبله

(١) يذكر لويس ان الحسن حينما وصل ميفارقين سرعان ما طرده قاضيا بسبب تأكيده ان الامام وحده فقط له الحق في تفسير الديانة .
الدعوة الاسماعيلية الجديدة ص ٥٥ .

داعي الدعوة القزويني • ولما دخل على الخليفة الفاطمي المستنصر (١) بالله
رحب به ترحيبا كبيرا وجعل له مجلسا للدعوة لمنزلته ولدوره في الدعوة ،
كما أكرمه وقيل ان الخليفة افرد له دارا يسكنها طيلة مكوثه البلاد (٢) ،
وهذا يدل على علو شأنه لدى الدولة الفاطمية لكونه قطبا من اقطاب
الدعوة الباطنية التي لها صلتها بالام القاهرة المعزية • ولأن مدارس القاهرة
كانت ترسل الدعاة الى بلاد ايران وهي معقل الشيعة وانها تستقبل
الكثير من الشخصيات المؤيدة كالكرماني والشيرازي وناصر خسرو ليتلقوا
الدعوة فيها •

ومن هنا نستخلص ان الحسن لم يرحل الى مصر الا لتلقي الدعوة
من دعاة المذهب ليعود داعية ورأسا فيهم (٣) •

ويرد ابن الأثير (٤) ان الحسن حينما وصل مصر دخل على المستنصر
صاحبها فأكرمه وأعطاه مالا وأمره ان يدعو الناس الى امامته فقال له
الحسن : من الامام بعدك ؟ فأشار الى ابنه نزار • (ونزار هو الابن
الأكبر للامام المستنصر الذي يعد اولى بالامامة من غيره على عادة تعاليم
الاسماعيلية التي تشترط في الامام ان يكون اكبر أبناء ابيه) (٥) •

وعلى أية حال فقد بقي الحسن مخلصا للخليفة المستنصر حتى وفاته

(١) المستنصر بالله هو ابو تمام معد بن ابي الحسن علي الظاهر
لاناز دين الله العاوي صاحب مصر والشام ، وكانت خلافته ستين سنة
واربعة اشهر وكان عمره سبعا وستين سنة وهو الذي خطب له البساسيري
في بغداد • ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧ •

(٢) يرى فريق ان الخليفة المستنصر لم يقابل الحسن خلال وجوده
في مصر •

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢١ •

(٤) الكامل ج ١٠ ص ٣١٧ •

(٥) محمد سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ٩١ •

عام ٤٨٧ هـ • ولقد جاوزت مدة بقاءه في مصر ثمانية أشهر (١) تطلع خلالها على المحفل الأكبر • لكنه اصطدم بالقائد بدر الجمالي (٢) بسبب الخلافة، اذ عين المستعلي (ابو القاسم احمد المولود عام ٤٦٧ هـ وهو الابن الاصغر وخليفة المستنصر من بعده بدلا من نزار الابن والذي فاصره الحسن الصباح) •

ويقول المقرئ (٣) انه لما مات الخليفة المستنصر بالله ابو تميم معد ابن الامام الظاهر لا عازار دين الله ابي الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله ابي علي منصور بأمر الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش بدر الجمالي اذ جاء الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر ، فجاءوا اليه فاذا أخوهم احمد وهو اصغرهم قد جلس على سرير الخلافة فامتعضوا وشق عليهم وامرهم الافضل بتقيل الارض وقال لهم : قبلوا الارض لمولانا المستعلي بالله وبايعوه فهو الذي نص عليه الامام المستنصر بعد وفاته بالخلافة من بعده • فامتنعوا من ذلك ، وقال كل منهم ان اباه وعنده بالخلافة ، وقال نزار لو قطعت ما بايعت من اصغر مني سنا وخط والدي عندي بأني ولي هذه وانا احضره ، وخرج مسرعا ليحضر الخط فمضى لا يدري به احد وتوجه الى الاسكندرية (٤) •

ومن هنا نرى ان الخلاف قد استفحل بين الحسن وبدر الجمالي ادى

(١) يرى لويس ان مدة بقاء الحسن في القاهرة بلغت الثلاث سنوات في الاول في القاهرة وبعدئذ في الاسكندرية • الدعوة الاسماعيلية ص ٥٥ •
(٢) قيل ان المستنصر كان يستكثر من العبيد حيث جعل التنافس والحروب بينهما مما اضطره الى الاستمالة برجال من بلاد الشام كان علي رأسهم بدر الجمالي وهو ارمني من اصل سوري حيث قتل الكثير من اهل الدولة واقام بمصر هذا عددا من الارمن • جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٢٣٥ • وقيل ان بدر الجمالي هو والد زوجة المستعلي • طه شرف : الدولة النزارية ص ٥٤ •

(٣) الخطط ج ١ ص ٣٥٦ •

(٤) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣٥٦ •

بالاخير الى سجنه ثم اخراجه من البلاد نهائيا على ظهر سفينة الى افريقية حيث تحطت في البحر وانقذ منها باعجوبة فنزل بلاد الشام وهو يدعو لنزار ثم في بغداد وخوزستان واصفهان التي تعد مركزا للاسماعيلية كما توجه الى كرمان وطبرستان ودامغان وقزوین ناشرا الدعوة فيها . كما دخل طاشغر وبلاد ما وراء النهر (١) .

اما نزار فانه هرب ايضا كما يروي الى الاسكندرية وبها القائد افتكين مولى آبيه فقام له بالامر ولقبه ناصر الدولة ، واخذ له البيعة على اهل البلد ويساعده ابن عسار قاضي الاسكندرية ، ولكن بدر الجمالي توجه الى الاسكندرية يحاصر قائدها لكن القائد افتكين هزمه الى القاهرة غير انه حشد له جيشا آخر ونازلها وافتتحها عنوة وقتل اعيان اهلها ، ثم قدم الافضل افتكين ونزار الى القاهرة فقتله المستعلى وبنى حائطا على أخيه نزار عام ٤٨٨ هـ (٢) .

استيلاء الحسن على قلعة ألموت

في الحقيقة ان الحسن الصباح حينما خرج من مصر هاربا الى بلاد فارس ثائية وهو يحمل فكرة الدعوة الى الخليفة الفاطمي الشرعي والمغتصب نزار ، وكل غرضه من ذلك تكوين دولة اسماعيلية جديدة ومنظمة تتركز فيها المبادئ الاسماعيلية ، وجعلها مركز اشعاع في باقي المناطق الاخرى لذا اخذ يسعى الى ذلك حيث استطاع وبجهود جبار

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣١٣ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٣ ، وهناك فريق يرى ان نزار هرب مع الحسن الى بلاد فارس مع ولده الذي لقبه الهادي بعد وفاته اعلام ص ١٢٥ ، ولكن صاحب تاريخ ذيل دمشق يذكر ان ابن نزار خرج من مصر الى خراسان الى بيت الصباح في قلعة ألموت واتصل اليهم واولد هذا الابن من بيت ابن الصباح ، ومات هناك وله ابن نص عليه ليس نزار بل محمد بن نزار . اعلام الاسماعيلية ص ١٢٨ ٩٠

ان يستولي على حصن منيع الا وهو الموت (١) فيجعلها قاعدة له .

اما كيف تم له ذلك فيروي ابن الاثير (٢) ان الحسن حينما رأى قلعة الموت واختبر أهل تلك النواحي أقام عندهم وطع في اغوائهم ودعاهم في السر وأظهر الزهد وأبس المسح فتبعه أكثر والعلوي صاحب القلعة حسن الظن به يجلس اليه يتبرك به فلما أحكم الحسن أمره وضل يوما علي العلوي بالقلعة فقال له : اين الحسن الصباح : أخرج من هذه القلعة . وهكذا اخرج منها الى الدامغان واعطاه ماله وملك القلعة وذلك عام ٤٨٣ هـ (٣) .

وهناك من يرى ان هذه القلعة كانت لقساج صاحب ملكشاه وكان يستحفظها بنفسها بذهب المقدم فأخذ ألفا ومائتي دينار وسلم اليهم القلعة (٤) . ومما لا ريب فيه ان الحسن حينما استولى على القلعة لم يجد مقاومة تذكر اذ اهل الناس شأنه واستفحل امرهم لانشغال اولاد ملكشاه بنفوسهم (٥) . وان كان والدهم ملكشاه قد ارسل حملة اليه في حياته لكنها صدت من قبلهم — ومهما يكن من أمر فان الحسن استقر في هذه القلعة قرابة خمس وثلاثين عاما وهو يدعو الناس الى تعيين امام

(١) في اللغة الفارسية القديمة تسمى الموت عش النسر وهو يقع في احدى القلاع الجبلية المنيعة شمال ايران . احمد امين : روح الاسلام ج ٢ ص ٢٢ . وآلوت تعد قلعة حصينة من ناحية رود بار من قزوين وبحر الخزر على قلعة جبل وهو لها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب قبل ان بعض ملوك الديلم ارسل عقابا على الصيد فتعد على موضع الموت فرآد حصينا فبنى عليه قلعة وسماها اله آموت ومعناها بلسان الديلم تعليم العقاب . ويقال : لذلك الموضع وما يجاورها الطالقان : ابو الفداء : المختصر ج ١ ص ٢ في ومنهم من قال اسم القلعة بتاريخها لانها كتبت في سنة ست وأربعين وأربعمائة وهي موت . القزويني : آثار العباد ص ٣٠١ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٣١٧ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٢ .

(٤) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ١٠٧ .

(٥) شذرات الذهب ج ٣ ص ٤٠٠ .

صادق قائم في كل زمان وتمييز الفرقة (١) . كما ارسل مبعوثين إلى منطقة الدامغان حيث ساعدوا هناك من قبل حاكم الدامغان مظفر الذي كان يدين بمذهب الاسماعيلية ثم علت منزلته بين قومه فلقب بشيخ الجبل كما اخذ باحتلال قلاع مجاورة لالموت منها حصن جردكوه (جردكوه) وقلعة طيس وقهقستان وسنسكوه وهي بقرب ابهر وقلعة خليجان وقلعة ازدهن ملكها ابو الفتوح ابن اخت الحسن وقلعة انبور وخلواجان وخوزستان .

وهكذا اخذ ينشر للدعوة الباطنية في معظم بلاد فارس مستغلا النزاع بين اولاد السلطان محمد وأخيه بركيارق . ولقد حاول نظام الملك من قبل صد الباطنية لكنه سرعان ما قتل بأيديهم لذا أصبح المجال مفتوحا امام الحسن للعمل على ترسيخ دعائم الحركة في تلك الديار ، وقتل الامراء الأكابر غيلة فخافه الناس وعظم صيتهم (٢) .

غير أن الأحوال تبدلت إذ أخذ السلطان محمد بن ملكشاه يفكر بالقضاء عليهم بعد ان أحس بازدياد أثرهم لذا جهز نحوهم العساكر فحصرها (٣) ، لكن تلك العساكر كانت تبوء بالفشل إذ أرسل السلطان محمد قائده انوشكين شيركو الى الموت وأمدد السلطان بأعداد كبيرة من الجيش وحاصر القلعة فاستولى وهو في طريقه على قلاع عدة منها قلعة كلام وقلعة بيره ثم توجه الى الموت فحاصرها قرابة خمسة سنوات دون جدوى ولكن بعد وفاة السلطان محمد اضطر أنرشتكين الى فك الحصار كما سير السلطان محمد أيضا اليها وزيره احمد بن نظام الملك لقتال الحسن ومن معه من الاسماعيلية ولكن الشتاء هجم عليهم فعادوا فاشلين (٤) واستمر هكذا الصراع بين السلاجقة والباطنية فترة

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) ابو الفداء : المختصر ج ١ ص ٢٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣١٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣١٨ .

كانت الغلبة لصالح الحسن كما ازدادت معنوية الباطنية خصوصا بعد وفاة السلطان محمد حيث نظموا امورهم ومضوا بعزيمة خارقة يثبتوا الدعوة لنزار دون أخيه المستعلى غير ان السلطان الجديد بركيارق اجتهد في تتبعهم وقتالهم (١) دون جدوى .

وهكذا نلاحظ ان السلاجقة مهما استعملوا من وسائل الشدة لكن الدعوة ثابتة في آلموت حوالي السبع السنين توفي بعدها الحسن بعمر بلغ التسعين مستخلفا اميد رودبار وكميا بزرگ اميد (٢) .

ولقد توسعت دعوتهم الى اصفهان نفسها وهي احدى عواصم الدولة السلجوقية (٣) فينقل مؤلفات الدعوة ومبادئها هناك وهم يدعون بامامة اسماعيل وبنه من آل البيت .

اما خلفاؤه فقد اتجهوا الى سياسة متعصبة وقاموا بقتل امراء السلاجقة وبقي الصراع على أشده بينهما وقد قام جلال الدين منكبرتي ابن خوارزم شاه بمحاصرة آلموت لقتلهم بعض امرائه غيلة وضرب قلاعهم في خراسان (٤) .

ولقد انتهى حكمهم عام اربع وخمسين وستمائة للهجرة وكان عدد

(١) ابو الفداء : المختصر ج ١ ص ٢ (ويروي ان قلعة آلموت حوصرت من قبل السلطان السلجوقي حيث ارسل اليه السلطان رسولا يطلب الاستسلام ويدعوه بطاعته فنادى الحسن احد فدائيه وقال له : الذي بنفسك من هذا البرج ففعل . وقال للثاني : اطعن نفسك بهذا الخنجر ففعل . فقال للرسول : اذهب وقل لمولاي انه لدي سبعون الف امثال هؤلاء الذين يبذلون دمايتهم في سبيل عقيدتهم) غالب . اعلام الاسماعيلية ص ٥ .

(٢) فضل الله الهمداني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٥٨ (ويروي ان ابن الصباح كان له ولد اسمه ايضا الحسن فزعم انه معد ولد نزار ومن ثم طالب بالامامة) (دائرة المعارف الاسلامية مادة الحسن) .

(٣) العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٦١٤ .

(٤) عنان : تاريخ الحركات السرية ص ٥٢ .

ملوكهم ثمانية يذكرها انهداني (١) وهم الحسن بن علي بن محمد الصباح الحميري وكيابزرگ اميد وكان وهو والحسن داعيين ومحمد بزرگ اميد ومحمد حسن وجلال الدين بن محمد بن حسن ركن الدين الذي ختمت به الدولة الاسماعيلية •

مبادئ دعوته

ومما لا شك فيه ان الحسن الصباح حينما اعتنق المذهب الاسماعيلي أو الباطني فانه تفانى في الاخلاص له اذ لم يزل عن مبادئها مطلقا وبقي ينشر تلك المبادئ في ربوع بلاد فارس وهو يتلقاها من مجالسها الاصلية الاساسية في القاهرة لذا نلاحظ ان الحسن لم يكن الادعاء للفاطميين أي ادعاء اسماعيليا وقد احترمته العامة فكانت تسمية باسم سيدنا • اما اتباعه فكانوا باسم الاسماعيلية أو الالموتية مما يدل على وجود دعوته الاسماعيلية ليس الا ، وكانت تلك المبادئ تقوم على تأويل القرآن وتفسيره بقولهم لكل ظاهر باطن ، كما كانوا يقدسون الائمة باعتبارهم هم وحدهم الذين يقومون بتأويل القرآن وليس غيرهم (٢) • وكان يترتب المذهب كما هي عادة السبعية الاسماعيلية على سبع درجات : داعي الدعاة وكبار الدعاة المساعدون والدعاة ثم الرفاق واللاحقون والفدائيون والمستحيون •

وكان الحسن نفسه محافظا على سنن الدين والمذهب الاسماعيلي لا يبيح الخمر ولا الموسيقى في دائرة حكمه ويصفه اتباعه بنقاوة السيرة مستقيم حتى انه لم يتورع في قتل ابنه بتهمة الاشتراك في قتل احد الدعاة المخلصين كما قيل انه قتل ابنه الثاني لشربه الخمر سرا •

(١) جامع التواريخ ص ٢٥٨ •

(٢) يقول ابن الجوزي: كان الحسن يقول للمستحيين اذا كانت الازارقة والخوارج سمحوا بنفوسهم في قتال بنى امية فلما سبب بخلك بنفسك في نصره امامك • تلبيس ابليس ص ١٠٧ •

أما بالنسبة لاساس الدعوة فان الحسن قسم مراتبها الى قسمين مراتب عالية ومراتب منخفضة فالمراتب العالية يتولاها اضافة الى الامام اداعي الكبير وتشمل على عدد من الدعاة يتولاها اضافة اليه في مقاطعات مختلفة ثم الدعاة العاديون او المساعدون .

اما المراتب المنخفضة فهي مرتبة الرفيق واللاحق والفدائي والمستجيب . والفدائية فرفة احداثها الحسن وانفردت بها الدعوة فتميزت عن غيرها اذ احتاج الصراع السياسي بينه وبين السلاجقة الى احداث فرفة فدائية غايتها اثار والانتقام من الاعداء . وباخلاص تام وعقيدة فيضحون بأنفسهم لأجل الدعوة مهما يكن (١) . كما احدث ايضا منصبا جديدا في الدعوة الا وهو منصب شيخ الجبل ، وكان الحسن يسمى بهذا اللقب .

ومن تعاليم دعوته قوله بالحق والباطل والصغير والكبير فيقول : ان في العالم حقا وباطلا ، وان علامة الحق هي الوحيدة وعلامة الباطل هي الكثرة ، وان الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي والتعليم مع الجماعة والجماعة مع الامام والرأي مع الفرقة المختلفة وهي مع رؤسائهم . وجعل الحق والباطل التشابه بينهما من وجه والتمايز بينهما من وجه التضاد في الطرفين والترتب في احد الطرفين ميزانا يزن به جميع ما يتكلم به .

كما تقول الدعوة انه انشأ هذا الميزان من كلمة الشهادة وتركيبها من النفي والاثبات ، والنفي والاستثناء قال : فما هو مستحق النفي باطل وما هو مستحق الاثبات حق . كما ان كل كلمة تحتاج الى اثبات المعلم وان التوحيد هو التوحيد والنبوة معا حتى يكون توحيدا ، وان النبوة هي النبوة والامامة معا حتى تكون نبوة (٢) .

ومن مبادئه ايضا انه لا بد من معلم معتمد صادق وان معرفة الباري

(١) يطلق البعض عليهم الحشيشية باعتبار ان الدعاة الباطنية كانوا يأكلون اوراق الحشيش يتخذوها فيقوموا باداء الواجب .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٥ .

يحتاج الى معلم صادق يجب تعيينه وتشخيصه ثم التعلم منه .

وهذا مما لا شك فيه ان الحسن الصباح اسهم في تأليف الكتب المذهبية وبها مبادئ الدعوة الباطنية والتي تعد مقدسة (١) لكنها فقدت جبيعتها غدا كذب سركوشت سيدنا ومعناها تاريخ سيدنا . وكان يقوم بتثقيف الناس على اسس هذه الدعوة ومبادئها الفلسفية . ولقد افادت الدعوة منه الكثير حيث استطاع وبدهائه وبمقدرته الحربية والسياسية والفكرية ان ينشأ هذه الحركة في تلك الحصون المنيعه ثم توسيعها الى مناطق اخرى متعددة حيث ينال بذلك شهرة وصيتا لم تحصل لغيره من الدعاة المتأخرين حتى انتهت أخيرا بوفاته اولا ثم بتحطيم قلعته فيما بعد في عهد خلفائه ثانيا وزوالها من عالم الوجود .



(١) ايفانوف : المرشد الى الادب الاسماعيلي ص ١٥ .

تحقيق كتب التراث

كتاب عيون التواريخ

ضمن سلسلة كتب التراث التي تقوم باصدارها وزارة الاعلام ظهر
اخيرا كتاب « عيون التواريخ » لمؤلفه محمد بن شاكر الكتبي المتوفي سنة
٧٦٤ هـ ١٣٦٣ م .

وابن شاكر يعتبر من المؤرخين البارزين والباحثين الممتازين ولد في
داريا من قرى دمشق ونشأ وتوفي في دمشق ، اشتغل بتجارة الكتب فربح
منها مالا طائلا ومن أشهر كتبه - فوات الوفيات (مجلدان) اشتغلا على
٥٧٢ ترجمة وعيون التواريخ وهو في عدة اجزاء وهو كتاب يجمع بين
الحوادث والوفيات ومرتب على السنين .

لقد تصدى لتحقيق هذا المخطوط المهم - الاستاذ الدكتور فيصل
السامر استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة بغداد والآنسة نبيلة عبدالمنعم -
مدرسة التاريخ في كلية التربية - جامعة بغداد ، وجاء تحقيقهما للكتاب
دراسة مستعة ومفيدة تبرز جانبا مهما من تراثنا الخالد .

ان الكتاب مجموعة كبيرة احداث تاريخية شملت مشرق الامة
الاسلامية ومغربها وتعتبر هذه المجموعة موسوعة وافية لفهم الاوضاع
السياسية والثقافية والاجتماعية للعالم الاسلامي بعامة والعربي بخاصة .
ان وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية في اهتمامها ورعايتها للتراث
العربي الخالد انما تعمل من منطلقاتها القومية الواضحة ، وان تقديمها
لهذه سلسلة الرائعة من كتب التراث هو اسسى خدمة لتاريخنا القومي .
ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب على ثقة ان وزارة الاعلام
في الجمهورية العراقية وزميلتها وزارة الثقافة والفنون ستكون لهما
المبادرات الخلاقة في اتحاف المكتبة العربية نفائس رائعة من تراثنا الخالد
وانهما سيعملان حتما على رعاية هذا النهج النبيل والحفاظ على التراث
المجيد .

الدكتور حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

كتاب الفتح المبين

قدمت وزارة التراث القومي في سلطنة عمان مشكورة الى المكتبة العربية كتابا من أبرز كتب التراث العربي ، ذلكم هو كتاب الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين مؤلفه حميد بن محمد بن زريق بن بخيت المتوفي سنة ١٢٧٤ هـ .

والكتاب هو واحد من المخطوطات النادرة التي احتوتها خزانة المخطوطات العمانية والتي تحتفظ بها مشكورة وزارة التراث القومي .
وفد قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة ابواب ، وضمن كل باب عدة فصول وبحث في مواضيع مختلفة غاية في الاهمية وانطرافة التاريخية .

امتاز ابن زريق في انه اعتمد على كتب الاقدمين الثقة امثال ابن اسحق والواقدي وابن هشام والمسعودي وابن دريد وغيرهم من كبار المؤرخين والباحثين المعتمدين .


والحق فان كتاب الفتح المبين الذي قام على تحقيق الاستاذان انضمامان الدكتور محمد مرسي عبدالله وعبد المنعم عامر . له أهمية خاصة من حيث كونه مصدرا مهما من مصادر دراسة تاريخ عمان ، وقد بذل المحققان مجهودا علميا ممتازا في اخراج هذا الكتاب بهذا الاسلوب العلمي الرائع .

انا نبارك لوزارة التراث القومي في شخص السيد الوزير فيصل بن عبي اهتمامها الكبير في هذا المنحى التراثي وعنايتها الفائقة في اخراج مثل هذه النماذج الرائعة خدمة لتراثنا القومي واتحافا للمكتبة العربية . وانا على ثقة ان وزارة التراث القومي في سلطنة عمان ستقوم بمبادرات رائعة في هذا المجال الثقافي في المستقبل ما دامت خطواتها الاولى صائبة ومرتنة ومقرونة بهذا النجاح الكبير .

الدكتور حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

The palace is a bit differently arranged than those previously discussed. Rather than having principal areas running horizontally, it has more of a feeling for lateral lay-out. The whole plan can be divided into three separate blocks. The entrance is into a small vestibule, behind which is the main palace courtyard. To the left of this is the temple area, containing five temples, each built on its own courtyard and following the plan of the northern temples. To the right of the principal court is an area of rooms and courts which balances the temple area. Behind this main entrance court to the right is the Great Hall, at the far end of which is the entrance to the king's chambers which are distinctly separated and face out of the city towards the mountains. To the left of the Great Hall is the throneroom. Around the three remaining sides of this room are rooms and courts which balance the Great Hall and make the whole into an almost square area. About the middle of this rear section on the south is the bridge to Nabu temple which was arched. The palace terrace was built with great consideration to the natural topography of the land.



The most important innovation of the whole building is only theory, but there is enough evidence to give it strength. It is believed that the structure held one of the first examples of vaulting. It is certain that some of the corridors were beyond a doubt vaulted. Many are also of the opinion that the temples were also vaulted and the entire roof was probably vaulted with huge blocks of compressed clay, supported on its continuous walls.

At present we can draw no conclusions regarding the palaces of Nebopolassar and Nebuchadnezzar. Perhaps future excavation at the site of Babylon may reveal more knowledge of these two palaces and probably also about the First Dynasty of Babylon, which would be of great value.

is now moved far down to the left where a vestibule enters directly into a large courtyard which at the first building was the chapel court.

The whole feeling of all the Tell-Asmar palace construction witnessed is one of symmetry, precision, and not too much imagination.

By the time palace of Mari one sees a change in floor plan and in general, a little more inspired building. The palace was now much enlarged to handle all sorts of state matters, and to employ in its shops, house, and provide for what must have been a gigantic staff.

The core of the plan, which is almost square, is the Great Courtyard off of which opens a comparatively small throne-room. Directly to the left of the Great Courtyard is the courtyard of the sanctuary which consists of two very large rectangular rooms. Around this are arranged in their own area the king's quarters, school, visitor's rooms, and all the other separate departments needed to maintain the palace.

The palace was approachable through one gate only and its outer wall was decorated by buttresses and recesses, the buttresses being placed in groupings rather than regularly. A very well engineered drainage system had been worked out to serve the whole palace.

Sargon's palace at Khorsabad speaks with every brick of the king's might, power, and wealth. It is more than a monument, it is the culmination and innovation of all known architectural advances, illusion, and pure psychological effect. The fact that the palace was elevated produced the same effect as the temples placed on top of a ziggurat, the feeling of highness, adoration, etc., stating that this was power.

up from this could be seen the step-terraces which were planted and irrigated.

The palaces discussed in this paper cover approximately a little more than 1000 years of architectural development. We will now to try to point out their differences, likenesses, and any inovations.

In the several reconstructions of the palace at Tell Asmar the most noteworthy thing was the extreme conservatism in planning from one rebuilding to the next. There was very little change in floor plan or building. Also to be mentioned was the role of the palace in connection with the temple, the Gimilsin temple being adjoined and being given as much prominence as the palace itself, denoting that the king was still the first servant of the gods, and second, ruler of the land.

During the first two stages of building we see the main entrance to the palace being as close as possible to the temple entrance. This entrance is into a vestibule, on either side of which is a series of corridor-rooms running the length of the three principal rooms of the palace which are laid nearly side-by-side. The palace courtyard at the left enters into the throneroom and just across a corridor is the entrance to the Great Hall. Off of the Great Hall is the temple entrance from the palace. To the left of the courtyard is a separating wall behind which lies the palace chapel area in the first building and in the second building the same area holds private quarters for the king, an outer court, and various other rooms. This omission of the palace chapel might denote a slight break between religion and the crown.

The last rebuilding is much similar to the first, the three major rooms still in very much the same position as previously, the only principal change being that the main entrance

for the wall that originally joined it at this point.

The north wall of the palace is marked by 80 vertical «teeth». These rest probably on Nabopolassar's original pavement.

The eastern entrance consists of a three-chambered building and having no towers. The first room is large and has two doors leading to a chamber near the court and two directly to the court.

The rooms in this part of the palace are laid out in a very regular form and have walls of considerable strength.

The Palace of Nebuchadnessar :

Unfortunately, we have as little information about this palace as that of Nabopolassar, there being very little valid archeological evidence to depend upon.

This structure consists of a number of small units of baked brick combined into a complex measuring 900 x 600 feet. The throneroom is the only room to be identified. The throne stood at the center of one of the long walls and faced the entrance. In this room was found a frieze in profile made of glazed bricks of yellow, white, and blue that shows columns connected by flower garlands.

672012

The palace was placed about the middle of the northern city wall. Of this structure only the ground plan and the three stairs leading up to it are preserved. Herodotus leaves his account including the measurement, but still does not clear up any uncertainties regarding its appearance.

Leading from the temple quarter at the south of the city, Nebuchadnessar laid out a festival avenue which passed through the «Ishtar Gate». Behind this was the palace. Rising

The Palace of Nabopolassar :

In the **Steinplatten** inscription, 7, 34, Nebucchadnezzar says: «In Babil, my favorite city, that I love, was the palace, the house the marvel of mankind, the center of the land, the shining residence, the dwelling of Majesty, upon the Babil place in Babil, from Imgur-bel to the eastern canal Libil-higalli, from the bank of the Euphrates to Aibursabu, which Nabopolassar, King of Babylon, my father, my begether, built of crude bricks and dwelt in it-in consequence of high waters its foundations became weak, and owing to the filling up of the street of Babil the gateways of that palace had become too low. It tore down its walls of dried brick, and laid its cornerstone bore and reached the depth of the waters. Facing the water I laid its foundations firmly, and raised it mountain high with bitumen and burnt brick. Mighty cedars I caused to be laid down at length for its roofing. Door leaves of cedar overlaid with copper, thresholds and sockets of bronze I placed in its doorways. Silver and gold and precious stones, all that was highly esteemed I heaped up within it, I stored up immense abundance of royal treasure within it». (trans. by Delitzsch).

The palace of Nabopolassar, doubtless was not this large and is identified by the remains of the earliest palace on the site. Only foundations remain and these are of burnt brick. These bricks measure 32 x 32 cms., laid in asphalt and reed which were crushed. Walls are patched with asphalt. On the north side Nebucchadnezzar had strengthened the original foundations by an asphalt and reed wall which ran for about 10 metres. Nabopolassar's wall here is about 4 metres high and on top of this the wall extends upward with Nebuchadnezzar's stemped bricks. On the south the original wall was used, strengthened by a grid of wooden beams. Near the north corner of the eastern side is found an expansion joint

tered and white washed walls and was probably vaulted. On the southwest wall are 5 vertical niches measuring 0.15 in width. The depth of these was over a metre. Room 171 extends down the southeast side of the temple.

At the south corner of the palace terrace is a bridge that connects the palace to Nabu temple. This was merely an extension of a part of the terrace as close as possible to the front terrace of the temple so that a single arched bridge could connect them. The ramp begins at a point outside the face of the palace terrace. Since the temple is lower than the palace it is supposed that the change of level occurred on the bridge itself. The temple was constructed before the palace terrace because the temple ramp continues behind the bridge.

The Nabu temple itself was the most imposing structure in the compound, and was set on its own terrace. The only approach is by the ramp leading from the palace terrace to the terrace before the entrance. Directly inside is the forecourt around which are chambers or offices. The wall in front of the central court was elaborately decorated. On entering this one faces the facade of the inner temple. Before the doorway is an altar of enameled bricks.

The residential quarters of the priests may be entered from either of the two courts. The terrace on which the temple stands is of the same material (mud brick covered with lime plaster) as the temple. Around the entire base of the terrace is a watershed. Two drains empty into the street. The pavement around the temple is the double course of brick in bitumen and sand. The temple terrace was from 10 to 20 feet high and its outer face was of buttresses and recesses built of mud brick and whitewashed. The gate to the inner court had pedestals on either side decorated with glazed bricks.

around the entire room. On the north-east wall is the entrance to room 163. The paving of 167 continues into this room.

Room XXVI is probably where most of the temple ritual took place judging from its size. The area is 8.80 x 15.80. Its pavement is in place. A little left of center about two-thirds the length is a stone jar set into the pavement. This may have contained holy water or oil. At the far end a flight of steps lead up to the sanctuary. These are flanked by platforms faced with underdecorated limestone. These probably held statues. Room XXVI is also whitewashed plaster and has a dado extending to a height of 1.50. Room 165 is the smallest room in the area and is approached by a monumental stairway which denotes importance. The walls were plastered and whitewashed and contained a 2 metre dado. In the center of the back wall is a niche 0.30 deep x 3.40 wide. It is backed by 7 half-columns.

The Adad temple was a single room measuring 0.70 x 11.10. Its arrangement of platform and niche is almost identical to the Sin temple. This temple was paved with brick and two small flights of steps led to the platform. The doorway is off-center and the platform is placed accordingly. No decoration is evident except six half-columns in the back of the niche.

Structural features and decoration of the Shamash temple are almost identical to those of the Sin temple, except for minor differences. From the anteroom the corridor (170 & 171) opens at the left and runs only along one side and part of the rear of the temple. Room 168 opens off the temple hall. The dimensions of the rooms are about the same as in the Sin temple, although narrower due to the absence of a room equivalent to Sin temple room 162. This space is taken up by part of the Ningal temple. It is paved with baked bricks, has plas-

the Shamash temple is dominant and duplicates that of the Sin temple. The whole wall, however, is not as well preserved. On the north-east wall the central doorway leads to a small chamber which is not a temple. It is flanked by small buttresses that project 0.80. They have 5 half-columns.

The temple of Ea is entered by a door to the left of the center. Court XXI measures 21.70 x 20 metres. At the right of the entrance is the door to the temple of Ningal which is nearly the same as those of the Sin and Shamash temple entrances. The pavement is the usual two courses of brick. The walls were plastered and painted white. A fire seems to have been the destroying factor. The existence of the «tree» was marked by bronze bands which would have encircled the trunks. The painted motives have suffered almost complete destruction. The southwest wall of this court is unique in the whole palace. Across its entire width is a series of alcoves measuring 2.50 square. Between these a space of 1.50 is the thickness of the wall. The walls of these are plastered and the court pavement extends into them. It is likely that these provided protection from sun and rain to those who waited to enter the temple.

Upon entering the Sin temple is a long narrow anteroom with a main axis at right angles from the entrance. Near the corner to the right is a door to a chamber which surrounds the cella. At the end of this is the main room, elevated above the floor and approached by a broad stairway. About the center of the left wall of the central hall is a door leading to a long narrow chamber. Room 164 may have been either a storage room or a living quarters for the priests. The absence of drains in the area indicates that it was covered. The corridor and room 164 were probably vaulted and the other chambers spanned by beams and flat roofs. Room 167 in the area measures 5.60 x 22.70, and is paved with stone blocks. The walls are whitewashed mud plaster and a dado of 2 metres runs

of a large temple dedicated to Sin. To the left is a smaller door leading to a sanctuary dedicated to Adad. On the southern wall is the entrance to the temple of Shamash adjoined by a small temple of Ninurta. To the left in the north corner of the court is a small temple to Ea. On the northeast wall is a doorway to a small waiting room.

The court measures 31.20 x 30.40. The pavement is the usual double layer of bricks, the lower one set in bitumen and the upper one laid over it in a layer of sand. The upper bricks are slightly larger than those underneath. Place shows intersecting diagonal walks of slabs, but the Chicago expedition did not reveal them. The southwest wall is broken by elaborate niches and half-columns of whitewashed mud plaster. A black dado goes around the court. All the temple doorways have inscribed stone thresholds.

The main feature of the northwest wall is the doorway of the Sin temple. Flanking buttresses were originally decorated with statues and glazed brick «trees». The threshold was a slab of alabaster and the passageway measured 3.40 x 3.60. In the corner formed by the buttresses and the wall was a stone ring, perhaps used to hold the ropes of banners or streamers. On each side of the doorway projecting in front on the buttresses and extending for 7 metres were a pair of shelves. These were decorated with a glazed design of circles, squares, and crosses. Above this was another scene of glazed brick showing a lion, eagle, bull, fig tree, and plow. The figure of the king is at one end and the prime minister at the other. On the buttresses are seven half-columns, each with a diameter of 0.35 and having no space between them. On each side is a niche measuring 0.35 wide. On the same wall the entrance to the Adad temple is not nearly so elaborate. It is decorated by the 7 half-columns and two niches. The south-west wall was almost identical to the one facing it except for small differences in dimensions. The entrance to

cuts off the rear of the last horse, indicating that the procession is endless. On this same wall the drain is placed in front of the king's figure, the illusion is that the king is placed on higher ground and his subjects are walking uphill. The king's figure, in reality, stands a bit lower, but the figures lean slightly forward.

A corridor connects the residential section with court VIII and ends in a terrace facing the mountains. It is three metres wide and 22 metres long. The end doorways were flanked by bulls and the roof may have been vaulted. The lengthwise walls of the corridor were decorated with a long relief of horses, bulls, and men, of which only the legs are now to be seen. There were originally two registers of figures with an inscription running between them. The room designated as room 7 is placed in the residential wing which extends to the terrace to the northwest. It is supposed this room was the King's sitting room. This faces out towards the mountains on the widest part of the terrace.

The reliefs of the room on the lower register show a hunting expedition. Very little of the upper relief remains, but it is believed to have been a banquet scene. At any rate, the subject is of pleasure rather than state matters.

In the southern corner of the palace is a group of rooms and a large court (XXX) which Place had identified as the harem since it is so detached and access was possible only by two rather concealed doorways leading to its outer court (XXX) Andrae(1) believes this not to be a harem, but a complex of temples, and this idea was verified through the later excavation. Court XXVII was the center for the temple complex and from it open five of the six temples in the group. Upon entering, directly opposite the doorway is the entrance

1. Andrae, *Das Gotteshaus und die Urformen des Bauens im Alten Orient*, pp. 22 ff.

room designated as room 12, the royal bath. It measures 6.00 x 8.50. In the middle of the south-east wall is a niche 2.80 metres in width. A fire had destroyed the room so that only the lower parts of a relief showing some king of procession is apparent on south-east and south-west walls. It probably depicted servants or eunuchs waiting on the king. A doorway in the southwest wall leads to room 11. The walls beside the threshold were also carved in relief - the door opened in the middle. The bathroom pavement is of rectangular stone slabs of various sizes. One larger slab in the south-east wall shows a depression for a bath tub. The nearby niche has a hole connected with a drain. The ceiling and walls above the slabs were of painted plaster as fallen remains testify.

Directly off of court VII is court VIII. Around the walls of this court were carved slabs depicting Sargon, attendants, foreign subjects, horses and their grooms, etc. Palace furniture may be noted in these slabs as it shows several attendants carrying tables and chairs; one carries a stool and one carried a city model. Just beyond this procession is one of the small doors that flank the main entrance. This side entrance was lined with bulls and winged human figures facing the court. The central entrance leading to court VII also was flanked by winged human-headed bulls facing court VIII. The projection into the court was also flanked by the same type of monster with their heads turned to face the court. These figures are placed back to back with slabs between them showing a bearded figure strangling a lion. The pavements of the court are poorly laid regarding alignment and direction. This flooring consists of two layers of brick separated by sand, the lower one covered with bitumen. Stone chips under the pavement would indicate that the blank walls were set up first and decorated before the bricks were laid.

At the west corner of the court, where the procession relief ends is an architectural trick of building a niche which

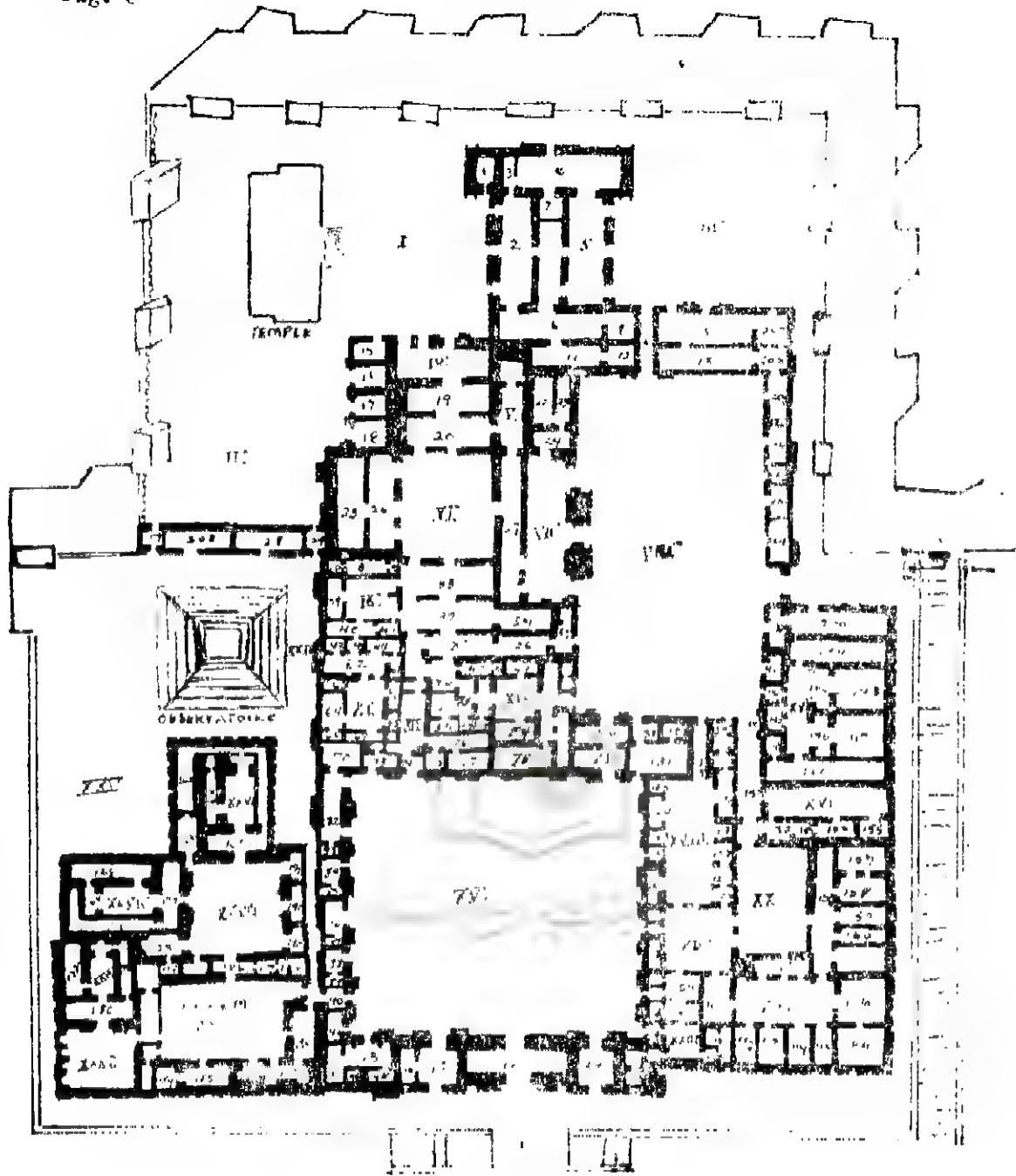
piling up heads before him. The wall slabs of this room had been removed leaving very little by which to trace the walls. The bulls at its doorways had been left in place along with two large monolithic niches, one opposite the central opening and the other in the southeast end which was the base for the throne. Fallen plaster was painted in many designs. Some bore traces of wood, revealing the roofing material. The beamed ceiling was painted with designs and above the relief slabs which circled the walls was plaster painted with figures. The slabs were no doubt taken to be re-used for other building. On each side of the entrance leading from court VIII were two smaller doors flanked by less imposing bulls.

The niche across from the entrance is 5 metres wide. Through the main entrance and a little to the left is a row of stone slabs 2 x 4 metres leading down the center of the room to the throne. The dimensions of the entire room as deduced from these markers was 10.50 x 47 metres. The three large slabs leading to the throne are the only indication of pavement. A gray layer of clay seemed to cover the entire remainder of the floor, but since all other rooms of any importance were paved, this one no doubt was also. The throne base is the most outstanding feature of the room. It is 4 metres wide and projects 4.60 metres from the wall. The throne was reached by two small flights of steps at the front corners of the base. The niche behind the throne appears to have been undecorated and must have risen to the ceiling. The empty niche facing the entrance corresponds in shape and position to the corresponding position of the god's statue in the usual northern temple.

Traces of plaster indicate that the three exposed sides of the ceiling beams were decorated, the ceiling itself being painted blue.

Behind court VIII and part of the residential wing is a

Fig. 6



RESTORED PLAN OF SARGON'S PALACE AFTER PRICE

also faced with limestone toward the city and mud brick in back.

The palace entrance at the top of the ramp led to a large court (XV), each side of which measured 300 feet. On the right were offices and service quarters, on the left three large and three small temples. Behind this court was the King's

the main problem was to fit the jagged, though rectangular structure on a terrace which is quite different in shape and size from those set by Place. The contour of the land led to the idea that the outer palace terrace was irregular and based upon topographical contours. Place presented a terrace which consisted of two rectangular forms, both of the same depth, but the back half being slightly narrower. (See Fig. 6). The later excavation shows the form of the terrace to vary from this somewhat, being of the same rectangular forms, but slanting to the right with only the north wall of the back portion being not at an angle from the wall which contains the terrace. (See Fig. 7). Place's room arrangement and measurements, however, were correct with only slight variations.

The shape of the terrace no doubt takes its form from a natural mound. Excavations point to the supposition that the terrace was partly natural and not made of solid mud-brick as formerly recorded by Place. The terrace is mainly built up of rubbish and faced with limestone. The mound was leveled at the top and the sides walled up. The top of the mound was then paved with mud brick before building of any kind was started. Sargon says that he established «its foundation platform upon the bed rock of the high mountain».

The palace terrace projects outside of the city wall and this face was no doubt in mud brick to coincide with the wall itself. The ground level slopes from north-east to south-east. The revised height of the terrace is 12 meters, about half the height assigned by Place. The two approaches to the palace are by the broad ramp which leads to the main entrance at the south-east wall or by a smaller ramp leading to the south corner. There is also a bridge between the palace and Nabu temple. The terrace pavement is the same as that of the palace courts. Two courses of baked brick are set with sand and bitumen. Around the entire palace terrace is a parapet wall

pied by kitchens, stores, smithies and potter's kilns (K). A royal palace, in those times, formed a whole and was, in fact, a miniature but complete town.

No less remarkable than its ordinance was the construction itself of the building. The walls were made of large, unbaked bricks lined with several layers of mud and plaster. In the bath-rooms and lavatories, a coat of bitumen protected the floor and the lower part of the walls. No trace of windows was found but it is likely that the rooms were lightened through their broad and high doors opening on the courtyards. The existence of a second storey is rendered probable by the thickness of the walls and the staircases clearly recognizable. As for drainage, it consisted of gutters and vertical, bitumen-lined pipes going down 30 feet in the ground. The whole system had been so carefully planned and installed that the waters of a violent rainstorm, which occurred during the excavations, disappeared within a few hours, the drains having worked again, most efficiently, after forty centuries.

The Palace of Sargon II at Khorsabad: (722-705)

Around 1867, Victor Place, during his excavations at Khorsabad was able to uncover many parts of Sargon's palace. But the excavations of the University of Chicago in 1932 discovered the other areas of the palace which differ from the plans submitted by Place. Place thought that he could determine those parts he had not excavated on information gained from his other diggings, as he believed them to be similar.

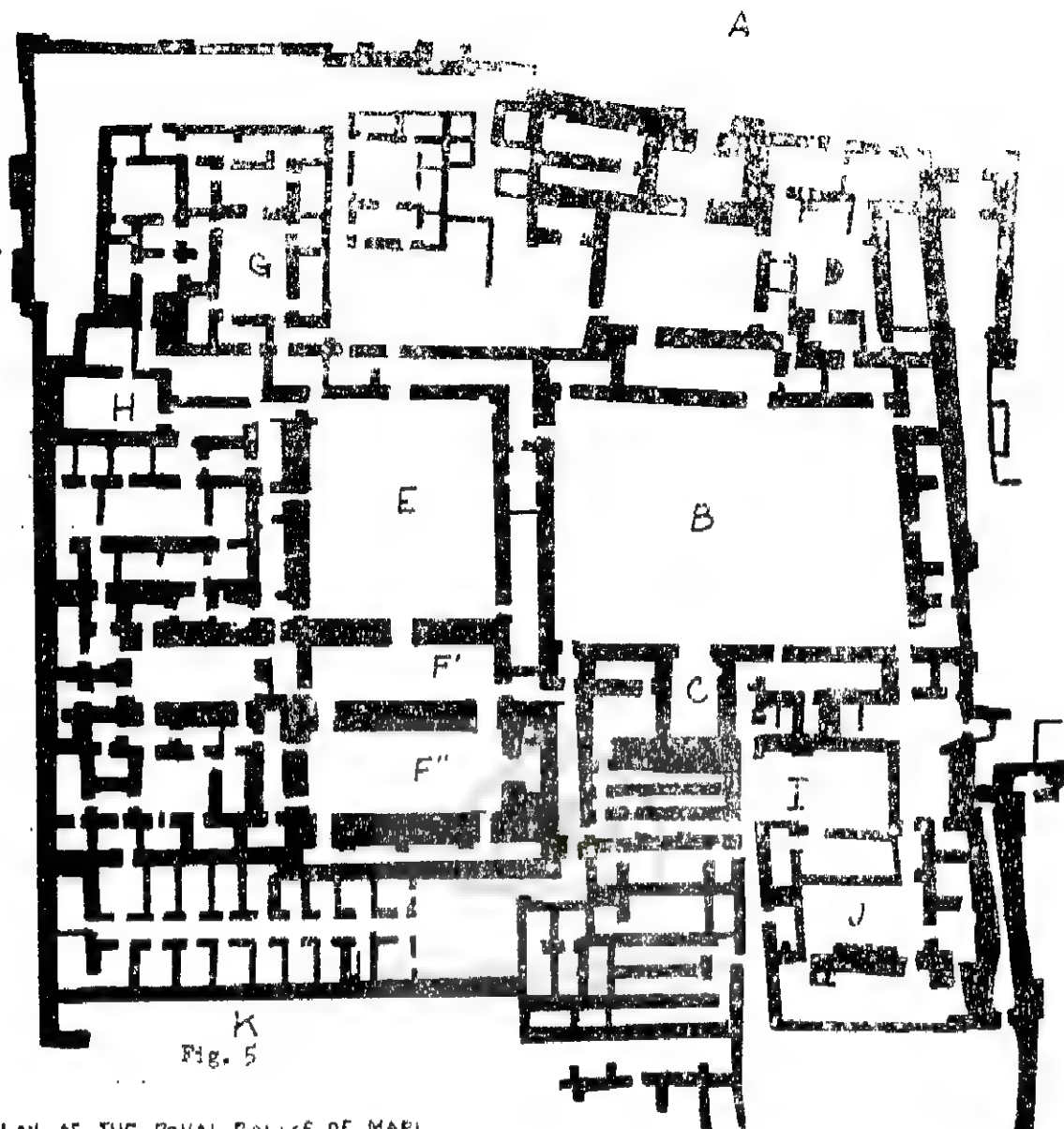
The palace of Sargon measures 350 x 320 metres on a terrace through which many small canals with roofs were built for drainage. The building is a combination palace and castle surrounded by high walls and fortified by towers. Its few entrances were strong and very well guarded.

In revising the plan of the palace as recorded by Place

slabs and flooded with light. (B) On the opposite side of the courtyard, three elegantly-curved steps gave access to an oblong chamber, the walls of which were decorated with frescoes (C). Here was, in all probability, the «throne room» in which the King of Mari used to give audience to his officials and to foreign ambassadors.

To the west of the «courtyard of honour» a complicated suite of rooms and corridors led to the public sanctuary of the palace which consisted of a courtyard (E), nearly as large as the first one, and two rooms, (F, F'). The walls of the courtyard were decorated with brightly colored paintings which have in parts survived and are now in the Louvre and Aleppo museums. They represented religious scenes: a bull brought to the sacrifice, the King of Mari «touching the hand» of Ishtar (a ritual observed during the New Year festival), offerings and libations to a goddess, etc. In the first room, along the wall facing the door was a low, plastered and painted dais which once supported some divine statue, perhaps the «goddess of the flowing vase» found nearby, thrown down on the ground. At one end of the second room a flight of steps led to a small, high chamber or cella while the other end was provided with a platform on which the King probably sat during the religious ceremonies.

This was the heart of the palace. Around it were arranged various quarters. For instance, at the south-eastern angle of the building and on a slightly higher level, there was a small but neatly built and richly decorated chapel, probably devoted to the private cult of the King (J). Towards the south-west, around a courtyard, there was a series of rooms decorated with frescoes, and several bath-rooms, one of them with two terra-cotta baths still in place. These were the apartments of the King and Queen of Mari (G). Nearby was a two-roomed school with rows of clay benches and tablets scattered on the floor. (H) The rest of the palace was occu-



PLAN OF THE ROYAL PALACE OF MARI

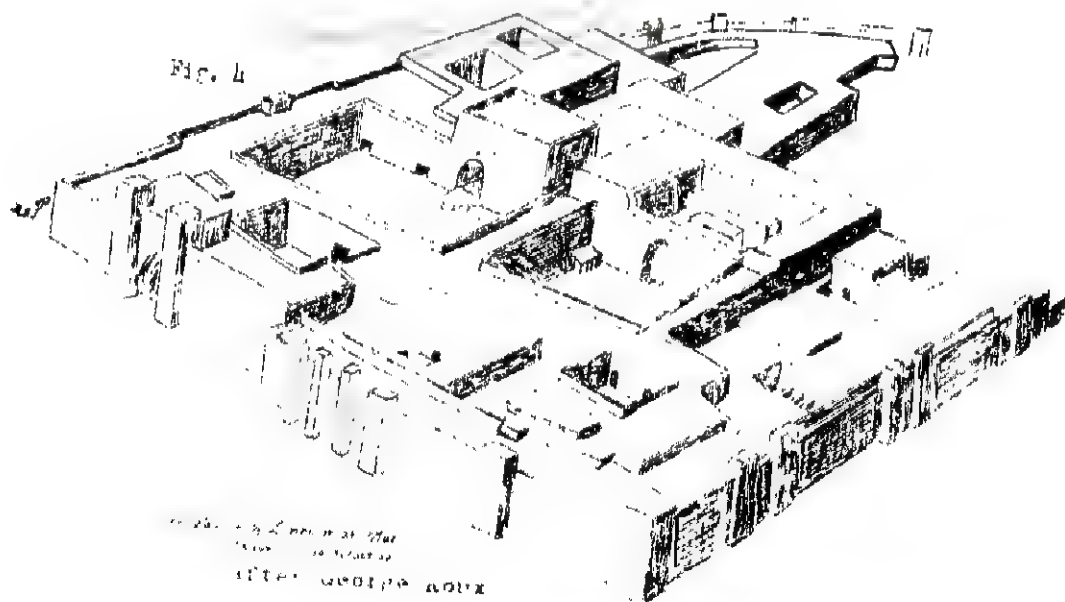
Key

- | | |
|-------------------------------|---------------------------|
| A. GATE | F. SANCTUARY |
| B. GREAT COURTYARD | G. APARTMENTS OF THE KING |
| C. THRONE ROOM | H. SCHOOLS |
| D. VISITOR'S QUARTERS | I. PRIVATE SANCTUARY |
| E. COURTYARD OF THE SANCTUARY | K. KITCHEN AND STORES |

strongly guarded vestibule opened in the thickness of the gate, a first courtyard, on both sides of which were quarters for visitors and for the garrison (D), and a dark corridor, one would enter the great courtyard of the palace, a majestic open space, 49 x 33 metres, paved with carefully hewn white

to new political conditions. The Church and Crown were divorced. No longer was the King merely the first servant and the champion of the city's god; he was the authority and considered himself as the absolute master in his kingdom. Under the Amorites, the Royal Palace, hitherto non-existent or modest became a huge building, a vast compound of rooms, shrines, schools, stores, kitchens, arsenals and stables encircled by strong walls. It was altogether a house, a fortress, and a caravanserai. It was a city within a city.

By far the most important monument of Mari is the palace of the Amorrite Kings who reigned at the beginning of the second millenium. Not only is this huge building, comprising of no less than 260 rooms and courtyards, impressive by its size but it was, at the time of its discovery in an amazing state of preservation, its thick mid-brick walls rising in places to a height of 16 feet. It is, up to now, the best example of ancient Babylonian palaces ever unearthed.



Its enormous outer wall, laid on stone foundations and reinforced with towers and pillars, was pierced with one gate only, in its northern side. (See Fig. 5-(A). Passing through a

about a metre. Changes have been made principally in the rooms west of the Central Court. These were demolished and a suite of five new rooms built.

The next ruler, Ibalpiel I, rebuilt these and the Ibiqadad rooms to the north and united them with the rest of the building. This rebuilding was very complete and the walls were of baked brick. The rising level now caused the eastern entrance to have five steps leading up from the street. In the Central Court is a large new drain made of baked bricks. The rooms east of the Central Court remained exactly the same and the remaining eastern wall of the Great Hall was re-used.

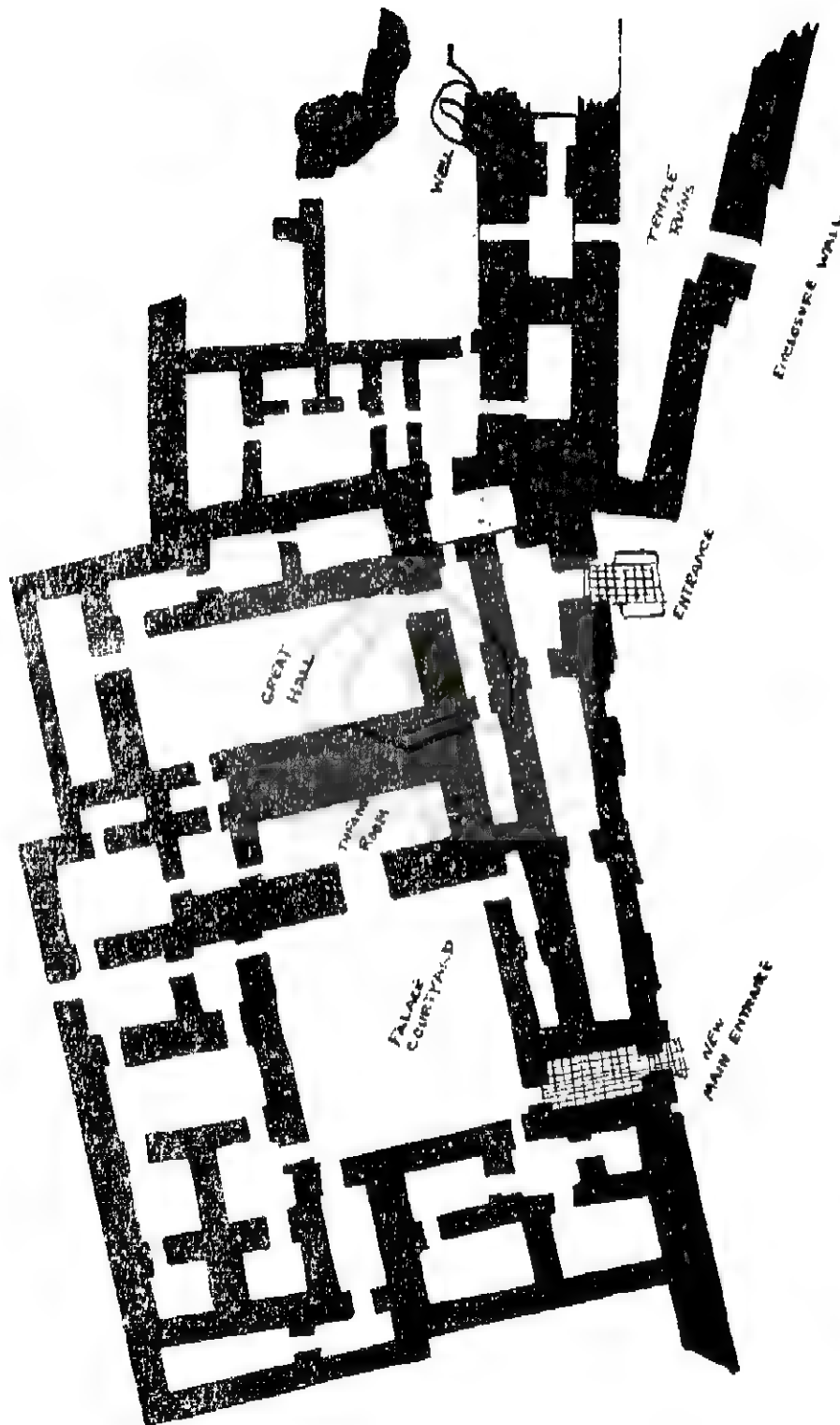
Ibiqadad II rebuilt the old palace and also laid foundations for a larger one on the south side of the street. It is possible, since the floors are paved, that this palace had been completed and then destroyed by an enemy. For we do know that shortly after the reign of this king the independence of Eshnunna came to an end.

The entrance was flanked by two towers projecting from the north wall. Since this southern building was laid out on a site having many small walls and ruins, and a building of such weight could be expected to settle, it seems uneven settling was combated by distributing the weight over a larger number of foundations than they intended to raise. The foundations were laid by digging tranches with almost vertical sides. These were filled with brickwork. There were no doorsills or pivot stones to denote the relationship of the rooms.

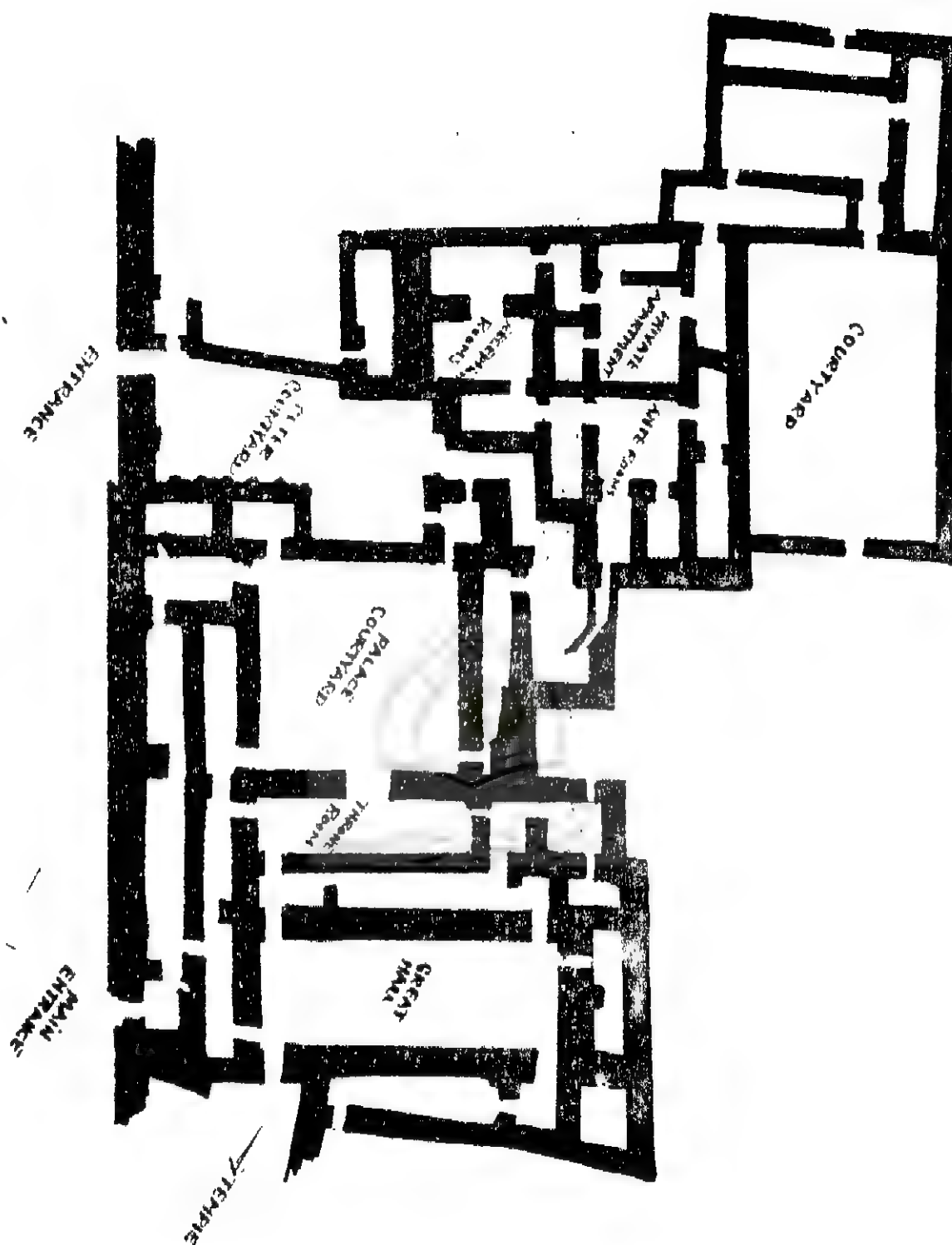
The Palace at Mari :

One of the main features of the Old Babylonian period was the importance given to the Royal Palace. This was due

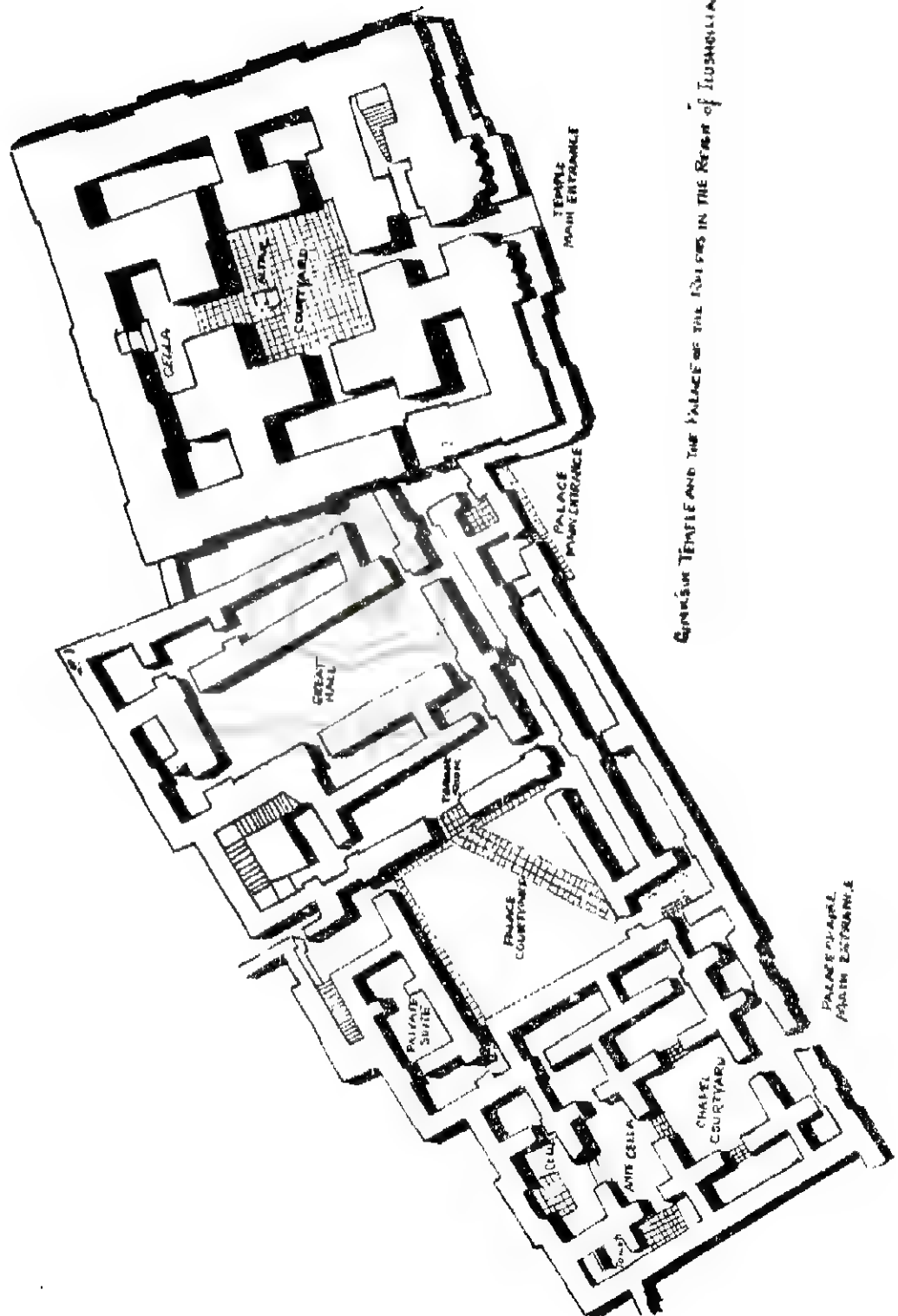
Fig. 3



PALACE OF THE NUBIANS IN THE REIGN OF ISEPHAT I.



PALACE OF THE RULERS IN THE REIGNS OF BELALAMA AND ISHARUMASHUM.



QINSHUI TEMPLE AND THE PALACE OF THE RITES IN THE RUINS OF IUSHANLIU: SCALE, 1:400

led to a small vestibule, which led to the old stone staircase compartment, a third door led into the open. Instead of a stair, a steep ramp was now used. At the top of the ramp was an entrance to a new room, completely paved. Behind this was a long gallery which ran behind the Throneroom. The Great Hall was a reconstruction of the earlier one. The private suite and other rooms at the higher level consisted of a northwest wing connected to the lower-level palace by an ancient staircase. The main reception rooms were a small scale modification of the unit consisting of square court and rectangular Throneroom. The levels of the three northern entrances to the palace suggest that by this rebuilding the site slopped to the east as well as to the south.

The next construction seems to have attempts by several rulers, Usurawasu (?), Azuzum, and Urninmar who made the greatest attempt at rebuilding.

The usual conservatism was shown in regard to the central court and to the rooms east of it. The area west of the court was replanned. The old eastern doorway was retained. It is very difficult for archaeologists to determine the actual remains of this rebuilding. Between the reconstruction of Urninmar and the surface of the tell are three rebuildings, the first and third belong to Ibiqadad I and Ibilpiel I. The second is anonymous. (See. Fig. 3).

Ibiqadad I increased the size of the central court by pushing the north wall out further and absorbing the two small rooms on the west of the court. The northern area, the high-level rooms, were re-planned. He used the southwestern entrance and added a paved vestibule. He rebuilt the street wall east of the entrance, decorating it with buttresses and recesses. His walls of the whole remaining structure rarely coincide with those beneath them.

The second rebuilding shows a rise in the floor level of

level. This room may have been used for ablutions before entering the temple. Just inside the temple is another room for this same purpose. The two doorways on the west side of the Great Hall led to a storeroom and to a vestibule opening into the Throneroom. Both doorways had doors. (See Fig. 1).

The next rebuilding of the palace was by Nurahum who retained the original plan. During this period the open court was bounded on the south by the entrance vestibule and adjoining rooms. The street wall was made thicker. The old entrance on the east was re-used. East of the entrance vestibule was a small brick-paved room. There was now also an impressive paved stairs starting at the doorway of the north end of the Throneroom.

The next ruler to leave architectural traces at the site was Bilalama, son of Kirikiri, who completely rebuilt and extended the palace. (See Fig. 2). A fire had destroyed most of the Gimilsin Temple and the previous palace, and he decided to incorporate as much of the remaining temple as he could into his new palace. The palace itself was rebuilt very much as before. He reinforced the old south and east walls of the former cella and filled in behind them an area which raised about 2 metres above the existing floor. Here he built a new suite of apartments for himself. He extended the building for some distance to the north. The open courtyard west of the palace court was enlarged. The eastern entrance was now through the door of the previous state temple. The two entrance towers no longer existed in a symmetrical form, the western one projecting further. Two new rooms were built west of the Central Court. The entrance vestibule has a thicker northern wall. The central court is a vertical repetition of the earlier one. The northern doorway of the Throneroom

tral court. This ante-room also had a doorway leading into a chapel. In front of the doorway is a rectangular pavement with a low curb, which was no doubt where ablutions were performed.

During the subsequent occupations the floor of the court slopped to the center, indicating a system of drainage had been developed. The door at the northeast corner led to the suite of three rooms previously mentioned. The middle room was 31.20 metres square and a rectangular room east of it (31 x 19 m.) was connected by a wide doorway. At the front of these was a small vestibule. On the western side of the vestibule was found a pipe made of long jars with the bottoms broken out and thrust into each other. This probably provided water for ablutions before appearing before the ruler. The north-eastern doorway led to an L-shaped room. In a room north-east of this was a staircase approached through the ante-room north of the throneroom.

The Great Hall bears no evidence of paving or draining facilities. In many places its walls have a fine plaster surface. Thus it must have been roofed. Since its walls are thicker than most of the interior walls, this would also indicate a roof. Probably the hall was vaulted since timber was hard to get and the expanse was six metres. There is no evidence to indicate a method of lighting. Doorways from this hall are thought to have led to government offices.

Passing through the southeastern door of the Great Hall were three long adjoining rooms. The center one led to the Throneroom, the last entered the courtyard. To the east is a vestibule from which a doorway led to the temple. Southwest of the vestibule is a small square paved room at a higher

The plan of the Ruler's palace at Tell Asmar consists of a partially paved central court with a door near the four corners beyond which was a long rectangular room. The entrance from the street to the central court was through a series of rooms, the distinguished feature of Mesopotamian palace arrangement. The group of three rooms might have been the ruler's private section. Two paved staircases were uncovered, one of which leads to the flat roof. And the three buildings of the palace faced south on a partially paved street.

The third building to the west of the palace was definitely a small temple and the palace main entrance was at the south east corner where it joins the Gimilsin temple. The entrance doorway has two steps that lead into a small entrance vestibule(3). In the next rebuilding these steps were repeated at a higher level. Later the relation of the floor and the street level changed so that the steps led up. The position of the entrance remained the same, however, denoting very conservative planning.

From this vestibule, one passed west into two long chambers, then into a small ante-room which opened into the cen-

-
1. P. Delougaz, H. Hill, Seton Lloyd, *Private Houses and Graves in Diyala Region*, OIP, Vol. LXXXVIII (Chicago, 1967), pp. 183 ff.
 2. E. J. Banks, *Bismaya or the Lost City of Adab*, (New York, 1912)
 3. H. Frankfort, Seton Lloyd and Th. Jacobsen, *The Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers at Tell Asmar*, OIP, vol. XLIII, (Chicago, 1940), pp. 27 ff.

Most of the well-known and well-preserved palaces come from the Late Assyrian and New Babylonian periods. The many discovered Assyrian palaces refer strongly that the Assyrian kings took great care in building their residences in order to be the symbols of their power and richness.

In viewing the Mesopotamian palaces one notices that most of them were of one storey, rectangular or square in shape, and divided into many parts, each section having its own purpose and the whole was usually built on a terrace. Its prototype might be seen as early as Jemdet Nasr period (3200-3000) B.C. where an artificial terrace (300X200 M.) high was uncovered on which a complicated establishment (92-48 M.), called by the excavators the palace, was erected. If this building was actually a palace, and it may well be so, then it may represent a step towards the emergence of the ruler's post and resembles an evolution in government and order as well.

A better light was shed by the Rulers Palace at tell Asmar which was restored many times. The earliest building of the North Palace (called so to be distinguished from the Ruler's palace) was L shaped consisted of three large courts (halls) adjoined by smaller rooms of different sizes and shapes. The earlier palace entrance was in the North corner through two successive vestibules. At the South Western corner of vestibule E is what might be a kiln. The plan of this palace exhibits the clever device of rooms grouping, and the entrance that connects the narrow street to the east is not known. The building that consists of a central block of rooms might have been the main residential section. The North group was given probably to the guards or servants while the southern section was possibly the women's suite. The entrance led to the long vestibule (court) E 14:1. Beside the door a large quadrantal bin was placed probably contained fodder for the animals used. Two drains met in the middle and go by the ent-

IMPORTANT ANCIENT MESOPOTAMIAN PALACES

Dr. Sami Sald Ahmed

College of Arts/University of Baghdad

It is very difficult to arrive at a definite date for the construction of the first palace in Mesopotamia or even its period. This, no doubt has a great connection with the history of the inception of monarchy. It is probable that the temples themselves, at the beginning, were the places where kings and rulers first dwelt. Thus one may be safe to assume that temple priests at early times had both secular and religious authorities in their hands. Accordingly, the temples in these far-off times were the palaces where the lieges lived and practiced their secular business. The adjoining of most ancient Mesopotamian palaces to temples may also point in this direction. Unfortunately, archaeology has put very little light on the plans of the palaces structures of the early periods.

Many texts mention how kings and rulers built and maintained their palaces, e.g. Ur-Nammu and Gudea, but the traces of their palaces have not been found. This no doubt due to the great numbers of conquests and invasions where the conquering armies went first to destroy the ruler's palaces. The same reason explains the better preservation of temples as compared to royal residences.

- 11 — Od., X, 348-373; 483 ff.
- 12 — Od., IX, 34-6. One would also note here that, although Odysseus does not mention his wife, he is still expressing a 'parental' conception of happiness in a retrospective way of a man and his parents.
- 13 — Neo-Assyrian version, Tablet K 339+3934, col. IV (obverse), ll. 39-61; col. V, ll. 1-33; col. VI, ll. 1-15.
- 14 — Old Babylonian version, col. VI, ll. 1-15; for the hint to the real nature of the disturbance, col. V, 376-383.
- 15 — Oedipus Tyrannus, 24-30.
- 16 — Od., XI, 270-280.



time. A monography by an unknown writer during the reign of Hadrian (117-138 A.D.) or shortly after, talks of a poetic contest in which Hesiod and Homer contended with hymns to Apollo thus suggesting the same time for the two poets. This, however seems an elaboration on the song contest which occurs in the *Works and Days*, 11. 654-62, with no mention of Homer. See Hugh G. Evelyn-White's introduction to the *Homeric Hymns and Homerica*, LCL pp. XV-XVI, XLI-XLII. However, on internal evidence based on the development of Greek political thought. Hesiod's poems could be placed half a century or so after those attributed to Homer. See: Lutfi A. W. Yehya, *From Homer to Hesiod, a Socio-Literary Introduction to Greek Political thought* (The Archaeological Society of Alexandria, *Archaeological & Historical Studies*, 4), Alexandria, 1971. On the relation between the Mesopotamian and Greek myths concerning the creation of man see: Robert Graves, *Greek Myths* (Pelican ed., 1962), I, p. 34., in which the author takes it that the Greek myth was borrowed by the later Greeks from the Babylonian *Gilgamesh* epic. I can see nothing that stands seriously in the way of an earlier timing, despite the fact that the myth was written down by late writers. In Homer's account of Oedipus no details are mentioned, yet these subsisted in Greek memory till they appeared in Sophocles. From another angle early Babylonian effect on Greek mythology has been known (e. g. The Deluge; Inanna & Dumuzi — better known as Ishtar and Tammuz and Persephone & Adonis).

9 — Epic of *Gilgamesh*, Tablet X (old Babylonian version), col. 3, «l. 6-14, ANET, p. 90, English Translation by E.A. Speiser.

10 — Od., IX, 5-11, A.T. Murray's translation in LCL.

- XVI**, 415 ff.; see also: Donald Harden, *The Phoenicians*, London, 63, pp. 57 ff.
- 2 — On the Indo-European migrations in general, see: G.V. Childe, *The Aryans*, London, 1926; *Prehistoric Migrations in Europe*, Oslo, 1950. On the Sea-Peoples in general see: R. D. Barnett, *The Sea-Peoples*, **CAH**, II, ch. XXXVIII; H. J. Kantor, *The Aegean and the Orient in the Second Millenium B. C.*, Bloomington, 1948; G. A. Wainwright, *Some Sea-Peoples and others in the Hittite Archives*, **J.EA.**, XXV, 1939.
 - 3 — Tablet, I, 11. 1 ff., English translation of the Akkadian text by E. A. Speiser in **ANET**, pp. 61 ff.
 - 4 — *Iliad*, XIV, 201.
 - 5 — On the opinions concerning the controversy over the Mesopotamian delta: De Morgan, **MDP**, I, Paris, 1900, pp. 4.48 (depending on and codifying Plinius, **NH**, VI, 31:13; G. M. Lees and N. L. Falcon, *The Geographical History of the Mesopotamian Plains*, **GJ**, CXVIII (1952), I, pp. 24-39; G. Roux, op. cit., p. 20; Werner Nuetzel, *The Formation of the Arabian Gulf from 14000 B. C.*, **SUMER**, XXXI (1975), pp. 101 ff.
 - 6 — Tablet I, col. IV, 11., 189-216; col. V, 231-242. See on the Epic: W. Lambert and A. Millard, *Atrahasis: The Babylonian Story of the Flood*, Oxford, 1969.
 - 7 — Tablet I, col. 2, 11. 30-35, **ANET**, p. 74.
 - 8 — Appolcdorus, I, 7, 1; Pausanias, X, 4, 3; Hyginus, *Fabulae*, Proem; Lucian, *Prometheus on the Caucasus*, 13; Ovid, *Metamorphoses*, I-II. Compare: Hesiod, *Theogonia*, 211-32. On the time of Hesiod, Herodotus (II, 53) puts him and Homer., together, 400 years before his

which the legend must have laid down in such detail as to enable Sophocles to portrayed them so vividly at a later date¹⁵, this must have been due to the fact that they were known to the Homeric audience widely enough not to necessitate their mention. However, Homer makes sure to refer to the woes and sorrows of the whole society of 'the Cadmeans' twice in less than ten lines and to connect them, in a personal manner, with Oedipus¹⁶ who was the greater sinner, however unknowingly, of the two.

Abbreviations :

ANET : Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, edited by: James B. Pritchard, Princeton University Press, 2nd ed. 1966.

CAH : Cambridge Ancient History.

GJ : Geographical Journal.

JEA : Journal of Egyptian Archaeology.

LCL : Loeb Classical Library.

MPD : Mémoires de la Délégation de Perse, Paris.

Notes :

- 1 — On the land routes connecting Mesopotamia with the Syrian coast and Asia Minor, see: George roux, *Ancient Iraq*, Pelican Books, 1966, p. 29. On the Aegean islands as an island bridge between the Greek mainland and Asia Minor see: J. B. Bury: *A History of Greece*, 2nd. ed., London, 1945, p. 3.; also: Hammond, *A History of Greece*, Oxford, 1963, p. 4. On the Hittite contacts with Homeric Greece see: O. R. Gurney: *The Hittites*, Pelican Books, 1964, pp. 47-50. On the Phoenician (including Sidonian) contacts with Homeric Greece: Homer, *Od.*, IV, 83-4, 618; XIII, 285; XIV, 291; XV, 118, 425;

chos, who was only a child when he last saw him before joining the Trojan expedition.

III

However, if man's task is to enjoy his life as best he could, he is not expected to go beyond that and use, or rather misuse, this life in such a way as to step over the laws set by society and, in so doing, displease the Gods. For the Gods will not let this pass without due punishment. In the already mentioned epic of Atrahasis we are told that mankind had made so much noise as to disturb the Gods. As a result these decided to send a drought on the land which lasted six years, devoured plant and animal alike and caused a which struck the whole population in every possible way including, even, the fertility of women's wombs, and all but annihilated them¹⁸. When we look for the nature of this 'noise' which had so much disturbed the Gods as to make them send their fury over land in such a devastating manner, we find a clear hint of new laws and decisions in the making and their author trying to force them through, to the discontent of the followers of old and established usage¹⁴.

On the Greek side, Homer narrates in the *Odyssey*, book XI, the story of Oedipus and his mother Epicaste, better known in later Greek poets as Jocaste, whose involuntary misdeeds ran contrary to the accepted traditions and laws of society — she, in marrying her own son and he, in killing his own father. Although both were unaware of the sins they had committed, the Gods would not tolerate these sins. Not only did mother and son meet with a sorry and pitiful end, but the whole Treban society was exposed, before that, to drought and plague which struck everyone and everything; men, women in travail, harvest in the ear and grazing flocks and herds.. Animal and even fertility in women's wombs. And if Homer does not make explicit reference to these woes,

« Thou, Gilgamesh, let full be thy belly,
Make thou merry by day and by night.
Of each day make thou a feast of rejoicing.
Day and night dance thou and play !
Let thy garments be sparkling fresh,
Thy head be washed; bathe thou in water.
Pay heed to the little one that holds on to thy hand,
Let thy spouse delight in thy bosom !
For this is the task of (mankind) ! » ⁹

In similar terms, Homer makes Odysseus say almost the same thing at the beginning of book **IX** of the *Odyssey*. «For myself,» runs the words of Odysseus, addressing Alcinous, «I declare that there is no greater fulfillment of delight than when joy possesses a whole people, and banqueters in the halls listen to a minstrel as they sit in order due, and by them tables are laden by bread and meat, and the cup bearer draws wine from the bowl and pours it into the cups — This seems to my mind the fairest thing there is»¹⁰

In book **X** of the same epic, Circe, the sea nymph, completes the picture — this time in a living tableau. We find her maids setting tables with plenty of meat and bread. One of them, mixing hot water to his liking, pours it on Odysseus' head and shoulders till she takes from his limbs the soul-consuming weariness. A year later, finding that feasting and merry making are not enough, he asks the Goddess to fulfil her promise and let him return home¹¹. No doubt Odysseus had a great yearning for his homeland — a fact which he expresses in no uncertain terms while he was relating his woes to Alcinous¹² — and a good deal to think about in Ithaca. But we cannot exclude from this his longing for his wife, the faithful and patient Penelope, and for his son, Telema-

and that it has three components: clay, moisture and a divine element. In the Mesopotamian epic of Atrahasis (narrating the Babylonian version of the Deluge), Nintu (or Mami), the goddess of birth, in response to an idea from Ea, the god of wisdom, takes a piece of clay, mixes it with the blood of one of the gods, spits in it, gives it shape—and the creation of man takes place⁶. A fairly similar procedure is found in the Epic of Gilgamesh where, under the direction of Anu, a major god in the Mesopotamian pantheon, the goddess Aruru conceives a double of him within her, washes her hands in water, pinches off some clay and casts it on the steppe and creates Enkidu to be the double of Gilgamesh, the semi-legendary king of Uruk and the hero of the epic bearing his name⁷.

The Greek version of the creation of man is not found in Homer but in later writers and poets who had evidently drawn on Greek lore connected with Hesiod's *Theogony* which echoes the last stage of the Homeric era. According to the myth, Prometheus, son of Iapetus, with the consent of the goddess Athene, formed men to the likeness of gods. He used clay and water from Panopeus, in Proclis, and Athene breathed life in them⁸ a process securing the same elements we find in the Mesopotamian myth.

II

So far I have dealt with the source of life. But life is there to be lived. And both Mesopotamians and Greeks knew how to live it -- and, strikingly enough, almost exactly on the same lines. In the Mesopotamian Epic of Gilgamesh we find its hero searching for the secret of immortality. However, he meets with Siduri, the ale-wife, who advises him to abandon his endeavours and to enjoy life as it is, since immortal life is only meant for the gods. In words full of significance she addresses him :

I

Starting now on the subject, the first myths I intend to deal with concern the source of the life as revealed in the conception of creation in both Mesopotamia and Homeric Greece. On the Mesopotamian side we learn from the opening lines of 'Enuma Elish', a long poem originally composed in the old Babylonian period in the early part of the second millenium B.C., that life started through the commingling of Apsu, the god of sweet water, and Tiamat, the goddess of salty water and that this resulted in the creation of Gods, man, and all other creatures³. On the Greek side, Homer tells us in the book XIV of the Iliad that all gods and all living creatures originated in the stream of Oceanos which girdles the world and that Tethys (who depicts the sea) was the mother of all his children⁴.

In both cases, the myth is a direct result of man's first contact with his physical environment. In Mesopotamia, the interplay of the sea-water of the Gulf and the sweet water of the last combined stretch of the two great rivers, the Tigris and the Euphrates is the one solid fact throughout the controversy of opinions pertaining to the formation of the Mesopotamian delta, the most fertile and life-giving part of the country⁵. On the Greek side the sweet waters might not have figured greatly in the life of the Greeks. But sea-water has certainly played a most preminent part, whether in trade, colonisation, decisive battles or literature; in fact one of the two epics attributed to Homer has as its main subject the sea adventures of a Greek hero. The idea of a stream of sweet water surrounding the world might, in this case, tentatively be a result of a migrating conception.

When we come to the creation of man, we find in both lands that this is undertaken on the suggestion of a deity

at others in minute details — testifies to the continuous flow of such myths throughout the area. Whether this is the outcome of common origin reaching back to some unknown past, of folk migrations, of circulation of ideas through economic or other relations or was simply due to some yet inexplicable anthropological coincidence, is outside the scope of this paper.

A short note, however, is not irrelevant in this respect; namely, that geographical and other means of contact between the two regions were not lacking throughout the ancient period. Three land routes lead from Mesopotamia to the Syrian coast and into Asia Minor on the one hand, while, on the other hand, the comparatively calm Mediterranean, especially in the Aegaeon area with its almost unbroken chain of islands, constituted a convenient bridge between Mesopotamia and the Greek World, bringing their endeavours and achievements in contact, either directly or through the media of such peoples as the Hittites or the Phoenicians¹. Added to this, it might be of some significance to mention two great folk movements which affected the area in question, at least in part, and were likely to bring about, in one way or the other, a certain amount of community of ideas and conceptions. The first of these was the movement of the Arian speaking peoples which started at the dawn of the second millenium B.C. somewhere between the Baltic and the Black Sea, continued almost to the 16th century and was to have far reaching effects on the entire Near East and the lands bordering on the Aegaeon, drawing the whole area from relative regional seclusion and putting it against an international cultural setting. The second movement was that known as the wanderings of the Sea-peoples which took place during the 12th century B.C. — among whom were the Achaeans or the Danaoi, immortalised by Homer — and was, in its turn, to put Greece in direct contact with the lands of the Near East².

MYTHS ON THE CONCEPTION OF LIFE :
BETWEEN MESOPOTAMIA AND HOMERIC GREECE

Lutfi A. W. Yehya

Professor of Classical Civilization

University of Alexandria

It is only common knowledge to say that one of the most outstanding features of the area comprising the Near East and the Greek World in ancient times is the continuous contact between its two components almost from the dawn of history. Economic and political relations, artistic and religious effects, military expeditions, folk migrations, circulations of all sorts of ideas, whether scientific findings, legal codes or myths through which man endeavoured to express his conceptions of the natural and social phenomena surrounding him — all these helped, in one stage or the other, to bring these two regions as close as possible to what we may call a complementary heritage.

In the present paper I propose to deal only with some of the myths relating to the conception of life in two parts in the area in question, namely: Mesopotamia in the east and Homeric Greece in the west. A striking resemblance between these myths in both lands — at times in the main elements,



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

1 — MYTHS ON THE CONCEPTION OF LIFE :

BETWEEN MESOPOTAMIA AND HOMERIC GREECE

Lutfi A. W. Yehya



مرکز تحقیقات و پژوهش در تاریخ و تمدن اسلامی

2 — IMPORTANT ANCIENT MESOPOTAMIAN PALACES

Dr. Sami Said Ahmed

THE ARAB HISTORIAN

A BULLETIN OF HISTORICAL RESEARCH

VOL. IX



مرکز تحقیقات کلاسیک و معاصر اسلامی

1978

Issued By

**THE UNION OF ARAB HISTORIANS
BAGHDAD - IRAQ**



THE ARAB HISTORIAN

A BULLETIN OF HISTORICAL RESEARCH



مركز تحقیقات کلاسیک و معاصر علوم اسلامی

1978

Issued By

THE UNION OF ARAB HISTORIANS
BAGHDAD - IRAQ

VOL. IX